اقرأ

إبراهيم المصري

خبز الأقوياء



تصدر فى أول كل شهر

رير: السّيد أ



دار المعارف بمصر

إبراهيم المصرى

خبز الأقوياء

اقرأ ٣٨٠

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٣٨٠)

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

الإهــداء

إلى موقد الشعلة وباعث الروح فى مصر الخالدة :

السيد الرئيس محمد أنور السادات

أهدى كتابى هذا ، رمز ولاء وتقدير وحب .

إبراهيم المصرى

كلمة

القيم المعنوية هى فخر الإنسان . وإنسان بلا قيم معنوية يفقد روحه . فتنطلق غرائزه من عقالها ، متحكمة وغاشمة وضارية ، تستبد بعقله وقلبه ، وتلهب فيه أوضع الميول والرغبات .

فبقاء الروح منوط بارتفاعها . ولا رقى للروح إلا بالقيم المعنوية ، تنسكب فى الوجدان ، وتندمج فى المشاعر . فتكبح الغريزة ، وتضبط الشهوة ، وتذكى فى العقل قواه المفكرة ، وفى القلب حرارته المحيية ، وفى الإرادة مضاءها الثابت ، وتدفع دفعاً إلى التفوق والاستعلاء .

وفى هذا الكتاب خواطر وتأملات فى تلك القيم ، من خلقية وعاطفية ووطنية وثقافية ، أعتقد وأومن أن الحياة لا تكتمل إلا بها ، وأن فى رياضة النفس والفكر عليها تتمثل فى الواقع قيمة الإنسان .

وقد تجمعت هذه الخواطر فى أطواء نفسى من خلال ما أبصرت ولاحظت وعانيت فى طريق حياتى . فكنت فى هدأة الليل وساعات الصمت ، أستحضرها جاهداً ، وأسرع باقتناصها وتسجيلها قبل أن تطلق لأجنحتها العنان وتفلت منى .

فإلى كل من لا يقنع بالمتوسط الشائع المألوف من الآمال والرغبات ، بل يتطلع فى لهفة الجائع إلى حياة خصبة عليا ، أقدم هذا الخبز المنتقى ، خبز التجربة والألم ، خبز الطاحين الباذلين الأقوياء .

إبراهيم المصرى

فى قيمة الأخلاق

عبقرية وعبقرية

قد لا يكون فى مقدور الفرد أن يتحدى غيره فى ميادين العلم أو الأدب أو الفن ، ولكن فى مقدوره أن يتحدى أيًّا كان فى ميادين الفضائل والأخلاق . ذلك لأن التفوق فى العلم أو الأدب أو الفن يصدر عن مواهب العقل ومميزات الفطرة ، أما التفوق فى الفضائل والأخلاق فيصدر أكثر ما يصدر عن القلب والروح . فمن الميسور على الإنسان ، والحالة هذه ، أن يعوض نقص مواهب عقله بوفرة فضائل قلبه وروحه ، إذ أن لكل إنسان قلباً وروحاً يهديانه بالغريزة الاجتماعية المشتركة إلى الإحساس بما للفضائل والأخلاق من قيم عملية وخصبة ، إن هو استمسك بها ، استطاع أن يطاول أصحاب العبقرية فى العلم أو الأدب أو الفن بعبقرية مثلها ، أو أبلغ منها ، فى الفضائل والأخلاق .

أخلاقنا وشخصيتنا

ليس مفهوم الأخلاق هو الرقة والدماثة ولين الجانب وحسن معاملة الناس فقط ، ولكنه إلى ذلك رياضة شخصية ، رياضة باطنية ، رياضة النفس على التحكم فى الانفعالات ، وضبط الغرائز والشهوات ، والتنبه لكل ما يمكن أن ينحرف من الأهواء والميول ، والتمسك باستقامة المنزع والضمير ، والثبات على ما استقر عليه العقل ، والحزم والدقة فى تصريف الأمور .

هذه أبرز خصائص الخلق المتين ، وهى متى اقترنت بمشاعر الرقة والدماثة واللين فى معاملة الناس ، حفظت على صاحبها وحدته المعنوية الكاملة ، فكان هو الرجل الاجتماعى الأمثل ، وكان فى الوقت نفسه الرجل القوى المتين الخلق الذى لا يتهيب العقبات بل يقتحمها ، والذى لا ينكص عن تأدية واجب جليل مهما اقتضاه من تضحية وبذل ،

كما سيتضح ذلك خلال حديثنا عن « قيمة الإرادة » وضرورتها فى تكوين الخلق وإعلاء شخصية الإنسان :

نحن وأعمالنا

نحن قل أن نفكر فى عواقب أعمالنا . ولكننا مقيدون بالناس ، ومن المحال علينا أن نعيش فى عزلة بحيث لايصيب الغير ما يصدر عنا من خير أو شر. إن أعمالنا هى أولادنا . وكما أن أولادنا لابد أن ينسلخوا عنا ويحيوا حياة مستقلة تتصل بالناس ، كذلك أعمالنا لا بد أن تتفاعل مع الأشخاص والأشياء وتحدث أعمق الأثر فى الحياة الكبرى .

الخير والشر

الشر قوة إيجابية ، والخير فى الغالب ميل فكرى ورغبة سلبية . فكل رغبة فى الخير ينصحك بها عقلك وتهمس بها عواطفك ، يجب أن تذود عنها ، وتحاول ما استطعت أن تجعل منها قوة خلقية إيجابية ، تعرف كيف تعمل وتخدم وتفرض نفسها على الحياة كما يفعل الشر ، وإلا أسرع الشر العامل اليقظ فطوقها ، وحطم جوهرها ، وحال بينها وبين إنجاز الأعمال الطيبة الجليلة التى كان فى وسعها أن تبدعها .

أقصى الشر

من الناس من إذا انغمس فى الشر ، لا يقر له قرار حتى يلوث إنساناً صالحاً ويفسده بالشر نفسه . وهكذا يثأر لعجزه عن فعل الخير بأن يجعل ذلك الإنسان الصالح مساوياً له فى الشر ، تماماً كما تسلك المرأة الساقطة التى لا يقر لها قرار حتى تفسد امرأة فاضلة وتجعلها تسقط مثلها .

شرك اليأس

كل من تجذبه رذيلة من الرذائل ، يخالسها أول الأمر في فضول ، ثم يزاولها وقتاً بعد آخر في حذر ، ثم تأخذه عزة كبريائه فيستهزئ بالتردد والحذر ، ويستسلم للرذيلة يائساً وينحط . وعندئذ يتخبط في شرك اليأس ويصرخ : « أين المفر » . فلا يستطيع أن يجد تعزية لنفسه إلا بأن يجهز على نفسه بالتمادى في الرذيلة نفسها .

عندما يكون اليأس نعمة

قد تستبد بك غاية أثيمة تعتقد أن فيها سعادتك ، فتزين لك لهفة الأمل فى بلوغها أن تسعى وراءها ما استطعت . فإذا ما اعترضتك حيالها العقبات وأيقنت أنك قد يئست من تحقيقها ، انتابك الكمد والحزن ، وأحسست كأن يأسك يشرف بك على الموت. ولكنك لو أنعمت النظر لتبين لك أن اليأس نفسه قد يكون نعمة ، وقد تكون فيه حياة ، وأن يأسك في الواقع كان أرفق بك من الأمل ، وأنه هو الذى فى وسعه أن ينقذك ، ويحفظ عليك حتى النهاية شرفك وطهارتك ، متى عرفت كيف تجعل منه قوة إيجابية تتجه بها نحو غايات أعلى .

منذ اللحظة الأولى . . .

إذا شئت التغلب على رغبة منكرة تراودك فاطردها منذ اللحظة الأولى ، وإلا فهى ستطرق بيتك أول الأمر ذليلة كالمتسول ، ثم تنفذ إليه مبتهجة كالضيف ، ثم تستقر شيئاً فشيئاً وتحتل آخر الأمر البيت كله .

نور البصيرة

تكون خطيئتك منكرة على قدر ما كان فى نفسك من نور عندما

ارتكبتها . وتكون طهارتك رائعة على قدر ما كان فى بصرك من تفتح وأنت منجذب إلى نقيضها :

خطايانا والزمن . . .

نحن ننسى خطايانا . ولكن خطايانا تعمر طويلا . وغالباً ما يعجز الزمن عن قتلها ، فيكفنها فى لفائف الماضى ، كى يبعث فجأة عواقبها المريرة ، تقتحم حياتنا ، وتزعزع صرح أمننا ، وتجعل منا ونحن فى غمرة الدهش والذهول ما يشبه القصبة تطوح بها الريح .

ما وراء الألم

إذا شكوت ألماً فى جسدك ، فاعلم أنك فعلت شيئاً كان يجب ألا تفعله ، أو أنك لم تفعل شيئاً كان يجب عليك أن تفعله .

وإذا شكوت ألماً فى روحك ، فاعلم أنك أحببت شيئاً كان يجب ألا تحبه ، أو أنك لم تحبب شيئاً كان يجب عليك أن تحبه وتخلص له .

بين أجسادنا وضمائرنا

نحن نحرص على سلامة أجسادنا أكثر مما نحرص على سلامة ضمائرنا ألف مرة . فالداء اليسير الذى يصيب منا الجسد ، نخاف أن يستفحل ، فنهرع إلى العقاقير نتقيه بها . أما الذنب الذى تنوء به ضمائرنا ، فيذهل منا النفس ويخدعها . فبدل أن نواجهه فى شجاعة ونعترف به ونحاول التكفير عنه ، ننسبه إلى ظروف أقوى منا ، أو نلقى بتبعته على غيرنا ، أو نستهتر بعواقبه مدفوعين بكبرنا وعنادنا . وهكذا نظل نحاور ونداور ، حتى تتفاقم عواقب الذنب فجأة ، فيجرفنا تيارها ويوردنا مورد التهلكة .

هدأة التأمل

الأم كثيراً ما تؤرجح طفلها ، لالتخفف عنه وطأة مرض يشكو منه ، بل لتخفف من وطأة صراخه الذى يصم أذنيها . كذلك نحن فى أغلب الأحيان نؤرجح عقلنا بالحجج والأعذار والتماس الظروف المخففة كى نفر من مواجهة رذائلنا ، ولا نسمع فى هدأة التأمل صوت ضميرنا .

بين تيارين

نحن فى الحياة نتأرجح بين تيارين : مشاعرنا السطحية ومشاعرنا العميقة . فمشاعرنا السطحية هى التى تسيطر علينا فى غمرة العمل وطلب المصلحة وزحمة الناس . ومشاعرنا العميقة هى التى تستفيق فينا متى تخففنا من عبء العمل وخلونا إلى أنفسنا وابتعدنا عن الناس.

ففى الوحدة إذن نواجه ذاتنا ونواجه ضمائرنا ، ونلمس ما ارتكبنا من شر وما نكون قد فعلنا من خير . فالذى يكره الوحدة فى هدأة التأمل ويقظة الضمير ، يفقد روحه ولا يعود يفرق بين خير وشر وطيب وخبيث .

سلطان الضمير

النفوس الكبيرة لا ترهقها أثقل تضحية ، قدر ما يرهقها أيسر تبكيت من الضمير .

أمام نفسك

إذا كانت لك بقية من عاطفة وضمير ، فأنت لابد أن تتألم لو تهورت وأسأت عامداً إلى إنسان . ذلك لأن الإساءة لا بد أن تكشف لك عن جوانب نابية فى شخصيتك كنت تود إخفاءها أو التغلب عليها ، فتفتضح أمام نفسك ، وتحس أنك قد جعلت ممن أسأت إليه إنساناً أفضل منك .

خداع النفس

لايشعر الفرد العادى بخطورة نقائصه ولا يقدر فى الغالب عواقبها . أما الفرد الممتاز فيعلم تماماً أن نقائصه أظهر وأخطر من نقائص سواه . وهذا اليقين هو الذى يجعل منه رجلا صارماً وفى الوقت نفسه متواضعاً ، يعرف كيف يحاسب ضميره ، ويعرف عند الاقتضاء قيمة التسامح لأنه لايستطيع أن يخدع نفسه بمظاهر الكمال .

فضائل الممتازين

الرجال الممتازون لهم فضائل صارمة . وكثيراً ما تحرجنا فضائلهم فنسارع نحن ونسميها رذائل .

الصرامة الواعية

إذا كنت صارماً فى مواقف لا تستوجب الصرامة ، تحيرت فى أمرك وعجزت عن أن تكون صارماً حينما تجب الصرامة .

قيمة الفرد

إن قيمة الفرد لاتقاس بنسبة علمه بل بنسبة مستواه الخلقى والعاطفى . إذ العلم لاشىء بدون تهذيب ، والتهذيب هو الذى يكون الخلق . وإنه لمن الميسور أن نعلم فى بضع سنين رجلا همجياً ، ولكن تهذيب هذا الرجل وتكوين خلقه وذوقه قد يقتضى عدة أجيال . وهذا هو الفارق بين العلم والتمدن .

بين العقل والغريزة

نحن أهل الشرق غرائزنا عنيفة ، وميولنا حارة ، وأبسط رغباتنا

سرعان ما تتحول وتتطور وتنقلب إلى شهوات جامحة . فضبط النسبة بين العقل والغريزة ، بين الفكر والهوى ، بين الإرادة والرغبة ، هو الذى ينقصنا ، وعجزنا عنه هو الذى ينفرنا من التوسط والاعتدال ويدفعنا إلى الإسراف والتطرف . وليس من شك فى أن التمتع بلذة الإسراف فى العواطف ، والإسراف فى الأهواء والشهوات ، أسهل ألف مرة من التمتع بلذة كبح النفس ، وإقرار التعادل بين الغريزة والعقل . ولكن متى كان التمتع السهل الرخيص غاية خليقة بإنسان ؟ . . .

الواقع أن كل متعة رخيصة تذهب بالكرامة ، وكل لذة ميسورة تعصف بالرجولة ، وكل شهوة لا ضابط لها تؤدى إلى التدهور والانحطاط . فقيمة المتعة كامنة لا فى سهولة الظفر بها ، بل فى شعور الإنسان بأنه يسيطر عليها وهو ينعم بها . وكلما سيطر الإنسان بعقله على شهواته ، استحالت هذه السيطرة نفسها إلى متعة ، نبيلة وخصبة ، فيها من عزة القدرة والاستعلاء ما يفوق شتى اللذائذ الرخيصة مجتمعة .

نحن عشاق الصخب

نحن فى مصر لا نتكلم بل نصيح ، ولا نضحك بل نقهقه ، ولا نبكى بل ننتحب . وحتى الراديو أو التليفزيون نفتحه إلى أقصاه لنشرك فى سماع جلجلته العالم كله !

نحن نحب الضجيج ، ونعشق الصخب ، لأن حياتنا النفسية الباطنية ما تزال خاوية ، لا عواطف فيها ولا أفكار ولا تأملات ولا أخيلة .

فبالضجيج نملأ فراغ حياتنا الباطنية ، وبالصخب نتوهم أننا نعيش وما الحياة فى نظرنا إلا بحر مترامى الأطراف . ولكن مايفتن أبصارنا هو هديره وموجه فقط ، أما أعماقه البعيدة الحافلة بالكنوز فقل أن نحفل بها أو نفكر فيها أو نكلف أنفسنا عناء الغوص عليها .

ما يجمع وما يفرق

الولع بالنكتة الطريفة يقرب الناس عندنا بعضهم إلى بعض ، والولع بالوجاهة والمكانة الاجتماعية يفصل بينهم .

فالذى أحرز قدراً من المكانة والمال وأولع بالوجاهة وحب الظهور ، تراه فى معظم الأحيان يعجب بابن الشعب الذكى البارع فى النكتة ، ويقربه إليه ، وقد لايستطيع الاستغناء عنه فيتخذ منه صاحباً ونديماً . ولكنه مع ذلك يحتقر ابن الشعب هذا لفقره ، ولا يفكر لحظة فى حياته ، وفى مدى بؤسه واحتياجاته ، وفى السعى لرفع مستواه . بل يكتفى بإبراء ذمته نحوه جزاء ما أدخل على قلبه من سرور ، بأن يلقى إليه ببضعة قروش وقتاً بعد آخر ، أو يتفضل عليه بسترة قديمة ، أو قيمص بال ، أو طلب فى مقهى ، أو وجبة غداء أو عشاء .

فالنكته عندنا تجمع ، والوجاهة والأنانية العابثة القاسية البخيلة تفصل وتفرق .

ونحن إن لم نرتفع بقلوبنا وعقولنا فوق المظاهر ، بحيث نقهر سلطان الوجاهة الشرقى الذى يخنق إنسانيتنا وينزع بنا لا إلى استغلال الشعب مادة فقط ، بل إلى استغلاله مادة وروحاً ، واتخاذه أداة مرح وتفريج وتهريج ، فلن نقترب من الشعب ، ولن نحبه ونخدمه فى نزاهة ، ولن نشعر بآلامه وبؤسه أبداً .

سحر الملق

الملق يسحر الإنسان ، لأنه يلهب فيه حبه لذاته ، ويؤكد له القيمة الرفيعة التى يخلعها بالكبر والغرور على نفسه .

شبيهنا . .

نحن فى الغالب لانحب إلا من نعتقد أنه يشبهنا فى ميولنا وأهوائنا . فإذا عرف إنسان كيف يتملق فينا تلك الميول والأهواء ، أخذتنا العزة بأنفسنا ، فأحببناه ، واعتقدنا أنه فى جوهر طباعه وأخلاقه شبيه بنا .

المتملقون والغربان

كل من يتملق إنساناً يخونه بل قد يجهز عليه . والمتملقون أشد فتكاً من الغربان، إذ الغربان تأكل الأموات ، أما المتملقون فيأكلون بصيرة الأحياء وشرفهم .

مجانين حب الذات

من الناس مَن إذا أطراهم المتملق ابتسموا ، ثم أعرضوا عنه وامتعضوا ، يقيناً منهم أنه فى إطرائه كان متزناً ومقتصداً ، وأنهم كانوا يستحقون منه ولا ريب المزيد من الاطراء .

خطر المجاملات

إنك من فرط ما تلقى من الناس عندنا من تحيات وملاطفات ومجاملات ، لا يمكنك أن تتبين تماماً أهم صادقون أم كاذبون ، مخلصون أم مغرضون ومراءون .

وهذه الحيرة تحز فى النفس وتجعل الإنسان دائماً على حذر ، يرتاح ولا شك فترة إلى تلك الملاطفات والمجاملات . ولكن فيضها الغامر الذى لا مبرر له ، ينتزع من نفسه كل ثقة ، فيزداد توجساً وحذراً ، ولا يستطيع أن يأمن لا لصديق ولا لقريب .

حماقة وغرور

تكون عاقلا وسعيداً لو اعتقدت أنك نافع فى عملك ، وتكون أحمق ومستهدفاً للشقاء لو اعتقدت أنك ممتاز فى عملك إلى حد لا يمكن معه الاستغناء عنك .

بين الاحتقار والتعظيم

لا تبالغ فى احتقار إنسان أو تعظيم آخر لأنك إن بالغت فى احتقار شخص فلا بد أن تعجز عن فهمه وتقدير كل ممكنات الخير الكامنة فيه . وإن بالغت فى تعظيم آخر ، فلا بد أن تطلب منه أكثر مما يستطيع أن يعطى ، وعندئذ يخيب أملك فيه .

المصلحة والواجب

إذا أنت أخذت بمبدأ المصلحة فقط ، فالمصلحة فى نظرك لا بد أن تتسع وتتجدد بتجدد مشتهياتك ومطامعك ، فتظل تبحث عنها وتنشدها بدون أن تتأكد من أنك قد استطعت آخر الأمر أن تظفر بها كاملة . أما إذا أنت أخذت بمبدأ الواجب ، فستشعر أنك قد أدركت ما تريد . ذلك لأن الواجب يؤتى ثمرته فى ساعته ، وتفيض منه الراحة والطمأنينة عند تأديته . أما المصلحة فوحش أبدى الجوع ، كلما زدته فرائس ازداد وحشية وجوعاً ونهماً .

خبث المغرضين

من الناس من يتظاهر بتأدية الواجب وهو لا ينشد غير المصلحة . فلكى يستر هذا الإنسان نفاقه ، يتصيد كل إهمال يصدر عن غيره ، ولا يجد لذة أبلغ وأمتع من أن يتشدد فى مطالبة الآخرين بتأدية الواجب كاملا .

ممثلون . . . .

المنافقون يولعون بالتمثيل ، وهم كثيراً ما يمثلون شخصية نبيلة لاتخدم إلا مصالحهم ، ثم يستهويهم التمثيل فيمعنون فى تقمص دورهم . ولكن المضحك فى هذا بل المبكى أنهم وهم يتقمصون دورهم النبيل، يعرفون تماماً أن هذا التقمص لم يبدل من طبيعتهم . ومع ذلك يحاولون إقناع أنفسهم بأنهم قد تبدلوا فعلا ، وأصبحوا لايمثلون دوراً ، بل يؤمنون بما يقولون ويفعلون إيمان النبلاء الصادقين المخلصين .

خوف العواقب

من الناس من يتعلقون بالفضيلة لاحبًّا فيها ، بل خوفاً من عواقب الرذيلة التى هم فى أعماق نفوسهم منجذبون إليها .

فى كل وقت ...

لا تستطيع أن تكون بطلا أكثر من مرة أو مرتين فى حياتك ، ولكنك تستطيع ألا تكون نذلا فى كل وقت .

إنسان أعلى

كل إنسان يشعر بما هو كائن . ولكنك إذا شعرت شعوراً عميقاً بما يجب أن يكون ، فقد أصبحت إنساناً أعلى .

ثورة على الجسد

الرجل المتفوق فى خلقه ، هو الرجل الذى يفرض على نفسه عزة النفس ، وطهارة اليد ، ونزاهة القصد ، واستقامة الفكر ، والتأهب للبذل فى سبيل الغير عند الاقتضاء .

وهذا التفوق هو فى الواقع ثورة على رغبات الجسد ، إذ غاية الجسد هى الحرص على وجوده ، وهى التمتع فى ظل الراحة تمتعاً فردياً أنانياً بملذات هذا الوجود .

وإذن فثورة الرجل المتفوق فى خلقه هى ثورة روحه على ما يمكن أن ينحط به من ملذات جسده ، ثورة يغلب بها فى عواطفه ووجدانه غيرية الروح على أنانية الجسد ، ثورة تلهب فى نفسه كرامته البشرية فيعز عليه أن يرى نقص هذه الكرامة عند الآخرين. فيقبل عليهم ، ويبذل فى سبيلهم ، ولا يحس أنه مثلج الصدر مرتاح الضمير إلا وهو يحاول أن يرتفع بهم ، مهما قوبل منهم بالهزؤ والسخرية ، أو بالصد والجحود .

فوق الغضب

إذا رضت نفسك على الشرف والإباء ثم حدث أن خانك إنسان أو غرر بك آخر أو قابل ثالث إحسانك بإساءة ، فثق عندئذ أن فرط إبائك وشرفك لن يولد فيك أكثر من شعور بالازدراء . وهذا الازدراء سيجعلك فوق الغضب ، وفوق الحزن ، وفوق الهم ، لأنه يستحيل فى نفسك إلى فلسفة تسلم بأن الخسة شائعة وعرفان الجميل نادر ، وأن الإنسان هو الإنسان .

جحود الناس

إذا شئت ألا يؤلمك جحود بعض الناس ، فاسلك مسلك الجاحدين أنفسهم ، وانس أنت كل جميل طوقت به أعناقهم .

الصفح والنسيان

لا قيمة للصفح إلا بالنسيان . وكل من يصفح عن إساءة دون أن ينساها ، يظل يحملها فى أطواء نفسه مشبعة بعوامل الكمد والحقد

التى قد تنفجر فى صدره متى سنحت الفرص وتدفعه وهو مكره وذاهل إلى البطش والانتقام .

* الوفاء بالوعد

إن من يتباطأ فى الوعد هو الذى يسرع فى الوفاء .

لا تسرف فى شىء

ليست أهواؤنا بطبيعتها رذائل أو فضائل . إنها تصبح رذائل أو فضائل بحسب إسرافنا فيها أو اعتدالنا . إذ الإسراف ينبع من العاطفة ويؤدى إلى التشوش والفوضى ، أما الاعتدال فينبع من العقل ويدفع إلى الضبط والقياس والنظام .

ولقد نقش الإغريق على معبد « أبو لون » فى مدينة « دلف » هذه العبارة : « لا تسرف فى شىء » .

* أول المتشككين

إن من يسرف فى إقناعك بفكرته ، هو أول من يشك فى صوابها .

ألوان من الناس

من الناس من يحب أن يزين عقله وقلبه ، ومنهم من يحب أن يزين جسده وبيته ، ومنهم من لا يحفل بأن يزين فى حياته أى شىء .

مع البسطاء

إذا كنت مضطرب النفس ، معقد العواطف ، قلقاً ومهموماً ، فعش مع البسطاء . فهم لن يعكسوا أمامك صورة نفسك ، ولن يخاطبوك بالعقل المتعمل بل بالفطرة البريئة الحرة . ثم اعلم أن النفس القلقة

سرعان ما تطرب النفس البسيطة ، كما يطرب الإنسان فى يوم من أيام الشتاء حيال سماء صفت بغتة وانقشعت غيومها .

حياة المدن

اخرج إلى الطبيعة ما استطعت . واعلم أن من يعشق الحياة فى المدن ويأبى أن يفارقها ، قد يفقد روح البساطة وحاسة النظر إلى الطبيعة فى فسحاتها الكبرى . فيفقد انعكاس جمالها على وجدانه . فتجف مشاعره وتصبح عقلية مادية كالمشاعر التى يحس بها حيال كل ماهو فى المدن صناعى ومادى .

أحداث الغد

كثيراً ما نستشعر فى قوة ووضوح كل ما سيحدث فى الغد لنا . ولكننا نأبى إلا أن نكذب استشعارنا ، ونخنقه فى نفوسنا ، ونرفض أن نبدل فى ضوئه أسلوب تفكيرنا واتجاه حياتنا . فإذا حدث بالفعل ما كنا قد توقعناه باستشعارنا ، أخذنا نعض أصابعنا ونصرخ : لماذا ، لم نستمع إلى صوت إلهامنا ؟ ! . . .

سرعة الحساسية

كل من هو سريع الحساسية يعتقد أنه أعمق إحساساً من سواه .

العصبى والدموى

. . . ومع ذلك فالعصبى الحساس كثيراً ما يكون ذكيًّا . ولكنه فى الغالب ينكمش ويخفى عواطفه أما الدموى المرح المبتهج فقل أن يخفى من مشاعره شيئاً . لذلك نحن نستريح إلى الدموى ولو كان أحمق مأفوناً . أما العصبى الحساس فبدل أن نحاول التعمق فى فهم عواطفه ، نوجس

من انكماشه وغموضه ، ونتهمه إما بالترفع والكبر ، وإما بالمكر والخبث ، وإما بالبلادة والغباء .

سلطان الخيال

الخيال أشد تسلطاً علينا من الواقع . ونحن لو تعلقنا بخيال ثم فقدناه ، تعذبنا ألف مرة أكثر من فقد واقع كنا نحرص عليه .

لا تطلب الكثير

لا تسرف فى الخيال ولا تطلب الكثير من الناس ، وإلا اضطررت أن تعطى الكثير أيضاً ، على حين لا تملك أنت من الفضائل والقوى إلا ما يزيد قليلا على ما يملكه سواد الناس .

أسرار الغير

إذا ائتمنك إنسان على سر يتعلق بسمعته وشرفه، فافهم أن العبرة ليست فى أن تكتم السر فقط ، بل العبرة كل العبرة فى ألا يستخفك الكبر والزهو ، فتظهر بمظهر العارف ببواطن الأمور ، الذى فى وسعه أن يبوح بالسر ولكنه لا يريد أن يتكلم . إن مثل هذا الموقف هو شر من الإفشاء ، إذ هو يجسم السر ، ويضاعف من رهبته ، ويلقى فى روع الناس أن من ائتمنك عليه لا بد أن يكون قد ارتكب عملا فظيعاً يفوق حد التصور .

العدو والصديق

إن عدوك لا يعرف فى الغالب حقيقة نفسك، وهو يكرهك لما يتوهمه شرًّا فيك، ولذلك تسهل عليه العودة إلى مصالحتك متى سنحت الفرصة . أما صديقك ، فمتى انقلب إلى عدو لك ، فمن الصعب أن يغفر لك إساءتك ويعود إلى مصالحتك . ذلك لأنه يعرف نفسك حق المعرفة ،

ويحاسبك على شر حقيقي كامن فيك ، لا عن شر خيالى تصوره عنك . فاحذر صديقك أكثر مما تحذر عدوك ، واحتفظ به ما استطعت . إذ لو انقلب يوماً عليك ، ففي وسعه هو وحده أن يكشف النقاب للناس عن جوهر شخصيتك .

أنت وعدوك

إن عدوك قد يخدمك . فقدر فى عدوك حنكته وذكاءه ، وتعلم الفطنة منه إذا رأيته يعرف كيف يستخدم ضدك السلاح الذى سلمته أنت إياه بتهورك .

أصحاب صاحبك . .

أصحاب صاحبك هم المرآة التى تبصر فيها كيف ينظر صاحبك إليك . . .

لا تنعم النظر . . .

عليك أن تدرس جيداً أخلاق من يجب أن تصادقهم أو تعاملهم ، ولكن إياك أن تنعم النظر طويلا فى أخلاق من يجب عليك أن تحبهم .

محرومون وأنذال

من الرجال مَنْ يعيش معذباً فى روحه ومحروماً من العواطف . فيصبو قلبه إلى شىء من العطف والحنان تجود به عليه امرأة أو يهبه إياه صديق . فإذا ما صادف تلك المرأة أو ذلك الصديق، ابتهج فى البدء وتواضع ، ثم أخذته نشوة انتصار متكبر خسيس . فانقلب فجأة إلى طاغية ، وراح يستبد بالمرأة التى حنت عليه أو بالصديق الذى حباه بالود والعطف ، كأنما هو لم ينشد الحنان والعطف إلا ليثأر فى نذالة لحرمانه

الطويل منهما . وهكذا يفقد المرأة أو الصديق ، ويرتد إلى صحراء حرمانه حيث لا يجد قوتاً غير الكمد والحقد :

الطبائع الجافة

احذر غلظة القلب وجفاف الطبع . فالطبائع الجافة لا تستجيب فى الغالب إلى العواطف الطيبة . إذ على قدر شعورها بجفافها يتولد فيها ظمأ عميق إلى العواطف الشريرة لا يرتوى إلا بإحداث الألم للآخرين . فهى لا تحس أنها قوية وأنها تعيش إلا إذا عذبت الغير . وهى لا تعذب الغير بالتنكيل الصريح بل بالدهاء الخفى الذى يصدر عن جفافها نفسه ، وعما تشعر به من عجز عن الإحساس بأية عاطفة سمحة أو انفعال كريم .

من هو الميت الحى ؟

هو الإنسان الذى لا حب فى قلبه ، ولا فكر فى عقله ، ولا أمل فى خياله ، ولا غاية يبرر بها وجوده .

هو الذى يبعثر ذهب أيامه فى شهوة البطن ، وغلمة الجنس ، وصرعة الخمر .

هو الذى تتساقط لحظات حياته مدوية فى جوف الزمن دون أن يسمع صوتها .

هو الذى يكره القلق ، ويكره الألم ، ويخشى على عينيه من ملح الدموع .

هو الذى يعيش من نفسه ولنفسه ، أبعد ما يكون عن الشعور بأنه يخرج من صحراء إلى صحراء .

هو الذى يسمن ويترهل مستعذباً تهيئة بدنه للديدان .

هو الذى يصرخ فى ساعته الأخيرة : « إنى أموت » . . . فيركل السامعون باشمئزازهم جثته ، ويرددون : أكانت لهذا الرجل روح ؟ !

أمام الربح والخسارة

إذا خسرت شيئاً عظيماً فيجب أن تعرف كيف تتقبل الخسارة وأنت تبتسم. وإذا ربحت شيئاً عظيماً فيجب أن تقابل ربحك بسكون، كأن هذه هى دائماً عادتك .

أعرف كيف تصمت

يجب أن تعرف كيف تصمت أو تقول عند الاقتضاء أشياء أثمن من الصمت :

متى يجب الكلام

تكلم عندما يجب الكلام ، ولا تستر أبداً فكرة صالحة . واعلم أن من يألف ستر فكرة صالحة ، قد ينتهى به الأمر إلى التستر على عمل فاضح .

☆ على حساب الحقيقة

إذا اتفق وكنت تناقش إنساناً فى موضوع ما ، ثم انفعلت وتركت الغضب يتسرب إلى نفسك ، فخصمك سينفعل أيضاً ، وقد يجرحك . وعندئذ ينقلب نقاشك من رغبة فى البحث عن حقيقة إلى رغبة خبيثة فى الدفاع عن كرامتك ضد خصمك على حساب الحقيقة .

★ الاعتراف بالخطأ

إذا ارتكبت خطأ ولم تشأ الاعتراف به ، ارتكبت خطأ ثانياً . أما إذا اعترفت مختاراً بخطئك ، فقد وضعت الخطأ فى الماضى ، ووضعت العقل فى الحاضر والحكمة فى المستقبل :

حقد العاجزين

الحسود غيور . والحسود الغيور إنسان فقد الثقة فى نفسه وفى قدرته على تحقيق غاياته ومطامعه . فهو بدل أن يمضى فى الكفاح ليصل ، يظل متطلعاً إلى الذين وصلوا ، معتبراً نجاحهم نجاحاً مسلوباً منه ، منفقاً صفوة عمره وعصارة فكره فى الانتقاص من قدرهم ، ومحاولة إظهارهم لدى الناس بمظهر المشعوذين الدجالين .

والحسود وثيق الصلة بالكسول . ولكن الكسول يقنع بلذة سلبية . أما الحسود فلا تطيب له الحياة إلا إذا شابها اللؤم ، وتخللها الدهاء ، وتمشت فى تضاعيفها لذة إيجابية خبيثة هى لذة الوشاية والوقيعة والدس . فهو يمكر ليصل ، ويغتاب ليصل ، ويتزلف ليصل ، ولا يفتأ يدس للرجل الناجح بغية أن يحل محله أو يجعل منه إنساناً مخفقاً مثله . فإذا تنكر الحظ للناجح فجأة وأصابه الإخفاق فعلا ، فعندئذ يشعر الحسود بالسعادة الكاملة لأن المساواة فى الإخفاق قد تحققت فى النهاية بينه وبين ذلك الرجل الذى كان بالأمس فذًّا ومرموقاً .

هذا هو حقد العاجزين ، يمتلئ به صدر الحسود فيمج لسانه السم كالأفعى .

كيف يفهمون المساواة . . .

يتشدق بعض الناس بضرورة تطبيق مبدأ المساواة . ولكن المساواة فى عرفهم هى أن يتساووا بمن هم أذكى منهم عقلا ، وأعلى كفاية ، وأرفع منزلة ، وأوفر على الخصوص مالا . .

وهذا هو حقد الخاملين المخفقين الذين يعترضون بالحسد العاجز قانون الحياة ، وينسون أن لا مساواة إلا فى المقابر .

الابتسام والضحك

ابتسم كثيراً واضحك قليلا . و إذا قالوا لك إن الضحك هو الذى يميز الإنسان عن الحيوان . فاعلم أن لا شيء أقوى من الضحك يمكن أن يرد الإنسان إلى درك الحيوان .

الفرح والسعادة

ليس الفرح هو السعادة . ونحن قد نفرح للشر بل إن معظم أفراحنا تصدر عن الشيء الذى يرضي أنانيتنا . وإذن فالفرح لاضمير له . إنه لايشعر إلا بنفسه . إنه كمعشوق ينتشي بملذاته . إن فيه الكثير من غريزة الحيوان . أما السعادة فإلهية : لأنها تصدر عن راحة القلب ، ونقاء النفس ، وطمأنينة الضمير .

★ سعادة وشقاء

كل منا يمر بأوقات سعادة وشقاء . ولكن أوقات الشقاء هى التى تبقى غالباً فى الذاكرة . أما أوقات السعادة فهى التى تضمحل وتتلاشى .

وهذا فى الواقع أصلح لأن تفكيرنا فى أوقات شقائنا يمكننا من تقدير قيمة أية سعادة جديدة يجود بها القدر علينا .

★ تبادل واكتفاء

من الناس من يحبسون عواطفهم عن الغير ، خشية أن يقبل الغير عليهم بعواطفه . وهؤلاء الناس لايمكن أن يعرفوا السعادة ، إذ السعادة فى خصوبة التبادل لا فى عقم الاكتفاء .

ضوء واحد

إذا أحببت الناس بعواطفك فقط فلا بد أن تؤثر شخصاً على آخر، وترفع من قدر شخص على حساب آخر. أما إذا أحببتهم بعواطفك وعقلك، فلا بد تشعر أن الناس جميعاً من التعاسة بحيث يجب على السليم منهم أن يذهب فى الطيبة إلى حد العبقرية كى يحس بآلام المريض، وأن المريض منهم يجب أن يذهب فى الصبر ودماثة الخلق إلى حد القداسة كى يحسن تقدير موقف السليم ولا يحسده عليه. وعندئذ تفهم تماماً أن الناس متساوون فى استحقاق الحب لأن فيهم جميعاً ضوءاً مشتركاً واحداً، سواء أصدر هذا الضوء عن ثريا ساطعة أم عن شمعة خافتة أم عن حريق فظيع.

المسكين لا يصدق . .

كل من يحرمه القدر من السعادة طويلا ييأس منها، فإذا اتفق وطرقت بابه فجأة، فتح الباب وهو يرتجف، خشية أن تبدو له السعادة متنكرة فى ثوب الشقاء . . .

طريقان

لا يعرف الإنسان السعادة إلا من طريقين : الأمل والذكرى . .

حجاب السعادة

قد يكون من اليسير علينا أن نعرف السر فى شقاء إنسان. ولكن من العسير علينا فى معظم الأحيان أن نعرف السر فى سعادته.

إنه يخاف عليها منا، من فضولنا، من تهافتنا، من حسدنا وغيرتنا فلا نبصر نحن فيه غير الجمال الذى تخلعه عليه السعادة. هذا الجمال

الذى يظل فى روعته أبكم ساخراً لاينطق بالكلمة التى تكشف عن سره الحجاب .

الرذائل المقنعة

كثيراً ما يحدث أن الرجل الشجاع لا يبدو لنا شجاعاً إلا لأنه سريع الغضب والثوران ، والوديع لا يبدو لنا وديعاً إلا لأنه ضعيف أوخجول ، والكريم لايبدو لنا كريماً إلا لأنه مزهو ومحب للظهور ، والمتسامح لايبدو لنا متسامحاً إلا لأنه متردد أوجبان . فانظر إلى الناس بعين ثاقبة ، إذ فضائل بعضهم قد تكون رذائل مقنعة .

أعمالنا الصغيرة

لكى تفهم إنساناً ، عليك أن تنعم النظر فى الأعمال الصغيرة التى تصدر عنه . إذ هو فى الأعمال الكبيرة يلاحظ نفسه . أما فى الصغيرة فينطلق على سجيته .

نفوسنا كوجوهنا . .

نفوسنا كوجوهنا عليها أبداً أقنعة . فإذا شئت النفاذ إلى النفس البشرية ، فاعطف عليها ، بل احتضنها فى الألم والفرح ، فى الضلال والهدى ، فى الشر والخير . وهكذا تنكشف أمامك فجأة ويسقط عن وجهها الزائف القناع .

قناع السخط

إن سخط بعض الناس على الحياة قد يكون قناعاً يخفون تحته سخطهم على أنفسهم . فهم ، وقد بددوا حياتهم بأيديهم ، يعز عليهم الاعتراف بأخطائهم . فتنفجر مرارتهم ، وينصب غضبها على الحظ الذى لايستطيع بالطبع أن يتكلم ويواجههم بمسئولياتهم .

الأناقة والتبرج

الأناقة الحقيقية تنبع من بساطة النفس و اتزان العقل وسلامة الذوق . إنها لا تلفت إليها نظر رجل الشارع ولكنها تسترعى انتباه الشخص الممتاز . أما التبرج فهو الصورة « الكاريكاتورية » للأناقة . الصورة التى تشوه وتمسخ الإنسان ، فتجعل من الرجل المحترم خنثى ومن السيدة الفاضلة غانية .

أطوار غريبة

إنه لأيسر على بعض الناس أن يكونوا طيبين مع الجميع ، من أن يكونوا طيبين مع شخص واحد .

عزلة مروعة

أفجع ضروب العزلة ما نشعر به ونحن بين أهلنا .

الصدأ والنار

الزمن يشبه الصدأ كما يشبه النار. فهو كالصدأ يهرأ الباطل ، وهو كالنار يصهر الحق .

ظلم وظلم

إذا كانت الطبيعة الظالمة قد جعلتنا غير متساوين فى القوة البدنية والذكاء ، فالمجتمع يجب أن يجعلنا متساوين فى الحقوق ، وإلا استبد الأقوياء منا بالضعفاء ، وأضافوا إلى ظلم الطبيعة ظلم الإنسان . فلا تكن أنت والطبيعة حرباً على الضعيف . أنصفه ما استطعت ، وذد عن حقوقه ، وارتفع به جاهداً ، ترتفع بنفسك ، وتشعر أن الطبيعة الظالمة القاسية أصبحت شفقة و رحمة على يدك .

روح الاستبداد

أعرف أناساً لا يتألمون كثيراً إذا لحقتهم إهانة من شخص يعتبرونه أعلى منزلة منهم ، ولكنهم يثورون ثورة عارمة إذا لحقتهم هذه الإهانة من شخص يعتقدون أنه أدنى منزلة منهم .

وهؤلاء الناس يثأرون لكرامتهم من الصغير لفرط إحساسهم بضآلة أقدارهم أمام الكبير .

وهذا هو روح الاستبداد الرخيص المنحدر من تأصل الشعور بالعبودية .

الخسة البشرية

من الناس من لا يثور للظلم الواقع على ضعيف ، بل يحتقر الضعيف ، ويجد لذة خبيثة فى الإعجاب بالقوى الذى ظلمه ، ويذهب فى الإعجاب بالقوى إلى حد تشجيعه على ظلمه ، بل يتمنى لو استطاع أن يشاركه فى سحق الضعيف المظلوم .

وهذه هى الخسة البشرية فى أدنى مراتبها .

توازن القوى

نشوة القوة تجعل من القوى وحشاً لا قلب له ، ولذة الضعف تجعل من الضعيف جباناً لا عصب له . وكلما استمرأ الضعيف لذة جبنه أغرى القوى بأن يأكله .

فالقوى يجب أن يحذر نشوة القوة ويأخذ بالعدل كى يطمئن إليه الضعيف ، والضعيف يجب أن يحذر لذة الضعف ويظل متنبهاً وشجاعاً كى يقدره القوى .

هذا هو التوازن الإنسانى بين القوة والضعف ، وبدونه يستحيل المجتمع إلى غابة .

الحرية والنظام

تنتهى حريتك حيث تبدأ حرية غيرك . فالحرية هى أن تحترم حق الغير ، كما أن النظام هو أن تحمى الدولة حق الجميع .

نوعان من العبيد

الاستبداد يخلق نوعين من العبيد : العبد الذى يرتضى القيد ، العبد الذى يمالئ المستبد ويحمل القيد يطوق به رقاب الأحرار .

لذة الاستسلام

كل من هو غير جدير بالحرية يجد لذة عميقة فى الاستسلام ، ولذة أعمق فى أن يجذب الآخرين إلى ضعفه ويزين لهم متعة الأسر والهوان .

عندما ينحط شعب

فى نفس كل شعب منحط خلق أنثى لا يحترم إلا متى خاف .

فوق المحاباة والزلفى

أنت رجل مسئول عن عملك وعمن يعملون تحت إشرافك . فاذكر إذن أن فى وسعك أن تقلم الأشجار أو تشذب الأحجار بالعقل المجرد أى بدون حب ، ولكن ليس فى وسعك أن تعامل مرءوسيك وتروضهم وتسوسهم بدون حب .

ومظهر الحب الذى ينشده منك مرءوسوك ليس هو الكلمات المعسولة أو العواطف الشائعة ، بل هو العدل . إذ العدل بسموه فوق المحاباة والزلفى ، يثلج صدورهم ، ويضمن لهم تقدير جهودهم ، ويطمئنهم على

مصائرهم . ويشعرهم بنشوة العزة فى ظل الكرامة . ومتى اطمأنوا إلى عدلك النابع من نزاهتك . أيقنوا أنك حقاً تحبهم، لأنك تحب العدل الذى يعلو عليهم ويساوى فى الوقت نفسه بينهم ، فبادلوك من تلقاء أنفسهم ثقة بثقة وحباً بحب .

خطر العنف

قد تستطيع أن تجبر الناس بالعنف على سلوك مسلك تعتقد أن فيه صلاحهم . ولكنك لا بد أن تثير عليك كراهيتهم وحقدهم . ذلك لأنك بالعنف تسلبهم حريتهم ، وتجردهم من كرامتهم ، وتفرض عليهم إلغاء عقولهم ، وتنحدر بهم إلى مستوى القطيع الذى يخضع وينتظم ، ولكن تحت تأثير العصا . فاذكر دائماً أنك بالعنف لا تصلح بل تفسد ، ولا تخمد بل توقظ ، وأن الإصلاح إقناع والعنف ظلم ، وأنك كلما عجزت عن الإقناع وظلمت بالعنف ، كنت أنت الذى تضرم فى صدور الناس نار العصيان والتمرد .

مكارم الأخلاق

القيمة المتحكمة فى نظر الشرقى هى مكارم الأخلاق ، أما القيمة المتحكمة فى نظر الغربى فهى العمل والإنتاج .

وقد يغفر الغربى للفرد سوء الأخلاق والسيرة لقاء الإخلاص فى العمل . أما الشرقى فيقدم مكارم الأخلاق على العمل ، بل قد يذهب فى إيثارها إلى حد الاستغناء بها عن العمل . فإذا شاء الشرقى أن يمتاز ، فليقرن مكارم الأخلاق بحب العمل .

قانون الحياة

بقدر ما تجذبنا الصحة والقوة والجمال ، نشعر حيال نقيضها بنفور

يقترن غالباً بالقسوة والشر . فالشاب قد ينظر إلى أبيه المسن فيتصور نفسه فى المستقبل شيخاً مهدماً مثله ومهيأ للموت ، فينفر من أبيه وقد يقسو عليه بالرغم منه . كذلك الزوج الذى يفرح برؤية امرأته صبية وجميلة ، كثيراً ما ينفر من أمها العجوز ويكرهها . فينفر من امرأته ويرى فيها صورة الدمامة والشيخوخة والتهدم الماثلة فى أمها .

فالإنسان ولا سيما الشاب إن لم يحكم عقله ويسلم بأن القوة فى الحياة لابد أن يجاورها الضعف ، والصحة لا بد أن يجاورها المرض ، والشباب لا بد أن تجاوره الشيخوخة . والجمال لا بد أن يجاوره القبح ، استحال عليه أن يرى الحياة على حقيقتها . وعندئذ يفسد طبعه ، ويغلظ قلبه ، ويقسو على كل مسن أو عليل أو دميم . فينغص حياته وحياة من حوله ، ولا يستطيع أن ينعم حتى بقسط الصحة والقوة والجمال الذى حباه به القدر والذى فيه الآن سعادته .

الشر الواعي

هناك إنسان شرير بطبعه ، وآخر يرتكب الشر متأثراً بغيره ، أو بحادث طارئ يزعزع أعصابه ويفقده وعيه . ولكن شر الجميع هو ذلك المتعلم المثقف الذى يفكر بعقله ، ويبتدع لنفسه فلسفة يبرر بها انسياقه وراء غرائزه ، ويستخدمها لإشباع تلك الغرائز ، وهو يلحق بالغير أبلغ الأذى فى طمأنينة وسخرية وعدم اكتراث .

إن الاندفاع إلى الشر يصدر فى الغالب عن عنف العاطفة التى تحتم على العقل . أما إذا صدر عن عقل مفكر فصاحب هذا العقل يصبح أشد فتكاً من أعرق مجرم . إذ على قدر ذكائه تكون عواقب إجرامه ، فلا تصيب فقط أفراداً معينين ، بل تهلك فئة بأسرها .

الفلسفة والفضيلة

الفلسفة تنبع من العقل وغايتها الاجتماعية أن تعرف الناس .

والفضيلة تنبع من القلب وغايتها الاجتماعية أن تحب الناس .

فلا قيمة للفلسفة إن لم تقترن بالفضيلة ، ولا قيمة لضوء العقل إن لم يقترن بحرارة القلب .

فوق الفلسفة

مهما بهرت الفلسفات عقولنا فهى لا تقع من نفوسنا موقع الجد أبداً . أما ما نعرفه بوجداننا وعواطفنا وروحنا ، فهوالشيء الجدى حقًّا فى حياتنا ، لأنه الشيء الذى عذبنا ، والذى لولا تشبثنا الفطرى بالحياة لكان من المحتمل جدًّا أن يقتلنا.

قيمة الإصغاء

حسن الإصغاء هو طريق المعرفة . والمتواضع هو العالم لأنه يعرف كيف يصغى . أما المتكبر فيظل جاهلا لأنه لا يمكن أن يصغى إلا إلى صوت نفسه .

السنبلة والعجلة

المتكبر يشبه سنبلة القمح الخاوية التى يروق لها أن تشمخ وتزهو وتعلو على سواها ، أو هو يشبه العجلة المتداعية التى هرأها الصدأ والتى يروقها أن تعطل سير المركبة وتظل تصر فى الآذان صريراً مزعجاً .

الكبرياء والطيبة

الكبرياء لا قلب لها . وهى تخنق أروع وأسمى عواطف النفس ،

اى الطيبة . وكما أن الماء لا يثبت على قمة الجبل ، كذلك الطيبة لا يمكن ان تعيش فى قلب المتكبر . لابد للماء أن ينحدر ولا بد للطيبة أن تترقرق ، كلاهما ينشد الأرض المنخفضة ليرويها وينعشها ويبدع منها للناس زهراً ناضراً وثمراً شهياً .

مركب نقص

المتكبر يشعر أن لا شخصية له ، فتثيره الضعة ويأكله الحنق ، فلا يستطيع إلا أن يخلع على ذاته الشخصية الفذة المرموقة التى يتلهف عليها ، فهو عاجز عن التفوق ، ومستعبد لمركب نقص ، وفوق ذلك جبان . وهو من فرط عجزه يستعيض عن القوة بالتسلط ، ومن فرط عبوديته ينزع إلى استعباد الآخرين . ثم هو يقدر الملق أضعاف ما يقدر الكفاية ، لأن مرجع الملق إلى شخصه ، ومرجع الكفاية إلى منفعة الناس . لذلك تراه لا يصغى إلى الشريف الذى يحدثه عن الناس بالخير ، ولكنه يرهف السمع إلى الحقير كلما حدثه الحقير بالخير عن نفسه .

البالون المنتفخ

المتكبر يخشى النقد ، لأنه يشعر فى أعماق نفسه أن حظه من التقدير لا يتوقف على أكثر من شكة دبوس ، فيها الكفاية كل الكفاية لتمزيق أى بالون منتفخ .

الغباوة والكبرياء

قد تعيش الغباوة بلا كبرياء ، ولكن الكبرياء لا بد أن تصحبها الغباوة . ولو أدرك المتكبر ما يربحه منه المتملقون ، لأحس على الفور أنه أغبى مخلوقات الأرض جميعاً .

شر الوقاحات

قد تواجه المتكبر بخطأ صارخ ارتكبه . فينظر إليك متعالياً مستنكراً كأنك أهنته . ثم يكابر ويؤكد أن ذلك الخطأ هو عين الصواب . فى حين يعلم تماماً أنه خطأ . ويعلم تماماً أنك لست غبياً ، وأنك تعرف حق المعرفة كيف تفرق بين الخطأ والصواب . ولكنه يصر على المكابرة معتقداً أن فيها إنقاذاً لكبره وكرامته . فيضيف إلى شناعة الخطأ وقاحة المكابرة ، ويثيرك فوق ذلك لأنه يتغفلك . فتهدر أنت محنقاً ومغيظاً ، ثم تضبط أعصابك جهدك ، خشية أن يجمح بك الغضب فتصفعه.

رذيلة العاطلين

النميمة أحب الرذائل إلى قلوب المتعطلين . وإنه لمن اليسير عليك أن تروق فى عيون المتعطلين إذا شاركتهم فى نهش أعراض الناس . ولكن اعلم أنك لا تكاد تنصرف عنهم حتى ينقلبوا عليك ويبدءوا ينهشون عرضك أنت .

شيطان الضجر

املأ حياتك بأى شيء ، بأية هواية ، بأى عمل أو أى حب . إذ الإنسان قد يظل ملاكاً لولا الضجر . ولكن ضجره من رتابة حياته أو من فراغها هو الذى يدفعه إلى الارتماء فى صخب الرذيلة ، وعندئذ ينقلب من ملاك إلى شيطان .

سلطان الكذب

الكذب هوة لا قرار لها . وأنت لو استمرأت الكذب ترديت فيها ، فالكذبة الواحدة لا بد أن تكلفك مئة كذبة أخرى تنفيها بها لو انكشفت ،

أو تدعمها بها إذا شعرت أنها قد تنكشف ، أو حتى إذا أيقنت أنها لن تنكشف أبداً . وهكذا تلقى بك الكذبة الواحدة فى دوامة من الأكاذيب لا تعرف كيف تفلت منها .

الكذب والشخصية

الكذب يفصم الشخصية ، ويضع حاجزاً بين مظهرنا الخارجى وحقيقتنا الباطنية . وهكذا يحول بيننا وبين الانطلاق الواثق الحر مع الحياة. لأن شرط الانطلاق الواثق الحر مع الحياة هو الصدق ، والصدق هو الدليل البالغ على استقامة النفس ووحدة الشخصية .

الثرثرة والكذب

بين الثرثرة والكذب علاقة وثيقة . والثرثار لا يكذب عن عمد كذباً عقلياً منظماً يرمى إلى غرض معين ، ولكنه يكذب اعتباطاً وفى غير احتفال . يكذب لأنه لا بد أن يتكلم ، ولأن شهوة الكلام والمبالغة أقوى فى نفسه من إرادة الاتزان والتفكير . وهو متى تكلم لا يلاحظ ضبط العلاقة بين حديثه وفكره أو بين أقواله وأعماله أو بين مزاعمه وحقائق الأشياء . وهكذا يشوش بثرثرته الأفكار والوقائع تشويشاً قد تكون عواقبه أخطر من عواقب الكذب المقصود ألف مرة .

احذر لسان المرأة

كل امرأة لا بد أن تثرثر فى الترهات ، ومعظم النساء ، ولا سيما الدميمات ، مصابات بمرض الكلام .

وقد لاحظ العلماء الذين طافوا بمستشفيات المجاذيب أن المرأة المجنونة شديدة الولع بسرد القصص ، وأنها أسرع بكثير من الرجل المجنون فى الإفضاء بمشاعرها وتصوراتها .

فلسان المرأة أخطر على الرجل السليم من حد السيف ، وينبغى أن يتنبه إلى شره ويحذره . إذ المرأة ، ولا سيما إذا كانت مغرضة ، تبذل المستحيل بلسانها ، وتمعن فى الثرثرة وتزويق الكلام كى تدفع الرجل إلى تحقيق الغرض البعيد المنطوية عليه نفسها .

والواقع أن تاريخ الإجرام حافل بالأدوار الخطيرة التى لعبتها المرأة : ونحن إذا ما عدنا إلى شكسبير وراجعنا مسرحية « مكبث » أدركنا كيف أن الغريزة النسوية تسيطر عليها شهوة البطن وشهوة المظهر وشهوة الكلام ، وكيف أن « اللادى مكبث » توسلت إلى أغراضها بالكلام ، وظلت تتكلم وتفتن فى كلامها حتى دفعت بزوجها الحائر القلق المتردد إلى ارتكاب جريمة القتل .

الشجرة والحشائش

إذا شئت أن تكون عظيماً فكن كالشجرة ، ولتكن مشتهياتك الخبيثة حشائش تحيط بالشجرة . الحشائش مهما نمت وتكاثرت وحاولت أن تتسلق الشجرة ، فالشجرة المستقيمة المنيعة لا يمكن أن تنحنى على الحشائش لحظة ، بل ترمقها بنظرة سخرية واحتقار ، وتظل ثابتة شامخة مشرئبة إلى السماء أبداً .

الإنسان والخليقة

الإنسان عوالم مجتمعة فى رأس . وليست الوراثة أو التربية أو البيئة هى التى تكونه فحسب ، بل هى أيضاً شتى الأخيلة والصور والأحلام والآمال والآلام التى كونت الخليقة فى أعمارها الطويلة واستقرت فى عقل الإنسانية الباطن ، أى فى وعيها الخفى الأبدى .

القوى العشر

الأمل ، والحب ، والخيبة ، والعسر ، والمرض ، والشعر ، والموسيقى والصلاة ، والنوم ، والذكرى ، تلك هي القوى العشر التي تمثل الحياة حلوها ومرها . فرض نفسك عليها ما استطعت ، فهي التي تطل منها عقولنا في امتلاء على العالم ، وقلوبنا في شفقة على الناس ، وبصائرنا في دهشة على المجهول ، وأرواحنا في ظمأ على اللانهاية .

طبيعة الإنسان

إن طبيعة الإنسان ذاتية وموضوعية في الوقت نفسه . بمعنى أنه لا يستطيع أن يدرك أو يحس شيئاً خارجاً عن نفسه إلا إذا كان لهذا الشيء الخارجي صدى في أعماق روحه . فهو لا يتأثر بالنغمات الموسيقية مثلا إلا لأن في إحساسه الباطني جوهراً موسيقيًّا يستجيب للنظام الدقيق الماثل في تلك النغمات . وهو لا ينفر من الدمامة إلا لأن في إحساسه الباطني جوهراً من الجمال يستجيب استجابة عكسية لأثر تلك الدمامة . وهو لا يجزع من الشر إلا لأن في إحساسه الباطني جوهراً من الخير يحدث الاستجابة العكسية نفسها تجاه الشر . فمتى أنعمنا النظر في هذه الظاهرة ، ابتسم لنا الأمل ، ولم نعد نيأس من مستقبل الإنسان

بين طفولة الروح وكبرياء العقل

إن معظم ما يطرأ على أخلاقنا من انحرافات إنما يرجع إلى المظاهر الاجتماعية الباطلة والمطامع المادية الزائلة وشتى الزيوف التي نكبل بها أنفسنا ، والتي تباعد بيننا وبين جوهر الحياة السليم الأسمى . وهذا الجوهر الذي لا نفطن إليه بل الذي نترفع عنه ونستهزئ به هو روح الطفولة الكامنة

فيناوالتى فى وسعنا كلما أصبحنا مهددين بالانحدار أن نهرع إليها لنستمد منها نقاء فى النفس وصفاء فى الضمير ينقذنا من انحرافاتنا ويرتفع بشخصيتنا ويملؤنا بذلك الفرح الغامر المطهر الذى نتمثله فى وجوه الأطفال .

والحق أن الطفل هو الحياة لم يمسخها العقل ، ولم تشوه معالمها رذائل المجتمع ، هو العاطفة المطلقة ، والطبيعة الحرة ، والوجه البشرى البرىء . وأنت عندما تقبل على الأطفال لا تبتهج فقط بما يفيضونه عليك من براءة وطهر ، بل تبتهج أيضاً بما يتراءى فيهم من مختلف صور الحياة فى جيشانها الدائم مما يوحى إليك أن الحياة ما تزال أمامك بكراً ناضرة ، وأن عليك أن تتجه نحوها بمثل تلك الفطرة السليمة التى يتمتع بها كيان الأطفال . فانظر إليهم وتأملهم . . .

هذا طفل ممتلئ الخدين ، متألق العينين ، يضحك ، فيخيل إليك أن عناصر الطبيعة الكبرى تمرح فيه ساخرة بالألم ، هازئة بالقدر .

وهذا طفل حالم منكمش ، هادئ الحركة والإشارة ، يبتسم فجأة فيخيل إليك أنه شاعر مستغرق فى حلمه ، استفاق بغتة على صوت إلهامه ، فجعل ينصت لعروس شعره وهو يبتسم .

وهذا ثالث محنى الرأس ، مشوش الشعر ، متقرح العينين ، يبكى ، فيخيل إليك أنه والجبار المنهزم سواء ، وأنه كذلك الجبار عاجز وذليل ، وكذلك الجبار يكافح برغم ألمه ويقاوم وينشد الخلاص .

وهذا رابع مشرق الطلعة ، عالى الجبهة ، لامع النظرة ، تتدفق من هيكله الضئيل موجات من نور ، فلا تكاد تحدق إليه حتى ترتجف وترتد وملء نفسك الشعور بأنك حيال قبس من صفاء الملائكة أحباب الله . فالحياة العليا تتمثل فى وجه كل طفل صغير لم يعرف الشر بعد . وهذه الحياة العليا التى تنبع من روح الطفولة قد تغنت بها طائفة كبيرة من نوابغ الشعراء والأدباء واتخذت منها مصدر وحى تبدى فى تضاعيف

أعمال فكرية رائعة ، وقصائد شعرية فذة ، ورسائل شخصية تفيض رقة وعذوبة وجمالا .! من ذلك ما كتبه الشاعر الفرنسي الكبير فكتور هوجو فى إحدى رسائله إلى الناقد المشهور سانت بوف : « لا راحة للإنسان فى حب امرأة . الراحة كل الراحة فى حب الأطفال . فى حبهم النزيه الذى لا يخدع ، وفى قلوبهم النقية التى سرعان ما تصفح ، وفى ابتسامتهم التى تعرف دون سواها كيف تقدم النفس للغير هبة خالصة ! . . . وأنا كلما نظرت إلى وجه طفل تخففت من همومى وأقبلت على الحياة بنفس راضية وزايلنى على الفور إحساس التشاؤم الممض القاسى ، وحل محله شعور بالتفاؤل يملؤنى ثقة وعزماً وقدرة على المجالدة والكفاح . ثم إن الطفل وهو ينطلق فى فسحة الدنيا يندفع بالرغم منه إلى استطلاع الحياة واستكشافها ، وكذلك أنا عندما أتأمل الطفل أقتدى به على الرغم منى ، وأريد أن أستكشف الحياة مثله وأستبطن أسرارها عساى أستشف جوهرها الخالد الأبدى . فالطفل يعلمنى كيف أنظر وكيف ألاحظ وكيف أسجل وكيف أحتفظ بنزعة الاستطلاع التى هى وقود العقل وباعث المعرفة » .

أما القصصى الروسى « فيدور دستويفسكى » فقد كان يرى فى وجوه الأطفال ما لا يراه الناس . كان يقدسهم ، ويقضى الساعات فى اللهو معهم ، وينسى فى صحبتهم عقله ، ويحاول ما استطاع الاندماج فيهم والتشبه بهم . وإن من يطالع أعماله الرائعة ولا سيما قصة « الإخوة كرامازوف » وقصة « الأبله » يراه ، وقد تمكن منه ولعه بالأطفال ، يرسم لهم صوراً دقيقة الملامح ، ناطقة السمات ، فيها البراءة والمحبة والتضحية ، كما أن فيها الصراع بين هذه العواطف السامية وبين ما يعترضها فى المجتمع من رذائل وشرور يبهت لها الأطفال وتدهشهم فيحاولون التغلب عليها بما يكمن فى طواياهم من براءة أصيلة وطهر عميق .

وفى وسعنا أن نقول إن فلسفة « دستويفسكى » لم تقم أساساً إلا على تمجيد روح الطفولة ، وإن أحب أبطال قصصه إلى نفسه ، هم أولئك

الذين صفت قلوبهم ، ورقت مشاعرهم ، وعاشوا كأطفال كبار .

وأما شاعر الهند « طاغور » فقد كتب إلى الأديب الفرنسي « رومان رولان » رسالة مستفيضة جاء فيها : « . . . عندما كنت شاباً ، كانت غرائزي أقوى مني ، وكانت جاذبية الملذات المحرمة على وشك أن تستبد بي وتهلكني . فلكي أتغلب عليها وأقهرها ، لجأت إلى الله ، وشرعت أصوم وأصلي ، وأحاول أن أنظم شعراً روحياً خالصاً أمجد به الذات المهيمنة العليا . ولكني أحسست مع ذلك أن نفسي لم تكن طاهرة كما كنت أتمنى ، وأني غير جدير بالرعاية الإلهية التي كنت أنشدها ، وأن تلك الجاذبية المحرمة الخبيثة ما تزال تحوم حولي وتراودني . فاضطربت وتخبطت ومضيت أبحث في كياني عن حافز معنوي ينقذني . وعلى حين فجأة تمزق الضباب الذي كان يغشي حياتي وانجابت السحب عن بصيرتي فأشرق وجداني وعقلي وأدركت . . . أدركت أني من المحال أن أمجد الله كما أروم وأبتغي ، ومن المحال أن أعبده حق عبادته ، ومن المحال أن أبدع شعراً روحياً خالداً ، إلا إذا أيقظت في نفسي روح طفولتي ، وتطهرت بمائها القراح من كل رجس في فكري وجسدي ، وجمعت في شعري بين عقل الرجل الناظر في حكمة إلى شئون الأرض ، وبين قلب الطفل المتصل في براءة بأجواز السماء . . . فالرجوع إلى الطفولة كان خلاصي ، ومن نبع الطفولة ما زلت أستمد وحياً لشعري ، وقوة أحلق بها في رحاب الطبيعة ممجداً خالقها الذي هو ، بي ! . . . »

* * *

فاحرص على طفولة روحك حرصك على حدقة عينك الثمينة . وإياك أن تجعل عقلك المتكبر الأناني يطغى عليها . واعلم أن بين طفولة الروح وتكبر العقل معركة يومية دائمة ، لو هزمت الطفولة فيها ، فالأخلاق لا بد أن تتحلل والسعادة الروحية لا بد أن تموت ، والعقل يصبح نهباً مقسماً لأوضع ما في النفس من غرائز الحيوان .

فى قيمة المال

وهم كبير

إن جمع المال شيء . والتمتع بهذا المال شيء آخر . وأنت كلما جمعت مالا ازددت طمعاً ، وانحصرت لذتك فى الجمع والاكتناز . وقليلون هم الذين يدركون أن الجهد الذى تكبدوه فى جمع المال هو جهد قد ضاع منهم بالفعل . فلا هم استطاعوا التمتع بالمال تمتعاً مادياً يتناسب وكثرته وقدرة الطاقة البشرية المحدودة ، ولا هم استطاعوا التمتع به تمتعاً معنوياً يملأ عقولهم وقلوبهم بعواطف وأفكار وثقافة تسمو بهم فوق محيط غرائزهم .

وإذن فجمع المال وهم وخدعة . فضع رقى عقلك وقلبك ووجدانك فوق المال ، تدرك عندئذ قيمته ، وتتخذ منه وسيلة لا غاية ، وسيلة لمضاعفة ارتقائك ونفع من حولك ، لا غاية وهمية رخيصة لحياتك ، فتتحرر من سلطانه وتستعبده بدل أن يستعبدك .

نحن لا نملك شيئاً

نحن فى الحقيقة لا نملك شيئاً . وحادث قدرى غاشم يقع لنا يمكن أن يجردنا فى لحظة من كل شيء . فنفسنا فقط هى التى نملكها ، وهى التى يجب أن نروضها على كل ما هو معنوى وثابت كى نسمو بها فوق متاع الدنيا . إذ نفسنا هى التى ستبقى لنا فيما لو عصف بنا الحادث الغاشم فجأة . وأفقدنا ما كنا قد تهالكنا عليه ، واعتقدنا أنه هو الهدف الرائع الأوحد فى هذه الدنيا .

من باب القبو . .

هناك ساحر خبيث يعرف ما للمال من سلطان فيأبى إلا أن يطمره فى قبو . فإذا ما استبدت شهوة المال بإنسان ، أجبرته على أن يحنى رأسه ما استطاع كى ينفذ إلى المال من باب القبو . .

أثوابنا وأرواحنا

الثوب الأنيق يعوق حركات الجسد ، كذلك المال الكثير يعوق حركات الروح .

يكفيه القليل ولكن . .

الإنسان يكفيه القليل ولكن مصيبته أنه يخجل من أن يقول عنه الناس إنه يعيش بالقليل .

بين القناعة والطمع

الطمع يشوش العقل ، والقناعة تقر النظام في الفكر . فالطمع هو سعادة المجانين ، والقناعة هي سعادة الحكماء .

الله والمال

إن من يريد أن يعبد ربين : الله والمال ، لابد أن ينتهي على الرغم منه إلى الاعتقاد بأن الله غير موجود .

مسعورون ...

كما أن الكثير من الطعام الطيب يصيب الكلاب بالسعر ، كذلك التهافت على جمع المال يصيب الناس أيضاً بالسعر .

مسئولية الأثرياء

إذا رأيت إنساناً يمتلك أكثر مما يكفيه ، فاعلم أن هناك قوماً لايستطيعون بسببه أن يجدوا قوتهم الضروري .

المعدن البارد

الناس لايطلبون منك مالا بقدر ما يطلبون فهماً ومحبة . وأنت قد تعطي المال ثم تحجم عن الفهم والمحبة . ولكن المال وحده معدن بارد . فكيف تعجب بعد ذلك إذا قال عنك الناس إنك متكبر وقاس ، وإن إحسانك هو في الواقع دعاية لنفسك ؟ . . .

القوت أولا . .

إذا ضمنت للناس على الأقل الكفاف ، أمكنك أن تحدثهم عن الفضيلة . أما إذا حدثتهم عن الفضيلة وهم جياع ، فأنت أحمق أو مغرض غشاش .

التسول أو السرقة

إذا أبيت أن تشتغل وتكسب خبزك بعرق الجبين ، فأنت بين أمرين : إما أن تتسول وإما أن تسرق ، أى تحاول بكل ما أوتيت من ذكاء في العقل وقسوة في القلب أن تستغل جهد الآخرين .

توقع عجيب . . .

من خصائص الرجل الممتاز شدة احتقاره للمال . وهذا هو السر العجيب في أنه عندما يضعف ويسقط ، يحتقر المال أيضاً ، ويبيع نفسه بأبخس الأثمان .

متفرج لا متأمل

وفرة المال تستغرق فكر الغني وخياله ، فيعمى بصره عن رؤية ما تزخر به الطبيعة من جمال . فالمال يشطره عن الكون . وهو حتى لو سافر

وشاهد بلاداً وشعوباً عجيبة ، فهو ينظر إليها نظرة متفرج فقط ، نظرة مستكبرة ومعتزة تفرح بشعورها أنها كانت قادرة على التمتع بكل هذه المناظر وقادرة على القيام بكل هذه الرحلات ، ولكنها لا تشعر حيال الطبيعة فى أى مكان بلذة التأمل الخصب العميق أبداً .

فكثرة المال لا تجعلنا نتمتع بالحياة بل نتمتع بشعورنا العقيم بأننا قادرون بالمال على أن نتمتع بالحياة .

غرائز الفقير

لا تستنكر من الفقير غرائزه ، أى التوجس والمكر والمواربة والحيلة . إنها قوته . وأنت لا يمكنك أن تستأصلها من نفسه . ولكن فى مقدورك أن تبصره بخطرها ، وتحثه على الإقلاع عنها ، وتلطف من اضطراره لاستخدامها . وذلك بأن تحسن معاملته ، وتحرص على كرامته ، وتكون عادلا فى تقدير عمله ، بحيث لا يشعر هو أنك أنت الميسور ، رجل شحيح وغليظ ، تنافسه فى غرائزه ، وتأخذ مثله بضروب المكر والمواربة والحيلة ، كى تبخسه حقه وتستغله وتظلمه .

فوضى البؤس

عندما يرزح إنسان تحت وطأة البؤس ، تتشوش القيم كلها فى نظره ، فلا يعود يفرق بين الخير والشر، وبين ما هو مباح وما هو محرم. وكيف يمكنه أن يفرق، إنه لا يستطيع أن يقيم وزناً لشىء لأنه هو نفسه يشعر أن لا وزن له فى شىء . وعندئذ تنتابه فوضى الفكر والمسلك التى يولدها ذل الحاجة وعذاب التلهف والضيق والحرمان . فينقلب إلى مخلوق يائس ، مستهتر ومدمر ، يضرب فى المجتمع غير حافل ، ويسرق أو يقتل فى غيبوبة كغيبوبة المحموم أو المجنون .

فالقادر الذى لا يبذل لإنقاذ هذا البائس من بؤسه وفوضاه ، تصبح

جرائم البائس هى جرائمه ، فيكون وهو القادر أحق من البائس بالعقاب .

البر الصحيح

البر بالفقير قد يكون تسليماً بأبدية وجود الفقر ، أما معاونة الفقير مع الدعوة المؤمنة بحق جميع الفقراء فى اليسر ، فهو البر الصحيح لأنه ينهض على العدل .

تهذيب الفقير

ليست العبرة فى أن نأخذ بيد الفقير ونرفع مستواه المادى فقط ، العبرة فى أن نعلمه أيضاً ما استطعنا ونهذبه ، بحيث لاتأخذه العزة بما أصاب من يسر ، فيتكبر بعد أن ارتفع ، ويذهب فى الكبر والتغطرس إلى حد الوقاحة .

مجدك . . .

إن مجدك فى أن تربح لتعطى ، فى أن تكون ميسوراً لتحمى وتعول . وإذا قدر لك وأنت محتفظ بنقاء ضميرك أن تأخذ الكثير ، فعليك أن ترتفع بقلبك إلى مستوى ضميرك وأن تعطى أكثر . فكن كالشمس واجمع أشعتك مثلها ، وانثرها أضواء ساطعة على الجميع .

المثاليون فى نظر الناس

متى استبد سلطان المال بطائفة من الناس ، ثم صادفهم رجل مثالى يولع بالمعنويات ولا يقيم للمال كبير وزن ، أسرعوا فجردوا هذا الرجل من جميع الكفايات الذهنية ، واعتبروه مخلوقاً أبله غبياً جديراً بأن يتغفله كل إنسان . . .

والمثالى يعرف ذلك تماماً ، ويدرك أنه يمثل فى نظر تلك الطائفة شخصية المغفل . ولكنه لفرط اعتزازه بسموه وتجرده ، يدع الغير يتغفله عن طيب خاطر . شاعراً بالأسى لرؤيته الناس على حقيقتهم ماديين وأخساء . وشاعراً نحوهم فى الوقت نفسه بعاطفة أقوى من الأسى ، عاطفة قد تبدو لهم هى أيضاً ساذجة وحمقاء ، عاطفة إشفاق غريبة أقرب ما تكون إلى حب عجيب يدفعه دفعاً إلى التفانى فى محاولة خدمتهم وتهذيبهم رغم إمعانهم الدائب الوضيع فى احتقاره والتندر عليه والسخرية منه .

لمن يصفقون ؟ . .

من الناس من يقدمون فى غير احتفال على أشد المغامرات المادية خطراً . ولكنهم يجبنون ويتراجعون حيال المغامرات العليا ، أى مغامرات الفكر والقلب والعاطفة . يحبون العظمة فى المادة وينفرون منها فى الروح . يصفقون للوصولى الظافر ، ويهزأون بأصحاب المثل العليا .

وهم إنما يخافون التعلق بأية فكرة أو عاطفة مثالية . شعوراً منهم بأن هذه الفكرة أو العاطفة لابد أن تحمل فى طياتها شتى فضائل الألم الصامت والاحتمال الصامت . والتضحية الصامتة ، وأنها تصرف أذهانهم عن السعى وراء النجاح المادى ، ذلك النجاح الذى يراه الجميع ، ويهتف له الجميع . والذى فى مقدور صاحبه أن يستثمره كلما سنحت الفرص ، وأن يعرضه فى سوق الدلالة على كل من هو مثله نفعى ووصولى .

جنون المظاهر

نحن فى الشرق مولعون بالمظاهر إلى حد الجنون . فحياتنا الخاصة لا تهمنا بقدر ما تهمنا الصورة التى نريد أن تكون عليها حياتنا فى نظر الناس .

وليست العبرة عندنا فى أن نؤكد شخصيتنا ، ونصارح بحقيقتنا ،

بل العبرة كل العبرة فى أن نظهر غير ما نبطن ، ونحاول ما استطعنا أن نبدو أرفع شأناً وأعظم قدراً مما نحن عليه .

فالمصاب بجنون المظاهر يخدع نفسه ليتمكن من أن يخدع الناس . ومتى خدع الناس وبهرهم وألقى فى روعهم أنه وجيه وأنه عظيم ، تأثر هو نفسه بدعايته ، واندمج آخر الأمر فى دوره ، ولم يعد يشعر بما هو عليه من غش وضعة وصغار .

والأصل فى جنون المظاهر نقص فى الفكر ، وجبن فى الخلق ، وخوف من المجتمع ، وإعلاء وضيع لسلطان المال .

فالإنسان الذى لا يحس فى نفسه شجاعة أدبية يعتز بها ، وكرامة شخصية يذود عنها ، وشرفاً اجتماعيًّا يستمسك به ، هو الإنسان الذى يعوض نقصه بالمظهر الباطل المضلل ولو أصبح فى نظر الأذكياء سخرية وهزأة . أما ذلك الذى يعرف نفسه ، ويعتز بحقيقته ، ولا يخجل من أصله ومهنته ، بل يفخر بالعمل ، ويزهو بالشرف ، ولا يقدر الأشخاص لمالهم وجاههم ، بل للقيم المعنوية الماثلة فيهم ، فهو الإنسان الفذ الخليق بأن يقتدى به الناس .

روح البلطجة

... ومن الرذائل الخلقية الملحوظة أيضاً فى بعض الأفراد عندنا رذيلة البلطجة .

فالمصابون بهذه الرذيلة قوم لا تطيب لهم الحياة إلا إذا احتالوا على الغير ، وخدعوهم .

وأخص ما يميز شخصية البلطجى ، كلام معسول ، مقترن برقاعة بغيضة ، وصفاقة مثيرة ، ولؤم فى الطبع ، وفساد فى النية ، وخبث فى الضمير .

فهو يقترض منك مبلغاً من المال مثلاً ، وفى نيته أن يماطلك ما استطاع

ولا يدفع . وهو يكتب لك صكًّا على نفسه ، وفى نيته أن يتملص من احترام إمضائه ، وهو يساومك على شىء من الأشياء ، وفى نيته أن يتغفلك ويحصل عليه منك بأبخس ثمن . أو هو يهرع إليك ويشكو الضيق والحاجة ويظل يلتمس ويتوسل عساه أن يغرر بك ويطويك ويظفر منك بذلك الشىء دون مقابل .

فالرجولة عنده لا فى أن يكون أبيًّا عزيزاً، بل فى أن يكون نهازاً للفرص ، « أو نطجيًّا » وشاطراً، يعرف كيف يخدع ، ويعرف كيف يبلف ، ويعرف كيف يسرق وهو جذلان .

والواقع الذى لا ريب فيه أن « الأونطة » أو « البلطجة » سرقة . ولكنها سرقة زرية رخيصة لا يلجأ إليها إلا كل جبان دنىء .

وإنه لخير للمرء — ألف مرة — أن يكون لصًّا صريحاً ، من أن يكون « بلطجيًّا » نذلا ، لا يبلغ شجاعة اللص ولا يطاول كرامة الإنسان .

شرف أم هوان ؟ . .

إذا لم تخجل من فقرك أكبر الناس عزتك ، وإذا خجلت من فقرك اعتبرت المال غاية الشرف والفقر غاية الهوان ، فسجلت على نفسك فتقارك إلى الشرف واتصافك بالهوان . .

البخل والبخلاء

ليس البخل رذيلة فقط بل لعنة . لعنة تشوش العقل وتحجر العاطفة وتوصد القلب . فالبخيل قل أن يفتح قلبه لإنسان ، وقل أن يستجيب لأى حب . إذ الحب هبة . وكل هبة تستحيل فى نظر البخيل إلى مال حتى ولو كانت هبة عواطف مجردة .

أصدقاء البخيل

ومع ذلك فالبخيل قد ينفعل ويتأثر ، وقد يصادق ويتعلق . ولكنه لايصادق حقًّا إلا من كان مثله حريصاً وضنيناً وبخيلا . وعندئذ تكون صداقته لزميله البخيل تقديراً لشحه وبخله لا تعلقاً به لشخصه ولا لأية فضيلة فيه .

زوجة البخيل

وحتى فى دائرة الزواج ، وفى علاقة البخيل بالمرأة ، نرى البخيل لايسعد إلا بقرب امرأة بخيلة . فهو متى اقترن بهذه المرأة واستوثق من بخلها وتقتيرها ، أحبها وتشبث بها ، وكانت رابطة البخل التى تجمع بينهما أشد وأقوى من رابطة أعنف وأعمق حب .

والواقع أن الرجل العادى يحب فى المرأة العادية لوناً من الجمال يستهويه ، أو عاطفة غلابة تأسره . ولكن الجمال أو العواطف لاتلهب شعور الحب عند البخيل، لأنها فى نظره أشياء وهمية خيالية مصيرها يوماً إلى زوال . أما نزعة البخل عند المرأة فهى التى تجذب البخيل إليها وتحببه فيها ، إذ هى نزعة تجمع مالا أوتحرص على مال . والمال عند البخيل هو الشىء المحسوس الذى يرى ، والشىء الحى الذى يتوالد ، والشىء النابض المختلج الجدير بالحب .

فبخل المرأة يفتن البخيل ، وينافسه فى رذيلته . فيثير إعجابه بالمرأة البخيلة ويدفعه إلى حبها . ثم إن البخيل يعيش مع ماله فى عزلة وهو أحوج الناس إلى رفيق . فمتى صادف زوجة تحرص على المال مثله ، أمن على نفسه وماله بجوارها ، واستمتع فى صحبتها بلذة الاكتناز المتبادلة ، ولذة الوفاق الزوجى التى لا تكبده من النفقات قدر ما توفر له من المال الذى يقدسه .

حب شاذ ومعكوس

فهذه اللذة المزدوجة التى يشعر بها البخيل والبخيلة معاً ، هى التى تصب فى علاقاتهما اليومية ذلك الحب العقلى المصلحى الكتوم الذى يربط بينهما برباط أوثق ألف مرة من رباط الحب السليم ، لأنه رباط حب شاذ ومعكوس ، لا يصدر عن مميزات شخصية فى كل منهما ولا عن جوهر العواطف التى يحس بها أحدهما نحو الآخر ، بل يصدر عن قوة خارجة عنهما ومسيطرة عليهما ، تتحكم فى وجدانهما الخاص ، وتنبع من شهوة واحدة .

بيد أن هذا الحب أو هذه الرابطة الشاذة التى لا يوثقها غير البخل ، هى معول يهدم جميع الفضائل والأخلاق .

فالزوج العادى مثلا لا بد أن يثور على زوجته ، كائناً ما كان حبه لها ، إذا كانت هذه الزوجة معتلة الخلق ، فاسدة الطباع . أما الزوج البخيل فقل أن يتمرد على أخلاق امرأته البخيلة ، وقل أن يحفل أو يكترث ا قال عنها الناس أو إذا شعر هو أنها كاذبة أو واشية أو نمامة أو سليطة لسان أو حتى غادرة . كل عيوبها تغتفر فى نظره لأنها تحرص على المال . وما دامت تحرص على المال حرصاً يذهب إلى حد التقتير والشح ، فهى عنده مثل أعلى بصرف النظر عن قيمة شخصيتها وما يجب أن تتحلى به من فضائل وأخلاق .

وكما يسلك البخيل حيال امرأته كذلك تسلك امرأته حياله ، ولاسيما هى تعلم علم اليقين أنه لن يخونها وأن المال عنده أثمن وأغلى من أن ينفق ولو على أفتن امرأة .

فالتسامح بينهما مشترك ، وعدم اكتراث الواحد منهما لنقائص الآخر مشترك أيضاً ، والفضيلة الأولى والأخيرة فى نظرهما هى البخل

الذى يتربص ويلتقط ويجمع ، ويغض الطرف عن شتى الرذائل كى ينمو هو ويعظم ويصبح آخر الأمر متعة العمر وغاية الحياة .

ضحايا البخيل

على أن من البخلاء القادرين من يقترن بامرأة كمعظم النساء ، تستنكر البخل وتتطلع هى وأولادها إلى الحياة فيقتر عليها ذلك البخيل القادر كما يقتر على نفسه ، ويحرمها ويحرم أيضاً أولاده ، بحجة أنه يعلمهم الحرص ، ويبصرهم بعواقب التبذير ، ويجنبهم بالبخل مختلف الرذائل ولكن أية قيمة لمال البخيل إذا اكتنزه وحرم منه امرأته وأولاده إن امرأته قد تضيق ذرعاً ببخله فتمزق عرضه وتلتمس المال عند غيره ، أما أولاده فيدفعهم إما إلى سلوك سبيل الكذب والنفاق والتحايل عليه بغية استخلاص ما هم فى حاجة إليه من ماله ، وإما إلى الإقدام خفية على سرقته ، وإما إلى التمرد عليه تمرداً صريحاً والتلهف على موته والتخلص منه .

فسواء أعاش البخيل قرب امرأة يغض عن نقائصها لأنها بخيلة مثله أم كان بخيلا وقادراً وزوجاً لامرأة محبة للحياة فحرمها وحرم أولاده فبخله يفسد كل من حوله ، ولا يعلمهم الحرص بل يولد فى نفوسهم الدناءة التى هى أصل كل رذيلة .

وهذا هو الانحطاط فى أدنى مراتبه ، بل هذا هو الموت الادبى ، يحكم به الإنسان على نفسه والغير ، كلما تجرد من نوازعه العليا ، وأوغل فى الطمع والجشع وحب المال .

بين النبوغ والبخل

ليس من الغريب أن نجد بين البخلاء نوابغ . فالبخيل من فرط حرصه على المال ، ينفر بالطبع من كل رذيلة حمراء تستهلك المال كالخمر

أو الميسر أو النساء . فيعيش منطوياً على ماله ، ويحس مع ذلك فراغاً فى نفسه هو فراغ المسلك المحروم .

فإذا كان هذا البخيل صاحب موهبة فى علم أو فن أو أدب ، فهذه الموهبة تصبح رذيلته البيضاء ، بل المتنفس الوحيد لحياته . فيتشبث بها ، وينميها فى نفسه ، ثم يشعر بالسعادة كل السعادة متى نبغ فيها ، لأنها لم تكلفه مالا وإن كانت قد كلفته إجهاداً فى الذهن لا يقاس فى نظره بقيمة المال .

فقحط هذا البخيل فى حياته المادية ، يحفزه متى كان موهوباً إلى طلب الخصب والنبوغ فى حياته المعنوية . ولكن نبوغه لا بد أن يتأثر بطبيعته البخيلة ومنزعه الحسابى الواقعى . فتراه يتفوق غالباً فى العلم حيث يتحكم العقل المجرد والحقائق المنظورة . أما إذا اتجه نحو الأدب أو الفن فهو لا يتفوق إلا فى الطابع نفسه ، أى فى كل ما هو عقلى وواقعى أو شكلى وهندسى ، فلا يستطيع أن يضفى على فنه أو أدبه تلك الحلة الشائقة من شعر الوجدان والقلب التى ترتفع بالأدب والفن إلى المستوى الإنسانى الذى يهز مشاعر الناس .

وهذا ما وقع مثلا لفولتير البخيل . فهو فى أدبه يخلبنا بروعة الشكل والأسلوب وسحر العقل الواقعى الساخر الذكى ، ولكنه فى شعره لا يحرك فى نفوسنا أية عاطفة كبيرة ولا يبعث فى خيالنا أى تصور عظيم .

المال والسعادة

إن فكرة السعادة التى يحملها الكثيرون منا فى أطواء نفوسهم ويتمنون لو ساعدهم الدهر على تحقيقها ، هى فى الغالب فكرة ترتبط فى أذهاننا بقوة المال ، وتنشأ عن المقارنة بين حظنا الاجتماعى وحظ الآخرين ، أى بين ما كان يمكن أن تكون عليه سعادتنا المادية بالنسبة إلى سعادة المجدودين المترفين . وهذه المقارنة هى التى تلهب أطماعنا ، وهى

التي تشعرنا بالحاجة إلى مطالب جديدة ، ورغبات جديدة ، لا بد أن يعذبنا التفكير فيها والتلهف عليها عذاباً يسمم آخر الأمر كل قسط من السعادة النسبية المكفولة لنا اليوم .

فإذا شئت أن تكون حقًا سعيداً ، يجب ألا تقارن . . . يجب أن تعرف كيف تكتفي ومتى تكتفي ، على ألا يكون اكتفاؤك تواكلا في النفس ، وبلادة في الحس ، بل استمراراً في الكفاح مع التسامي بالرغبات والمتع إلى كل ما هو خير ونبيل . وما دمت تكافح سعياً وراء يسر مادى معقول ومشروع ، ولا تغفل النظر إلى مطالب عقلك وفكرك وثقافتك وكيانك المعنوى ؛ فأنت ستقر في نفسك التعادل بين المادة والروح . وهذا التعادل هو سر السعادة وجوهرها الباقي .

فى قيمة الارادة



الإنسان والحرية

نحن لا نعرف ما فينا من قوى مدخرة ، وقل أن نشعر بأننا فى جوهرنا أحرار ، إن كل شىء فى الطبيعة مسير ، أما الإنسان فهو وحده المخير . هو وحده الذى يملك العقل والإرادة ، وهو وحده الذى فى مقدوره أن يكون حرًّا إذا شاء .

فكلما تنبه الإنسان من الغفلة التى تنقضى فيها حياته ، وكلما استفاق وأدرك قيمته وامتيازه ، اشتعلت فيه قوى العقل والإرادة . فارتدت إليه حريته ، وأحس أنه بالحرية سيد مصيره وسيد العالم ، فى وسعه أن يقتحم كل مافى الكون من غامض ومستغلق ، وأن يتحدى الطبيعة ويصنع المعجزات .

قيمة حياتنا

إن قيمة حياتنا مرهونة بإرادتنا فى أن نعيش الزمن المعين لنا ثابتين فى وجه الموت المتربص بنا ، ومقبلين على عمل جدى وخصب ، نجعل منه هو الحقيقة الكلية لمعنى حياتنا .

طاقة وقوة

بعض الناس لايحيون . وهم أشبه بأولئك المجاذيب الذين يقفون بالمحطات وينتظرون قطاراً ، على حين تدوى المحطة والقطارات تسير . فإياك أن تعتقد أن الرغبة فى الحركة هى الحركة ، وأن تصور القوة هو القوة ، وأن نية العمل هى العمل ، وإلا كنت حقًّا كالمجاذيب منتظرى القطارات ، أو كنت كذلك العصفور البائس الصغير الذى يطير خلف النسر معتقداً أن النسر هو الذى يفر أمامه . فاذكر أنك طاقة وقوة ، وأن قيمتك فى

أن تستمد من طاقتك إرادة وأنك جئت إلى هذه الدنيا وأنت مشروع إنسان ، وأن مجدك فى أن تلهب طاقتك وقوتك، وأن تكون بإرادتك نحات نفسك ، بحيث يتم على يديك اكتمال هذا الإنسان .

غذاء الإرادة

ليست الإرادة هى العناد ، أى اصطناع الشدة والعنف لتحقيق غرض معين . الأمر بالعكس . فالرجل العنيد لا يمكن أن يسيطر على نفسه ويحقق غرضه . فإرادته التى يشوشها العناد والعنف والتوتر العصبى هى فى الحقيقة إرادة وقتية تلمع كالبرق ثم تخبو وتستحيل إلى تردد وخوف ويأس .

فالإرادة لن تكون قوة إلا إذا كانت إرادة واعية وهادئة ، موجهة ومنظمة ، ومنصبة على الدوام فى تيار واحد ، لا تؤثر فيها الخيبة العارضة ، ولا يثنيها الفشل المؤقت ، ولا تفت فى عزمها أحداث الزمن .

إن غذاء الإرادة هو المنهج . المنهج الواضح المحدد المرسوم . فارسم لك فى حياتك وعملك منهجاً معيناً ، بعد أن تكون قد وفقت بين هذا المنهج وبين مدى استعدادك وقدرتك بحيث تأمن الغلو والشطط والغرور . ومتى رسمت المنهج ، فاسرع فى تنفيذ خططه على مهل . لاحقها بالمثابرة والدأب والصبر . إذ قوة الإرادة كامنة فى استمرارها ، أى فى مجموع العمل الذى أسفرت عنه إرادة الأمس ، مضافاً إلى المجموع الذى سوف تسفر عنه إرادة اليوم والغد .

وليس من شك فى أن إغراء الحياة قد يعترضك ، وطلب اللذة قد يعصف بك ويحولك عن منهجك . فاطلب اللذة إذن ولا تكبت غريزتك . ولكن اجعل لذتك معتدلة ومشروعة ، وابذل قصاراك فى التسامى بها ؛ تخفف عنك هذه اللذة البريئة عبء العمل ، وتعاونك على المضى فيه ، وتتحد والمنهج المرسوم فى تكوين إرادتك . ثم اعلم

بعد ذلك أن العملّ المنظم يصبح عادة طيبة ، والعادة الطيبة تصبح طبيعة موجهة ، والطبيعة الموجهة تولدالخلق المتين ، والخلق المتين هو لب الإرادة وهو الذى يفصل فى مصير الحياة .

شهوة الجنس

. . . ومع ذلك فاحذرشهوة الجنس ، إذ لو فتر عزم الرجل وتراخت إرادته ، فقد يندفع فى هذه الشهوة فراراً من وقْر العمل ، واستخفافاً به واعتقاداً ببطلانه ، وطلباً لمتع الحياة. وعندئذ تنحرف الإرادة وتستقر فى شهوة الجنس نفسها . فيوغل الرجل فيها ، فتستأثر به ، وتفصله عن العالم ، وتحصره فى بؤرة . وعندئذ يكره العمل والانطلاق والحرية ، وينطوى على الشهوة انطواء المجذوبين ولا يجد لذة أبلغ وأمتع من الارتماء فى جوف البؤرة المهلكة .

هاوية الفراغ

الفراغ هو الذى يحفر البؤرة . فاحذر الفراغ أيضاً ، واشغل نفسك بكل ما يمكن أن يباعد بينك وبين نوازع الجنس . إذ الفراغ يلهب الشهوة ، فيلهب المخيلة ، فلا تكتفى المخيلة بالملذات الحيوانية الشائعة بل تستعين لفورها بالعقل ، فتجسم تلك الملذات ، وتنوعها ، وتفنّن فيها ، وتأبى إلا أن تستمرئها فى صور وأوضاع منحرفة وشاذة تقوض البدن وتخنق القلب والعاطفة والضمير .

فالفراغ بإيقاظه المخيلة يجعل من بؤرة الشهوة هاوية لا قرارلها .

الإرادة والجنس

إذا قلت مع « فرويد » إن قوة العقل والإرادة لا يمكن أن تكبت غريزتك الجنسية ، فلا مفرلك مع ذلك من أن تستعين بالعقــل

والإرادة كى تتجنب كل إفراط فى إشباع هذه الغريزة . فينبغى أن تدرك بعقلك أن غريزة الجنس لن تكون سليمة وخصبة ولن تدفعك إلى العمل والتفوق إلا إذا كانت الغاية منها هى الصحة والقوة للفرد والسلالة والمجموع . وحيث إنه لا صحة ولا قوة إلا فى التعفف ، فينبغى أن تروض عزمك وإرادتك على التعفف الرشيد الذى لا يذهب إلى حد التقشف ، بل يسمو إلى الحياة الراقية المتحضرة ، فيأخذ من ملذات الجنس المشروعة بقسط ليستطيع أن يأخذ من ملذات الفكر العالية بأقساط .

إله الدمار والموت

الجنس هو غريزة الحياة كامنة فى الجسد . ولكن الإنسان وحدة من روح وجسد . فإذا أفرط فى ملذات الجنس ، انفصمت وحدته ، وغابت روحه فى حمأة الجسد .

وهذا ما يرمز إليه الإله «سيفا» عند الهنود. فهو إله الجنس والخصب معاً أى إله الجسد والحياة . ولكنه فى الوقت نفسه إله الدمار والموت ، ينذر بفناء الجسد والروح كل من لا يكبح بالإرادة حواسه ، ويندفع ويتهالك على شهوات الجسد .

إحجام وحسرة

إذا كنت تحس أن قيامك بعمل من الأعمال فيه توكيد لشخصيتك وتحقيق لأمل عظيم كان وما يزال يراودك، ثم تحجم عن هذا العمل وتشك فى قدرتك على اقتحامه ، فثق أنك ستصاب بحسرة مريرة ، وأن هذه الحسرة ستظل كامنة فيك أشبه بمرض عضال يسمم حياتك .

فاندفع إلى العمل ولا تهيب، الاندفاع الأول هو كل شىء . وهو الذى يجر القاطرة . ومهما بدا لك العمل بعد ذلك دون مستوى أحلامك ،

فستشعر أنك قد قتلت الحسرة قبل أن تقتلك ، وتغلبت على جبن التردد وأثبت وجودك .

وحتى لو عاودك الضعف واليأس ، فاعلم أن اليأس ليس هو الفشل ، بل هو حركة من حركات وجودك أنت الحى . حركة تغريك اليوم بالاستسلام والجمود كى تبدلك غداً وتبعث فيك ضجراً ثائراً على هذا الجمود الذى لايتفق ووجودك الحى . وعندئذ تعود وتندفع لائذاً بالعمل ، فيستوعب العمل ضجرك وجمودك وينقذك .

فلا تنظر إلى اليأس باعتبار أنه قضاء مبرم عليك ، بل انظر إليه باعتبار أنه فترة هبوط عصبي وتزول .

جهاد عقيم

من الرجال عندنا من لايكاد يقدم على مشروع عظيم ويصادف فيه النجاح الذى كان يصبو إليه ، حتى تفتر منه الإرادة ويتراخى العصب . فيتحول فجأة، وتنبعث من نفسه نوازع دفينة ومنكرة ، فبدل أن يجعل من إنماء هذا المشروع متعته الكبرى وغاية جهاده فى الحياة ، يتخذ من النجاح المادى الذى أصابه وسيلة لإشباع غرائزه وشهواته ، كأنه ما كافح وجاهد إلا لهذا الغرض الفردى الوضيع . وعندئذ يموت المشروع العظيم الذى كان يرجى منه تحقيق النفع للمجموع ، وينحط صاحبه ويتدهور ولا يستفيق إلا على الندم والكمد والضياع .

بين الإرادة والخيال

كل عذاب مصدره التردد ، وشر ما يمكن أن يصيب الإنسان هو أن ينقسم على نفسه . فأنت إذا لم تجمع شتات نفسك ، وتستنهض مدخر قواك ، وتنطلق ثابتاً نحو الهدف الذى آمن بقيمته عقلك واستقرت عليه إرادتك ، أسرع خيالك فجسم لك العقبات التى

تنتظرك ، وألقى فى روعك أنك أضأل وأعجز من أن تستطيع تذليلها . فتنقسم بالرغم منك على نفسك . ثم تستهتر بما كنت قد عزمت عليه . ثم تتدهور وتبرح إلى سفاسف الحياة تدفن فيها آمالك ومطامعك .

سطوة العامل الأسطورى

كل رغبة فى التفوق لا تنهض على عقل يعرف ممكناته . تنقلب إلى عامل خرافى أسطورى يختم على بصيرة الإنسان .

ونحن كثيراً ما تتحكم فينا مطامع طائشة وهوجاء ، فنعتقد أنها هى مثار تفوقنا ، وهى وحدها التى يمكن أن تثبت قوانا وتؤكد امتياز شخصيتنا . فنندفع فى تحقيقها آخذين بمنطقها المشوش أى منطق عواطفنا . فتستحيل تلك المطامع والرغبات إلى أخيلة لاتمت إلى الواقع بصلة . فندرك نحن ذلك ونستيقظ . ولكننا برغم يقظتنا وإدراكنا ، نظل نتشبث بأوهامنا ومطامعنا ونسعى إليها . ونسلط خيالنا العنيد عليها ، كبراً وزهواً منا بأن نكون أفذاذاً فى معركة الحياة لاضريب لنا . وهكذا يستبد بنا العامل الخرافى الأسطورى على حد تعبير الفيلسوف « برجسون » ، ويفسد عقلنا وإرادتنا ، كى يجرفنا فى تياره آخر الأمر ويقضى علينا.

بين العقل والإرادة

. . . ومع ذلك فعقلنا نفسه قد يكون عدوًّا لإرادتنا . إذ من خصائص العقل أنه متى استشعر فى الإنسان عزمه على العمل والانطلاق ، أمسك به فى اللحظة الحاسمة ، وطفق يؤرجحه بين مد وجزر ، ويقين وشك ، وإقدام وإحجام . فاستند إلى العقل أول الأمر ، واهتد بهديه فى الغاية التى فى مقدورك أن تحققها . ولكنك متى ثبت على الفكرة والغاية وأحسست أن إرادتك أصبحت وحدة حية على وشك أن تندفع وتعمل ، فاحذر وساوس العقل وعودته بك إلى

التأرجح والتشكك ، وإلا وهن عزمك ، وتقلصت إرادتك ، وغرر بك في النهاية عقلك ، وفرض عليك التراجع فرضاً وهو يزينه لك في صورة الرشاد والحكمة التي هي في الواقع صورة للهزيمة يابسة وشاحبة وصفراء .

إرادة العصبيين

إذا كان العصبيون في الغالب أذكياء ، فهم في الغالب أيضاً ضعاف الإرادة . وهم إن لم يعرفوا كيف يبنون بذكائهم قوة إرادتهم بحيث يمكنهم أن يضبطوا انفعالاتهم ويحسنوا توجيه الغايات والمطامع التي يلهبها فيهم ذكاؤهم . فأعصابهم لابد أن تجمح بهم . فتبدو لهم الحماقة شجاعة ، والطيش إقداماً ، والتهور جرأة . فيغيب ذكاؤهم في نشوة من التخبط والتورط والدمار .

لقمة العيش

يجب أن تعرف كيف تكسب عيشك على ألا يحول ذلك بينك و بين أن تعيش . إن السعي إلى لقمة العيش كثيراً ما يفقدنا لذة العيش . فلا تبع نفسك بجملتها من أجل اللقمة . احرص على الجانب الحر من ذاتك ، ودع في عقلك فسحة لغاية معنوية تنعشك ، وفي قلبك فرجة لعاطفة ثمينة تنقذك ، ثم اخرج إلى الشمس والهواء ، واجلس على العشب الأخضر الناعم ، ورحب بالطبيعة هاتفاً ، وكل في هناءة لقمتك .

أنت وغايتك

أنت قد تهب ممكناتك ومواهبك لعمل لا يعبر عنك . لعمل ليس هو أنت ، ولا صلة له بجوهر نفسك . فتصبح أنت بعملك في واد ، وجوهر نفسك في واد .

فابذل قصاراك منذ بدء حياتك فى تعرف غايتك الأصيلة، ثم اتبعها ولا تنحرف عنها إلى غيرها مهما تحملت من تضحيات؛ وإلا عشت تحمل على منكبيك عملا بغيضاً، أى تحمل على منكبيك إنساناً غيرك. يظل يستعبدك بشخصيته الدخيلة، وتظل أنت فى غمرة الحسرة والتمزق، تأمل فى أن تلتقى به عن كاهلك ولكن على غير جدوى.

هذا الثأر . . .

مهما شعرت بالعجز عن تحقيق غايتك ، فيجب أن تغالب نفسك وتمضى فى كفاحك ، مؤمناً بأن عملك حتى ولو كان شائعاً وضئيلا فسيجنى الآخرون من غرسه ولو ثمرة . العمل هو الخلاص . والعمل كالحب . وكل من يولع حقًّا بامرأة يحس أنه يعيش لا بما يمكن أن تهبه المرأة له، بل بما يضطرم فى صدره هو من مشاعر الحب والإخلاص والبذل لها . ثم اذكر فوق هذا أن عملك هو ثأرك من الموت . فاعمل جاهداً وإلا استعذبت ظلام اليأس ومرارته المستكبرة ، فثأر منك الموت بدل أن تثأر أنت منه ، وأحالك إلى جثة وأنت حى .

قصور الأمل

لاتقل إن الآمال أوهام ، والبث متشبثاً بأملك فى أن تحقق شيئاً بعزم إرادتك . واذكر أن قصور الآمال حتى واو عجزت الإرادة عن بنائها كاملة فهى وحدها التى يمكن أن تنقذ الإنسان من كهوف الخوف التى يحفرها الجبن واليأس .

اتئد فترة . . .

. . . على أنك وأنت تقطع طريق حياتك ، يجب أن تتئد فترة وتتوقف وتسأل نفسك : هل هذا هو الطريق الذى كنت قد رسمته ،

وهل أنا حقاً أسلكه ، أو أنى قد انحرفت عنه بالرغم منى ، أو انحرفت عامداً لفرط ما برح بى الضجر أو التعب أو اليأس . . .

إن فترة التوقف هذه هى التى تطمئنك على مسلكك أو توقظك من انحرافك . فتردك إلى غايتك الأولى ، أو تنصحك بالتراجع قليلا والأخذ بما هو فى حيز ممكناتك . وهكذا لا تمعن فى التورط فيما لا طاقة لك به ، ولا تخادع بالحلم الجميل والأمل الباطل نفسك .

البذرة والأرض

جدد فى عملك وحياتك ما استطعت ، فالأرض لا يمكن أن تزرع سنوات طويلة بالبذرة نفسها وإلا استنزفت عصارتها وأصابها الجفاف .

حظك يشبهك

قد يكون حظك جائراً . ولكنك إذا أنعمت النظر وجدت أن حظك يشبهك تماماً ، وأن كل ما وقع لك يمت بصلة وثيقة إلى جانب عميق فى جوهر شخصيتك .

حظك أيضاً . . .

حظك التاعس قد يكون فى بعض الأحيان إرادة قوية من غيرك ، استضعفت أنت أمامها وتركتها تفرض نفسها على إرادتك .

نحن والقدر

القدر المحتوم علينا ، هو القدر الذى نرضاه لأنفسنا .

بين التفاؤل والتشاؤم

الإنسان يتأرجح بين التفاؤل والتشاؤم . ولكن حقيقة الحياة لا تكمن

إلا فى الفرجة البارزة بين هاتين النزعتين .

مثالية التشاؤم

. . . ومع ذلك فلا يجب أن ننفر من الإنسان المتشائم تجاه الحياة . إذ هو قد يكون إنساناً مثالياً يحمل فى خياله صورة رائعة يتمنى لو تكون عليها الحياة . فنحن على الرغم من تشاؤمه أو بسبب هذا التشاؤم نفسه ، نلمح فى حديثه أو فى أعماله أضواء من تلك الصورة التى مهما كانت مثالية ورائعة وبعيدة التحقيق ، إلا أنها لا بد أن تؤثر فينا ؛ وترشدنا إلى مواطن الضعف والنقص فى حياتنا . فتنفث فى صدورنا روح القوة والإرادة . وتتجه بأفكارنا وعزائمنا نحو مستقبل أفضل .

الصبر والزمن

جميل منك أن تصبر على الصعاب ، بشرط ألا يقعد بك الصبر عن محاولة تذليلها.

الصبر هو احتمال سلبى يعتمد على الزمن فى حل المعضلات ، فيبتلى الإنسان بالأسى ويخنق فيه كل تطلع . أما الصبر مع الكفاح فهو فرحة الإنسان بنشاطه الإيجابى . وهو اعتزازه بإرادته التى تحاول أن تذلل الصعب وتسبق بالعزم المكين عجلة الزمن .

لذة الشكوى

الإنسان القوى لاينبدب ضيعة الماضى ، ولايحزن على مافات ، ولا يقف بالنكبات يفتن فى التفكير فيها ، وتقليبها على مختلف وجوهها ، كى يحيلها حسرات عميقة دفينة ، تهد منه القوى ويلتذ شعرها الحزين .

ونحن فى الشرق نقاسى الأمرين من وطأة هذا الداء . نحن نجد لذة كبرى فى تأمل مصائبنا ؛ والتعليق عليها ، وإنماء الألم العذب الذى تحدثه

فى نفوسنا ، والصبر وانتظار الفرج من القضاء الذى نعتقد أنه المسبب لها .
ولكن الإمعان فى تحليل الضعف ، ضعف على ضعف ، والغلو فى الشكوى دليل العجز . والتمادى فى التذمر والتململ موت للهمة وفناء للإرادة والنشاط .

فحكم عقلك فى أعصابك وعواطفك ما استطعت . واعلم أن كل من يندب سوء حظه ، يخالس بنفسه كوارث أخرى ويدعوها للانقضاض عليه .

أشباه نساء

قد تعصف برجل أزمة من الأزمات . فيرزح تحت وطأتها ، ويذوق من عذابها لأول مرة مشاعر وعواطف يحس لها لذة غريبة ، هى لذة التوزع والتخبط والذلة والانكسار . ثم تتبدد الأزمة بفعل الزمن وتزول . فيستشعر الرجل فراغاً فى نفسه ، فيصبو على الرغم منه إلى مخالسة أزمة ثانية تجدد فيه تلك المشاعر والعواطف الموزعة المتخبطة الذليلة التى كان قد وجد فيها بالأمس متعة بالغة . فإذا هانت عليه فى تلك الفترة كرامته ، وأسلس لتلك النزعة قياد فكره وإرادته ، فهو لابد أن يفقد كل فرح بالحياة ، وكل إرادة وعزم وأمل فى مشاعر وعواطف قوية وأبية وسليمة يواجه بها تقلبات الأيام وأحداث القدر . وعندئذ يستحيل ذلك الرجل إلى شبه امرأة مريضة ، امرأة من أولئك النسوة المصابات بـ « المازوكية » ، اللاتى لايطيب لهن العيش إلا إذا عذبن أنفسهن واستمرأن العذاب فى لهفة ونشوة ، وأبين أن يجدن السعادة إلا فى حياة كئيبة مقهورة زاخرة بالأشواك والدموع .

سم الهموم

من الناس من يريدون أن يشاركهم الغير حمل همومهم ، لا ليخففوا

من وطأتها عليهم ، بل ليجدوا لذة خبيثة فى شعورهم بأن سم الهموم قد سرى أيضاً فى نفوس من يسمعهم .

ألم وألم

إذا كان الألم الذى يبتلينا به القدر عميقاً ، فهو أقل إنهاكاً لنا من الألم الذى ينبع من ضعفنا وجبننا أمام أنفسنا . الألم الذى يحدثه القدر يحطم قلوبنا فترة ثم يعلمنا الصبر والحكمة ويقوينا . أما الألم الذى نجلبه نحن على أنفسنا بانجذابنا إلى عوامل الضعف والجبن واستمرائنا لذتها واستسلامنا لها ، هذا الألم هو الذى نخلق به قدرنا التاعس الشخصى بملء حريتنا ، ونؤثر به فوق ذلك على من حولنا ، فنهوى إلى الحضيض ، ونهوى بالغير أيضاً معنا .

وهم البقاء

كثيراً ما تخدعنا غريزة البقاء ، وتزين لنا عند الشدائد أن فى التهالك على الطعام بقاءنا . وهكذا لا تكاد تصيب البعض منا صدمة نفسية أو ضائقة مالية ، حتى يخيل إليهم من فرط ضعفهم وانهيار إرادتهم أن تلك الصدمة مستعصية العلاج وأنها قد تقضى عليهم . فتراهم يهرعون إلى الطعام متهافتين عليه ، دافنين همهم فيه . فتترهل أبدانهم وتمرض فتقتلهم البطنة التى أرادوا بها التخلص من الهم والتى خدعتهم بها غريزة البقاء .

فرائس أنفسهم

هناك أشخاص لا تنفك تعذبهم كوارث ثلاث : الكارثة التى حلت بهم بالأمس ، والكارثة التى قد تحل بهم اليوم ، والكارثة التى يتوقع خيالهم المريض أنها لا بد أن تعصف بهم غداً . . .

وهؤلاء الأشخاص هم فرائس الحياة لأنهم فى الواقع فرائس أنفسهم .

تجاه الكارثة

إذا شئت أن تحرص على قوة إرادتك ، فانظر إلى الكوارث التى تنزل بالنفس على اعتبار أنها رياضة لها كرياضة الجسد . وكما تشيع الرياضة فى بدنك المرونة والصحة ، كذلك يجب أن تشيع الكارثة فى نفسك روح الجلد والكفاح . الكارثة لا بد منها ، وهى قانون من قوانين الحياة . ولكن الكارثة ليست كتلة صخرية صلبة مروعة كما يصورها لك وهمك ، إنما هى مجموعة أحجار متماسكة ألفت بينها ظروف معينة . فإذا فاجأتك أية كارثة ، فدر حولها وتأملها حتى تقع على الحجر الناتئ منها . ومتى وقعت عليه فأسرع وهاجمه بجمع إرادتك وقواك . هاجمه هو وحده . وعندئذ تبصر الكارثة تترنح أمامك ، ثم تتقوض فجأة وتنهار حجراً على حجر .

نحن والعالم

نحن لا نحس بالعالم الخارجى تماماً إلا إذا صدمتنا منه عقبة يجب أن نذللها . فإذا ماذللنا تلك العقبة ، شعرنا على الفور كأن أبواب العالم جميعاً قد انفتحت أمامنا .

الماء والصخر

إن معظم الشرقيين يجنحون إلى البطء فى العمل ، والبطء فى الفكر ، والبطء فى اللذة . إنهم لا يحيون الحياة بل يترشفونها . ولكن الحياة ليست كأس خمر . إنها عين ماء مطمورة فى جوف صخر . فحطم الصخر أولا ثم املأ الكأس من العين واشرب .

النصر بعد الكفاح

النصر بعد الكفاح ممتع . والقافلة لاتشعر بمتعة الراحة إلا بقدر ما قاسته فى الصحراء من ريح السموم .

اليد اليسرى

عالج الأمور الصغيرة بنفس قوى الحرارة والإيمان والإخلاص التى تعالج بها الأمور الكبيرة ، واعلم أن الغرض من التقدم ليس هو تسلق الجبال ، بل ملء الفضاء بالأبنية العالية التى فى وسعها أن تتطلع إلى قمم الجبال . لذلك يجب أن تكون طموحاً وأن تطلب الكمال ، على ألا تزعم أبداً أنك قد بلغته . وإذا اعترضتك غاية . وقيل لك إن تحقيقها ضرب من المستحيل ، فلا تكترث واقتحمها . ولكن بعد أن تجند لها عقلك وعزيمتك وتقيس حيالها مبلغ ممكناتك . ثم اذكر أن المستحيل لم يسم مستحيلا إلا لأننا لم نجربه ، وأن اليد اليسرى التى نهملها ونحتقرها هى اليد التى يفزع إليها الفارس ساعة الخطر ، وهى التى يجذب بها العنان كى لايجمح به جواده فيرديه .

أبطال المستحيل

بعض الناس يتشدقون بعمل المستحيل ، ستراً لعجزهم عن القيام بأى عمل ممكن .

المغامرة والهدف

الرجل الذى يغامر قد يصيب الهدف مرة وقد يخطئه أخرى . أما الرجل الذى لا يريد أن يغامر فلا بد أن يخطئ جميع الأهداف .

شرف الرجل

لا ينبغي فى بعض الحالات أن ندع إنساناً يسرف فى الحنان أو الشفقة علينا .

الحنان كثيراً ما يذيب العصب ، والشفقة قد تكون استعلاء من المشفق فيه إذلال لنا وإهدار لكرامتنا .

فالحرص على صلابة العصب ، وانتفاضة الكرامة ، هو شرف الرجل .

شخصية الرجل العظيم

يُعرف العظيم الحق بفضيلتين هما : الطموح والحب .

فبالطموح يتفوق ، وبالحب يخدم .

والعظيم الحق لايبتسم للمجد لفرط ما هو منهمك فى مواصلة الكفاح .

تجارب الماضى

تجارب الماضى هى حقل الرجل الشائع . أما الرجل العظيم فلا يكترث لتجارب الماضى ، لأنه يبحث عن تجربة خارقة ليس لها حتى الآن أى وجود .

سلطان الخوف

إن انشغال الفكر بالهموم المادية أو المعنوية ، وتوزع خصائص العقل تحت تأثير القلق على المستقبل ، وإحساس النفس بالخوف العميق حيال المجهول وتجاه مختلف أحداث الحياة ، كل هذه المشاعر والهواجس تزعزع الإرادة ، وتعصف بالناس فى غير رحمة ، وتقتل منهم أكثر

مما تقتل الحروب . وتبتليهم بأمراض أشد فتكاً من الأوبئة . ولا شك فى أن الخوف نزعة متأصلة فى طبيعة الإنسان، بل هو نزعة ذات أهمية بيولوجية عظيمة فى الدفاع عن الحياة . فالطفل لا يكاد ينصب قامته ويمشى حتى يتعلم تلقائياً كيف يبتعد عن الشيء الملتهب خشية أن يحرقه، وكيف يتجنب لمس السكين خشية أن يخدش بها أصابعه ، وكيف يجتاز الطريق وهو ينظر يمنة ويسرة خشية أن تصدمه سيارة فتقتله . فالخوف هنا مفيد ، وغريزة البقاء تدفع إليه وتوحى به . ولكنه إذا اجتاز هذه المنطقة ، منطقة الدفاع الفطرى عن الحياة ، انقلب إلى عارض « باتولوجى » لا يمكن أن يؤدى إلى القوة والحياة بل إلى الضعف والموت . فالخوف كائنة ما كانت أسبابه ، وسواء أصدر عن توقع مرض عضال ، أم توقع فشل ذريع ، أم كارثة مالية : أم خيبة عاطفية ، لا بد أن يخلق فى النفس والذهن وساوس تقوض سلطان العقل وتحطم صرح الإرادة ، وبدل أن تساعد الفكر على العمل تدفعه إلى الحياة فى ظل الهم الذى لا يرحم بل يبطش ، ولا يبنى بل يهدم ، ولا يشفى بل يقتل .

وقد يخيل إلى البعض أن الاسترسال فى الخوف والهم والحزن حالة نفسية لا علاقة لها بالبدن : ولكن التجارب العلمية أثبتت أن علاقتها بالبدن وثيقة ، وأنها حالة نفسية «فزيولوجية » ، سرعان ما تضعف وظائف الجسم ، وتعوق إفرازات الغدد ، وتعطل حركة الهضم ، وتبتلى الفرد فى النهاية بداء من أخطر الأدواء وأصعبها علاجاً ، ألا وهو داء « النورستانيا » الذى يزعزع الأعصاب ، ويشوش الفكر ، ويميت الإرادة ، ويضاعف إحساس الخوف والهم والقلق مضاعفة قد تؤدى إما إلى الهوس أو الجنون أو الانتحار .

فمشاعر الخوف والقلق والهم هى إذن ألد أعداء الإنسان . وكل إنسان يجسم بخياله وقع الحوادث والأعمال ويهول فى افتراض نتائجها ، يستهدف ولا ريب لأخطر أمراض النفس والبدن .

فاحذر مشاعر الخوف والقلق والهم ، وكافحها بالوسائل التالية :

أعصابك أولا — اعن قبل كل شيء بصحتك ولاسيما بمتانة أعصابك، فالعصب الضعيف يلهب المخيلة ويثير الانفعالات ويفصم الشخصية أو يزعزع تعادلها . فيلقي في روع الإنسان أنه مظلوم وأنه منبوذ وأنه مضطهد، وأن عداء الناس وكوارث الدنيا قد تحالفت كلها عليه . فالعصب الضعيف هو مرتع الخوف ، والعصب القوي في البدن السليم هو مرتع الأمل والشجاعة والإقدام .

خطر المبالغة — لاتبالغ في تصور مخاوفك وهمومك . انظر إليها على حقيقتها ، وقدرها بنسبة ما هو أخطر منها ، ووازن بين قيمتها وقيمة حياتك بأسرها ، تتبين لك ضآلتها وتستطيع أن تتمكن منها وتحتال على علاجها .

تفاءل ولكن . . . . . عود نفسك التفاؤل على شرط أن تحتفظ بتوقد ذهنك ودقة نظرك إلى الأشياء كي لايخدعك التفاؤل عن رؤية الواقع الذي لابد أن يتغير كما يتغير كل شيء في هذه الدنيا . أما إذا هاجمتك نزعة التشاؤم تحت تأثير أحداث طارئة وحالكة لم تكن في حسبانك ، فلا تعذب نفسك ، واذكر أن حقيقة الحياة لاتكمن إلا في الفرجة البارزة بين هاتين النزعتين كما مر بك .

حقيقة نفسية — تنبه إلى حقيقة نفسية ثابتة، وهي أن العقل لا يؤخذ إلا بالفكرة التي يريد أن يهتم بها . فإذا هاجمتك بغتة فكرة سوداء ، فأسرع وانصرف عنها إلى فكرة تناقضها ، فكرة لاتمت إليها بأية صلة : ثم اهتم بهذه الفكرة اهتماماً صادقاً لا يدع مجالا لغيرها .

ضرورة الإفضاء — إذا حدثت الناس عن مخاوفك وهمومك زدت من تأثيرها الوبيل في نفسك وإذا كتمتها واختزنتها في عقلك الباطن انفجرت يوماً وفتكت بك . فخير الأمور أن تفضي بها إلى صديق عاقل مجرب ، على شرط أن يكون إفضاؤك دراسة عقلية جادة للألم وتطلعاً إلى مخرج ينقذك ، لا مجرد فرصة تلتمسها للتمتع بسرد قصص أحزانك ابتغاء

الشعور بأنك متفرد فى الألم عظيم فى العذاب .

خدمة الغير — كلما اهتممت بشئون الغير تخففت من عبء حزنك. فاخرج من دائرة نفسك إلى محيط سواك ، تتحرر من تأثير ذاتك ، وتجد فى خدمة الغير راحة كبرى .

حوافز لا عوائق — إذا كانت مشاعر القلق والهم والخوف قد تقتل الإنسان. فإياك أن تظن أن من واجبك أن تنتزعها من صدرك انتزاعاً ، وأن تحيا حياتك عابثاً لاهياً مستهتراً بكل شيء . الواقع أن تلك المشاعر يمكن أن تؤكد وجودك . لو تساميت بها وارتفعت بانفعالاتها ، وكنت قد حرصت كما أسلفنا على سلامة أعصابك وعنيت بتربية إرادتك .

ولا شك فى أنك لو شعرت مثلا بالقلق لأنك لم تبلغ بعد فى عملك ما كنت قد رسمته بخيالك ؛ أو أحسست بالهم لأن غيرك أوشك أو استطاع بالفعل أن يحقق ما كان فى وسعك أن تحققه ، أو انتابك الخوف من التردد والتخاذل واليأس واحتمال ضياع حظك من يدك ، فمشاعر القلق والهم والخوف هذه تتطور عندئذ فى نفسك وتنقلب من عوامل ضعف إلى حوافز قوة . لأنها لا بد أن تثير فيك ، وأنت المتين العصب الصلب الإرادة ، سخطاً على نفسك ، واستنكاراً لترددك ، وغيرة على مكانتك وجدارتك . فتلهب فى صدرك إحساس الكرامة ؛ وتستنهض كل ما كنت قد ادخرت من إرادة وعزم ، وتدفعك دفعاً إلى مواصلة العمل واستطراد الجهاد .

الخوف الكاشف

الخوف هو الذى يكشف عن قيمتنا ، فإما إلى جبن وإما إلى شجاعة . والواقع أن الجبن هو خوف انتصر علينا ، والشجاعة هى خوف انتصرنا نحن عليه .

خوف المترفين

أكثر ما يتحكم الخوف فى حياة المترفين . فالمترفون قل أن يذهبوا فى ميولهم وأهوائهم إلى حد المغامرة والتضحية . إذ الترف يبتليهم بالحذر ، والحذر يبتليهم بالجبن ، والجبن يدفعهم إلى التشدق بالحكمة ، حكمة الشيوخ الآسنين المتعفنين .

بدء التخبط

إن ضوابط الخلق والإرادة التى يأمر بها العقل ، كثيراً ماتفلت منا ونحن كهول ملزمون باتباع جادة العقل ، فتنتابنا فجأة لوثة من تخبط . فالتخبط قد يبدأ عندما يكتمل العقل . ومن الكهول الذين نضجت عقولهم من هم فى أعمالهم وتصرفاتهم أشد حماقة وتخبطاً من بعض الشباب المجانين .

شيطان الكهولة والظلام

قد يشعر فرد من الأفراد أنه إنسان صلب الإرادة وممتاز ، وأن مواهبه قد أعدته لأعمال عظيمة فيها الخير كل الخير لأمته ووطنه . فتراه يقضى أيام صباه فى تربية إرادته ، وتثقيف عقله ، وتضحية نفسه ، وتطهير خلقه من شوائب الضعف بغية تحقيق حلمه السامى المنشود .

فإذا أشرف هذا الرجل على الكهولة ، وحقق بالفعل عملا عظيماً ، انتابه فجأة شبه دوار . فعز عليه شبابه الذى قضاه فى التضحية والبذل ، وعزت عليه حياته التى أنفقها فى العمل والكفاح . فطافت به أشباح المفاتن الدنيوية التى حرم نفسه منها بالأمس عامداً . فاستيقظ فيه إغراء المال أو إغراء المرأة . فراح يطمع فى المال أو فى هوى المرأة ، متنكراً لحلمه ، خائناً لواجبه ومبادئه وضميره ، مستحيلا إلى وصولى منافق يدمر

بكلتا يديه الهيكل المعنوى الرائع الذى كان قد شاده بعقله وروحه ودمه .

وهكذا يسقط الرجل المجيد من حالق ، ويتحطم ويتبدد كأن لم يكن .

هذا هو شيطان الظلام ، أى شيطان الكهولة . يحوم حول كل فرد ممتاز ، ولا يفتأ يوسوس له فى مهبط عمره وبعد جهاده الطويل أن لاشىء وراء هذه الدنيا . وأن كل شىء باطل ماخلا المتعة ، وأن الواجب والضمير والمبدأ أضغاث أحلام .

فانظر إلى هذا الرجل واعتبر بسقوطه . وإذا كنت قد امتزت فى شبابك بجهاد نبيل وعظيم ، فاحذر فى كهولتك شيطان الظلام . إن فى همسه فتنة ، وفى وسوسته نشوة ، وفى صوته ناراً تذيب منك العزيمة وتحرق مآثرك فى لحظة .

فاحرص على ماضيك النقى حرصك على حدقة عينك ، واستمد من بياضه ونصوعه ثباتاً جديداً ، وإرادة مضاعفة ، تحميك من كل إغراء وضيع بالغاً ما بلغ سحره . فتحتفظ بشرفك ونبلك ، وتقهر بعزة هذا الشرف وهذا النبل شيطان الكهولة والظلام .

انظر إلى السماء

لاتظن لأنك تقدمت فى السن وأمسيت فى مغرب حياتك أنه لم يعد فى وسعك إبداع عمل عظيم . تأمل الطبيعة وانظر إلى السماء ، تشعر على الفور أن الأفق الذى تشرق منه الشمس هو أقل جمالا وعمقاً من الأفق للذى تغرب فيه .

قل فى نفسك . . .

قل فى نفسك : لن يسمعنى إنسان إذا شكوت ، ولن يعاوننى إنسان إذا احتجت ، ولن يشاركنى إنسان إذا مرضت ، ولن ينقذنى

إنسان إذا دقت ساعتى وطالعنى وجه الموت .

إنك إن قلت هذا كنت الرجل القوى الذى يحمل ثابتاً عبء قدره ، ولا يهرع إلى الناس كى يأخذوا بيده ، بل يعتمد بعد الله على نفسه ، ولا يهاب حتى لو تخلى عنه الأهل والأصحاب أن يواجه فى عزة مصيره ، و ينطلق بمفرده فى طريق الشوك الذى كتب عليه .

فى أروقة الفلاسفة

حلمت ذات ليلة أنى فى بلاد الإغريق ، أروح وأغدو فى رواق من أروقة الفلاسفة ، وأنى أرى وأسمع حواراً عجيباً بين فتى متمرد يائس وفيلسوف شيخ .

و إليك هذا الحوار :

الشيخ — لماذا أنت اليوم متجهم يابنى ؟ . . .

الفتى — لأنى فكرت أياماً طويلة ، وبعد أن فكرت أدركت أنى أرفض هذا العالم يا أبت . أرفض نظامه وأرى أن هذا النظام الذى قدرته الآلهة علينا هو نظام قائم على الظلم والألم.فلماذا أوجدت الآلهة الألم،ولماذا أوجدت المرض ، ولماذا أوجدت الموت . الحياة فى نظرى لامعنى لها ، وكل ما فيها غير معقول ، وأنا ثائر عليها وعلى الآلهة يا أبت . . .

الشيخ — ثائر؟ . . . وبعد . . . بعد الثورة . . . ماهى الغاية ؟ . . . أفى وسعك أو فى وسع أى إنسان أن يعيش بدون غاية ؟ . . .

الفتى — كل غاية عقيمة ، وكل أمل خادع ، وأولى بنا أن نعيش بلاغاية ولا أمل ولا جهد .

الشيخ — ومع ذلك فأنت بعد وفاة والدك تجاهد ، تجاهد لتعالج أمك المريضة المصدورة ، وتجاهد لتعولها وتعول إخوتك الثلاثة الصغار . . . فلماذا تجاهد من أجلهم ؟ . . . دعهم يموتون . . .

الفتى — فكرت فى هذا : : : حاولت أن أتركهم لحظهم . . .

قلت فى نفسى إنهم فقراء . وإنهم لو ماتوا استراحوا وما أحس بهم أحد أو أثر موتهم فى دورة الأفلاك . . . ولكنى لم أستطع . . . لم أستطع . . .

الشيخ — لماذا ؟ . . .

الفتى — لا أدرى . . . لعل السبب هو حكم الطبيعة الغاشم . . . لعل السبب أنهم من لحمى ودمى .

الشيخ — لا . . . السبب أبعد من هذا . . . أنت لم تتخل عن جهادك فى سبيل أهلك لأنهم من لحمك ودمك فقط ، بل لأنك فى صميم نفسك وبالرغم منك إنسان .

الفتى — ولماذا جعلت منى الآلهة إنساناً وفرضت على الجهاد والشقاء ؟ . . .

الشيخ — الآلهة قد اصطفتك لتكون على مثالها . . . ملأت طريقك بالعقبات لتذلل بإرادتك كل ما يعترضك وتكون شبيهاً بها . . . الآلهة لم تخلق الجمال والصحة واليسر والخير ، إلا لتحارب أنت نقيضها أى القبح والمرض والفقر والشر . فترتفع وتنافس فى بطولتك تفوق الآلهة نفسها !

الفتى — وهب أنى فعلت ؟ . . . أليس مصيرى أن أموت ؟ . . .

الشيخ — والحياة ؟ . . . الحياة بأحيائها ، أليست باقية ؟ . . .

الفتى — وهل فى وسعك أن تجزم بأن الحياة باقية ؟ . . .

الشيخ — لا . . . غير أن فى وسعى أن أجزم بأنى أنا كائن ، وأنى موجود ، وأن من الحماقة والغفلة . حتى ولو كان العالم غير باق والآلهة غير كائنة ، أن أرضى بالعدم والفراغ مثلك ولا أعيش حياتى . أنا أريد أن أقاتل المرض والفقر والشر والقبح المنتشرة حولى . هذا ما يثبت وجودى وهذا مثار فرحى . فأنا كلما بذلت وضحيت كى أخفف من آلام الناس ، شجعتهم على الحياة ، وبررت لهم وجودهم هم أيضاً ، وجعلتهم

يفرحون معى . . . وسواء لدى بعد ذلك ، أمت أم خلدت روحى ، أبقى العالم أم فنى ، فعزائى على الأقل أنى لم أعش عبثاً ، وأنى لم أخن بجودى ولم أخن رفاقى الأحياء .

الفتى — ولكنك مهما بذلت وضحيت فأنت معذب . ومهما فرحت وابتهجت فأنت معذب . ومهما قاومت القبح والمرض والفقر والشر ، فلن يكون فى مقدورك أن تقهر الموت أو تجعل الحياة كاملة .

الشيخ — ومن قال لك إن معجزة وجودنا فى هذه الحياة لا تساوى ما قدر علينا فيها من آلام وموت . الموت هو ثمن عقلنا وحريتنا ثم . من قال لك إن من حق الإنسان أن يعيش فى عالم كامل . أتريد أن تجرد الإنسان من قيمته ، ألا يكفى الإنسان مجده وهو يسعى لتحقيق ولو بعض الكمال؟ هذا المجد يخمد فى النفس كل عذاب . إن شيئاً من الخير وشيئاً من العدل وشيئاً من الجمال يقره الإنسان فى الدنيا ، لهو أخلق به وأرفع لقيمته من أن يعيش فى عالم كامل ويسبح فى صفاء كصفاء الآلهة . الصفاء هو الموت الحقيقى . وقد تكون الآلهة فى صفائها هى الميتة أما نحن البشر الذين لا نعرف الصفاء ، فنحن الآلهة بإرادتنا وكفاحنا ، ونحن وحدنا الأحياء .

الفتى — كأنك أنت الشاب وأنا الشيخ . . .

الشيخ — الشباب يظل متقداً فيك إن أنت بذلت فى سبيل غيرك ولم تتمرد على حظ العالم . العالم كان كائناً قبل أن يتكون عقلك ، وهو حر فى كينونته كما أنك أنت اليوم حر فى تكييفه بإرادتك وعقلك . وما دام فى وسع عقلك أن يقول لك إن العالم غير معقول ، فعقلك إذن كائن ، وفى وسعه أن يصب فى هذا العالم غير المعقول ، شيئاً كثيراً من المعقول يجعله محتملا . . . فافهم هذا ، وضع عقلك فى الفعل الخصيب لا فى الكبر العقيم ، تؤكد بطولتك فى الحياة وتفرح . . .

فشرد الشاب لحظة ، ثم حدق فى الشيخ ، ثم أطرق وانصرف وهو ما يزال يفكر . . .

مجدنا . . .

كل شيء فى الطبيعة يترجح : اليوم بين نهار وليل ، والفصول بين ربيع وشتاء ، والنور بين تلألؤ وانطفاء ، والبحر بين مد وجزر ، والقلب بين سكون وانفعال ، والجنس بين خصب وعقم . فكيف نطلب إلى الإنسان وهو ابن الطبيعة ألا يترجح بين شر وخير . . . ومع ذلك فإخلاص الإنسان لمبدأ مثالى بعيد ، أو انكبابه على كشف خارق وجليل ، أو عزمه على تضحية تستهين بالمال والنفس ، كل هذه روائع تجعل منه مهما ترجح وانجذب إلى الشر ، قوة تسمو على الطبيعة ، وكأنها تقول : إنى وإن أكن من صلبك ، إلا أنى بما فىّ من قدرة على الثبات على الخير فترة من عمرى بل عمرى كله أحياناً ، أقهر ترجحك الأبدى الرتيب ، وأشعر شعوراً غامراً أنى سيدك !

نحو حياة عليا

والآن نجمل ما تقدم فى كلمة شاملة فنقول :

إن طبيعة الإنسان تجمع بين عاملين : إرادة الكفاح رغبة فى التفوق على الحياة ، وإرادة التمتع باللذة رغبة فى الفرار من الحياة .

فالإنسان فى غمرة قلقه الأبدى ، لا يكاد ينزع إلى القوة حتى يجنح إلى الضعف ، ولا يكاد يطلب العمل حتى يؤثر الراحة ، ولا يكاد ينشد التفوق حتى يستهول الكفاح . وإذن فهو نهب مقسم بين حياتين : حياة عليا ينزع إليها بروحه وعقله وإرادته وكبريائه ، وحياة دنيا ينزع إليها بغريزته وخوفه وأنانيته . فأما الحياة العليا فضرب من بطولة التوسع غايته امتلاك لذة سامية وعظيمة من طريق الجرأة وتحدى الألم . وأما الحياة الدنيا فضرب من هزيمة الانكماش غايته امتلاك لذة وضيعة رخيصة

من طريق الخوف والجبن واتقاء الألم . فى دائرة الألم إذن يتقرر مصير الإنسان . والإنسان ولاريب كلما رحب بالألم واشتد احتماله له وقويت أعصابه عليه ، أحكم الصلة بين نفسه وبين الحياة العليا . وكلما تبرم بالألم وثار عليه وراغ منه ، ضاق ذرعاً بتلك الحياة المجيدة ، ففر منها ، واستحال إلى مجرد أنانية تدب وغريزة تسعى.

فالرجل الذى فى مقدوره أن يحمل عبء مسئولية كبيرة ثم يتنصل، يفر من الحياة العليا .

والرجل الذى فى مقدوره أن يجهر بفكرة صالحة ثم يخشى العاقبة ، يفر من الحياة العليا .

والرجل الذى فى مقدوره أن يخدم الغير بماله ثم يحجم ويبخل ، يفر من الحياة العليا .

والرجل الذى يفزع من مواجهة ومعالجة الحقائق القاسية ويؤثر أن ينساها ويدفنها فى الخمر أو الميسر أو النساء أو أية رذيلة ، يفر أيضاً من الحياة العليا .

هؤلاء هم ضحايا هذا الجبن المزرى . وهم إنما يخشون كل حياة عامرة مجيدة ، لفرط ما يخشون وطأة الفكر ، وعبء الحركة، وعنف الألم . ولكن أية قيمة لحياة بلا ألم ، وأية لذة فى حياة بلا خطر ، وأية عظمة فى حياة يجردها المرء من مادة الفاجعة وعنصر المأساة ؟ . . .

إن عنصر المأساة هذا هو الخليق وحده بأن يحتضنه الإنسان ليسمو ويرتفع .

فالفكر البشرى يجب أن يكون حرًّا طليقاً ليصطدم بالفكر المكبل الشائع ولو تحول فى جهاده النزيه إلى مأساة .

والكفاح الدنيوى مهما كان شاقًّا ومريراً وهو يصطدم بالعقبة ، يجب أن يثبت ولو تحول فى ثباته إلى مأساة .

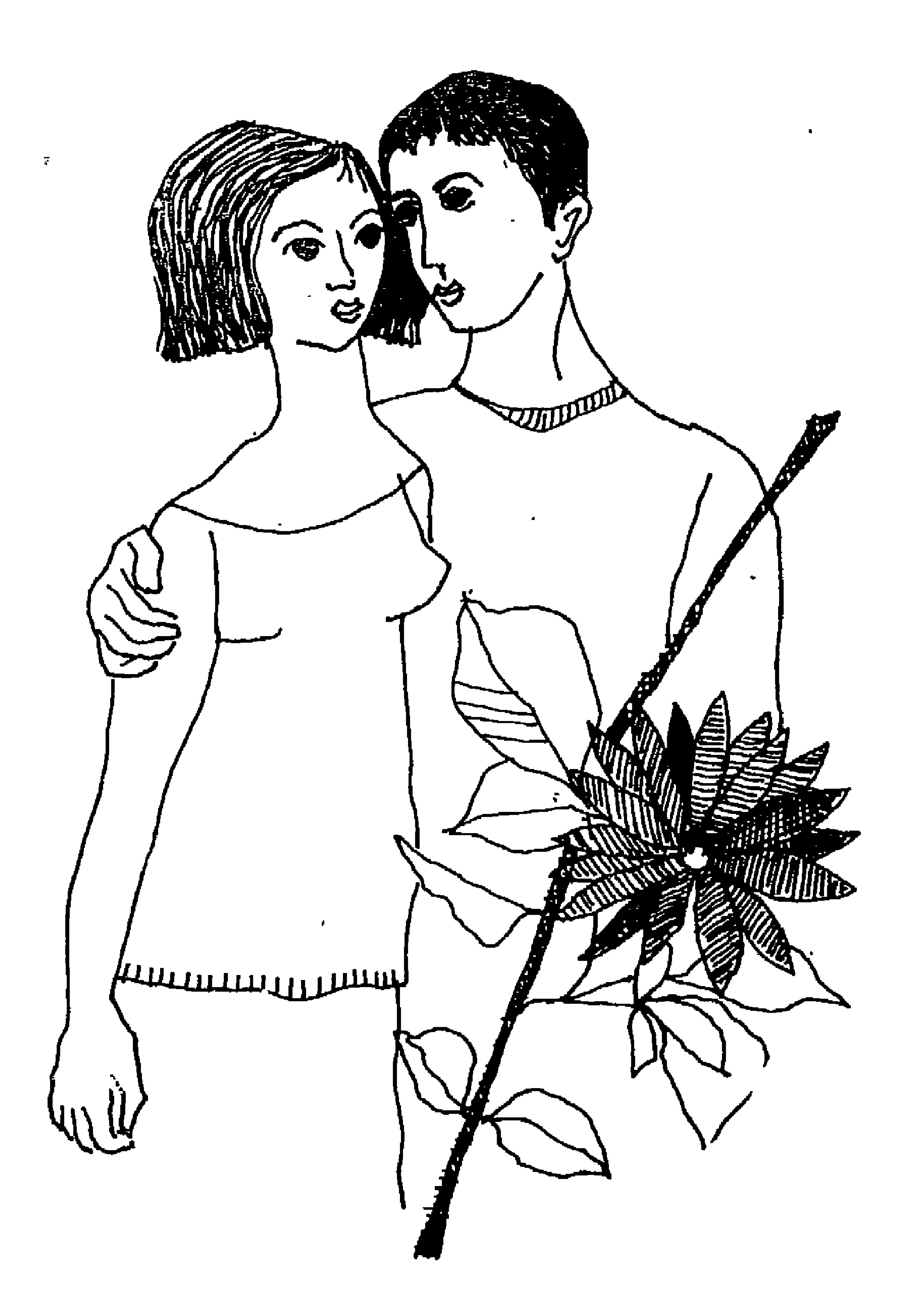
والاحتمال النفسى والبدنى مهما كان قاسياً وشديداً وهو يصطدم بالألم

الفاجع ، يجب أن يمضى فى مجالدة الألم ولو تحول فى صراعه إلى مأساة .

ذلك هو مجد الحياة : آلام نتحداها ، ومصاعب نجالدها ، وعقبات نذللها ، ومأساة نعيشها كأبطال .

ومتى ارتضينا هذه المأساة وعشناها ، عرفنا قيمتنا ، وشعرنا بسلطاننا ، وملكتنا نشوة الفرح ، وبتنا نجد السعادة لا فى الرخاوة بل فى القوة ، ولا فى النكوص بل فى الانقضاض ، ولا فى الفرار من الحياة العليا بل فى التطلع إليها ، والاتجاه نحوها ، والتمكن من تحقيقها ، بوحى الفكر ، وصولة الإرادة ، ومشيئة الإنسان .

فى قيمة الحب



الحب الصحيح

الحب الصحيح هو دفاع عن النفس ضد انحطاط النفس ، وضد الأباطيل المادية التى يستمسك بها الناس .

نشيد الحياة

إن أروع ما فى الحب هو أنه يلهب دفعة واحدة كل قوى الإنسان . فالمحب يفكر فى محبوبه بعقله ، ويحن إليه بقلبه ، ويطلب الاندماج فيه بجسده . فقوى العقل والقلب والجسد تشترك جميعاً فى إبداع نشيد الحياة .

روحانية الحب

بيد أن شهوة الجسد قد تكون هى وحدها غاية الحب ، فيطغى الجسد على القلب والعقل ، ويشوش أنغام النشيد ، ويهوى بالإنسان إلى درك الحيوان .

ومع ذلك ومهما انحدر الإنسان وهوى ، وانغمس فى بؤرة الجسد زاعماً أنه يحب ، فهذا الحب الشهوى لايمكن أن ينقع غلته ، ولا يمكن إلا أن يشعره باشمئزاز من نفسه ، وتقزز من جسده ، وفراغ مروع يضرب رواقه على قلبه ووجدانه وعواطفه . ذلك لأن الشهوة شىء والحب العاطفى شىء آخر.

فما السر إذن فى أننا لا نعتبر الاشتهاء المجرد حبًّا ، ولا نفتأ نتطلع إلى الحب العاطفى ونفرق بينه وبين العلاقات الشهوية ، ونحس شيئاً من المرارة والأسى إذا انقضت أيام شبابنا دون أن نعرف ذلك الحب العاطفى الأسمى ؟ . . .

الواقع الملاحظ أن الرجل متى أحب حقًّا لم يكتف بإشباع رغباته

الحسية ، بل اندفع وتسامى وجعل ينشد العاطفة لقلبه وروحه ، أسعد ما يكون بالبذل والتضحية فى سبيل من يحب . وكذلك المرأة ، وهى المخلوق الغريزى العملى ، لا تكاد تشعر بحب صادق حتى تضع العاطفة فوق المتعة . فتنكر ذاتها ، وتنكر نزعاتها النفعية ، وكثيراً ما تذهب إلى حد التقشف والتخشن إرضاء لمن تهوى .

فلماذا ينشد الإنسان العاطفة فى الحب ، ولماذا يطلب قلباً يخاطب قلبه ، وروحاً تستجيب إليها روحه ؟

مادة وروح

أعتقد أن الإنسان مادة وروح ، وأنه أسير فى سجن جسده ، ونزاع إلى التحرر من قيد حواسه ، وأن بذرة الحب العاطفى الروحى هى بذرة مقدسة كامنة فينا جميعاً برغم عنف الشهوات التى تضطرم بها أجسادنا .

وقد يبدل المزاج الفردى من أشكال الحب، ولكنه لا يؤثر فى نزعته العاطفية الروحية العميقة ولا يمكن أن يبددها .

وإذن فما السر فى هذا ، ولماذا لم يستطع العقل المثقف النابه ، والاتجاهات العلمية السائدة ، والحضارة المادية الجارفة ، أن تستأصل من الحب تلك النزعة العاطفية الروحية وتأتى عليها ؟ . . .

يلوح لى أن الأصل فى الحب شعور دينى متأصل فى النفس البشرية ؛ شعور يدفع بالفرد إلى التسامى بشهوته ، والتفوق على فطرته ، والاندماج فى شخص آخر اندماجاً أساسه الأنانية وإنكار الذات معاً ، التملك والتضحية معاً ، الموت والبعث والخلود معاً ، كذلك الاندماج الذى يحدث بين الصوفى وربه . . .

فالصوفى يود أن يستأثر بالله لينقطع لعبادته ويهبه حياته . والمحب يود أن يستأثر بحبيبه لينقطع لعبادته ويهبه حياته . إن كل محب يقول

لحبوبه إنى أعبدك . فالحب الصحيح تمازجه العبادة ، وهو فى جوهره شعور دينى يصبو إلى تحقيق تفاهم مطلق مستمد من مثل أعلى فى سعادة قائمة على الخير والصفاء والجمال والكمال ، أى مستمد من الغايات العظيمة التى هى رمز فكرة الله فى عقول الناس ، والنور الذى يتوجهون إليه فى ظلمات حياتهم .

بين الأرض والسماء

فالحب العاطفى الروحى هو الذى يرتفع بالإنسان ، وهو لن يموت إلا إذا مات الشعور الدينى فى القلب والوجدان . والشعور الدينى لن يموت مادام الإنسان يجهل مصيره . ولهذا سيظل الإنسان يقول لمن يحب « إنى أعبدك » . وسيظل فى صراع بين حب الجسد الذى يجذبه إلى الأرض . وبين حب العاطفة والروح الذى يجذبه إلى السماء . وهو حتى لو فشل فى تغليب الروح على الجسد ، فسيبقى صراعه على مر السنين عنواناً خالداً على عظمته ، وعلى طموحه فى حياته الوجدانية إلى تحقيق مثل أعلى ينحدر إليه من صرح الألوهية التى ماتنفك أنظاره ، برغم حدتها وذكائها وكبرها ، تتطلع أبداً إليها !

هل الحب أعمى ؟ ..

يردد الكثيرون منذ القدم أن الحب أعمى . فهل هذا صحيح ؟ . . .

أنا أعتقد أن الحب لم يكن أبداً أعمى ، وأن القوة الخفية التى تجذب إنساناً إلى آخر هى العمياء . أما الحب نفسه فبصير ، بل مشرق البصيرة إلى حد يثير الدهش . فالرجل مثلا ينجذب إلى امرأة وهو لايعلم على وجه التحقيق لماذا انجذب إلى هذه المرأة بالذات . وقد يكون مبعث الجاذبية فيها نقصاً فى الرجل تكمله هى ، أو صورة خيالية فى ذهنه يخلعها عليها ، أو نزعة عنيفة فى نفسه يرى المرأة تستجيب لها ، أولمحة فى بدنها تخلبه ،

أو مجرد نظرة تسددها إليه ويحس أن فيها أمله وخلاصه وسعادته .

فتوافر بعض هذه العوامل أو واحد منها ، هو القوة الخفية العمياء التي تخلق الحب ، والتي تجذب رجلا إلى امرأة معينة ، والتي يحار الرجل نفسه في فهمها وتعليلها لفرط شعوره بسلطانها المباغت عليه . وهذا ما يفسر لنا انجذاب رجل جميل إلى امرأة نراها نحن دميمة ، أو رجل طيب إلى امرأة نقول نحن عنها إنها شريرة ، أو رجل مثقف إلى امرأة نشمئز نحن من جهلها وخمولها وعقلها الضيق العنيد . بيد أننا لا يجب أن ندهش . فهذه المرأة كائنة ما كانت صفاتها ، تمثل في نظر الرجل المنجذب إليها ذلك الإنسان الذي طالما تلهف عليه كي يكمل نقصه ، أو تلك الصورة المثالية التي طالما احتلت ذهنه وألهبت خياله ، أو تلك الاستجابة الحسية أو المعنوية التي ظل يبحث عنها السنين الطوال على غير جدوى . لهذا أحب ذلك الرجل تلك المرأة . أي أنه أحبها لشيء معين في شخصها وروحها أثار في نفسه أحلامه هو ، وتصوراته هو ، ورغباته هو ، وجعله يعتقد تحت تأثير ذلك الشيء المعين الغامض أن تلك المرأة هي ضالته المنشودة وأمله المبتغى .

فالقوة الغاشمة العمياء التي تخلق الحب ، تنبع في الواقع من خيال الرجل ، ومن طابع مزاجه ، ومن أحلام صباه ، ومن كل ما احتشد في كيانه من مشتهيات حسية ومعنوية ، مختلطة ومشوشة ، لا يعرف سرها . فيندفع تحت تأثيرها إلى حب تلك المرأة وهو معصوب العينين أعمى . . . ولكن التحول العجيب في نفس الرجل يحدث هنا . فهو لا يكاد يتصل بالمرأة التي أحبها ، ويمضي في حبها ، حتى تسقط الغشاوة فجأة عن عينيه ، ويصبح حبه الأعمى بصيراً ومشرقاً بل متنبهاً كل التنبه لا إلى محاسن محبوبته فقط ، بل إلى أبسط وأيسر نقيصة يراها في شخصها المعبود الذي كان يعتبره مثلا أعلى . وعندئذ تبدأ المأساة . فالمحب الذي كان بالأمس أعمى ، ينقلب إلى إنسان متيقظ يرى نقائص محبوبته أوضح وأبرز

مما يراها الآخرون ألف مرة . ولكن الغريب فى أمره أنه وهو يلحظها ، وينعم النظرفى أخلاقها ، ويرى بعين قلبه الثاقبة شتى مساوئها ، لا يستطيع إلا أن يمضى فى حبها حتى ولو تبين له أنها شيطان ... فهو يرى ومع ذلك يحب ، وينفر ومع ذلك يحب ، ويشمئز ومع ذلك يحب . وحرصه على خياله الرائع القديم يدفعه إلى الإمعان فى مراقبة محبوبته ، والإمعان فى تسجيل نقائصها ، والإمعان فى محاسبتها عليها ؛ عساه أن يردها إلى حلمه القديم ، ويحقق فيها برغم خيبة الواقع ذلك الخيال الجميل الذى أحبها من أجله . . . فالجاذبية الأولى تبقى فى نفس المحب ، وقوة الحب الغاشمة تظل مسيطرة عليه، ولكن هذه السيطرة المستبدة لا تمنعه من رؤية محبوبته على حقيقتها . فتراه يرضى منها آخر الأمر بكل شىء ويحتمل منها كل شىء ، ويمضى فى حبها حتى ولو كان يعلم علم اليقين أنها غادرة وخائنة ، وأنه فى سبيل الاحتفاظ بها يذل نفسه ، ويهدر كرامته ، ويتدهور شيئاً فشيئاً وينحط . . .

فعين المحب إذن ليست عمياء . إنها ترى كل شىء وتغفر كل شىء وتحتمل كل شىء ، مادامت واقعة تحت تأثير تلك الجاذبية الغاشمة الأولى . فإذا فترت حدة هذه الجاذبية وتقلصت بفعل الزمن ، ضاق المحب ذرعاً بنقائص محبوبته ، وعز عليه أن يهدر كرامته وينحط فى سبيل مخلوق لم يعد جديراً بحلمه . فيزدرى هذا المخلوق وتعافه نفسه . وعندئذ فقط يموت الحب .

وما يسرى على الرجل فى كل ما تقدم يسرى على المرأة سواء بسواء . فهى أيضاً تحب وتبصر ، وتحب وتحتمل، وتحب وتستهدف وهى تحب لفقدان كل عزة وكل كرامة وكل كبرياء .

الفترة المرهوبة

فكيف يتخلص الإنسان من تلك الفترة المرهوبة التى يشعر فيها أنه

قد عرف محبوبه على حقيقته ، وأنه ما يزال فى الوقت نفسه منجذباً إليه ، يتعذب بحقيقته الشائنة المروعة . ويقبلها مع ذلك مكرهاً وهو يشعر أنه يتدهور وينحط .

لاينقذ الإنسان فى تلك الفترة غير أخلاقه ، وحياته الروحية ، وحافز من المبادئ المثالية الثابتة خلفتها فى نفسه تربية قويمة . فالإنسان القوى بخلقه وحياته الروحية ومبادئه ، يستطيع وهو واقع تحت جاذبية الحب ومبصر نقائص ومساوئ من يحب ، أن يقاوم تلك الجاذبية ، ويقاوم الأثر السيئ الذى تحدثه فى نفسه نقائص محبوبه ، بحيث لايقبلها إذا كانت منحرفة وصارخة ومشينة ، بل يثور عليها ، ويضحى بمحبوبه المستغرق فيها ، قبل أن يجرفه هو تيار الحب ، فيتدهور ويرضى بالمذلة والهوان والعار .

وإذن فجاذبية الحب عمياء ، أما الحب نفسه فمبصر . ولكن الخطر الكامن فيه هو أنه يبصر النقائص ويقبلها ويحتملها مهما كانت وضيعة ومخزية . ولذلك يجب أن يحرص المحب كل الحرص ، رجلاكان أم امرأة ، على متانة خلقه وسمو مبادئه ، ونظافة فكره وروحه ، كى يظل وهو مبصر العين ، قوى الإرادة والعزيمة أيضاً ، فى وسعه أن يسحق حبه بيده إذا تبين له أن محبوبه يوشك بنقائصه المروعة أن يلوثه وينحط به ويهلكه .

فوق الطبقات

ما يزال معظم أرباب الأسر الكبيرة عندنا يعتقدون أن زواج الحب جنون وعار . وهذا الاعتقاد لا يرجع فى جوهره إلى شعور باستنكار الحب فى ذاته ، بل إلى استنكار النتائج الاجتماعية المادية التى تترتب عليه . والواقع أن من مميزات الحب عدم الاحتفال بالفوارق الاجتماعية . وعدم الاكتراث لتوافق المركز والثروة . وهذا ما يستنكره أرباب الأسر

الكبيرة من المحافظين . إذ هم لو سلموا بقانون الحب لاضطروا إلى التضحية بقانون المصلحة والتسليم باختلاط الطبقات وديمقراطية الحياة العامة . فالحب فى نظرهم جنون وعار لأنه قد ينزل بالفرد عن مركزه الاجتماعى ، ويدفعه إلى مصاهرة أسرة دون أسرته حسباً وجاهاً وثروة . وهذه النظرة فى صميمها نظرة بورجوازية أو اقطاعية تكره العواطف وتضحى بها . ولا تتعلق إلا بتقاليد الطبقة ونفوذها فى الحياة الاجتماعية . ولكن الحب عدو الامتيازات الطبقية ، لأنه عدو الاستبداد ووليد الفطرة السمحة الحرة .

رغبة مبدعة

الحب يشبه الفن ، والمحب يشبه الفنان . وكما أن الفنان المتبرم بشقاء الدنيا يأبى إلا أن يفر منها ليحقق حلم السعادة والجمال فى عمل فنى كامل فذ ، كذلك المحب المتبرم بوحشة الدنيا يأبى إلا أن يفر منها ليحقق الحب فى علاقة سعيدة أو فى زواج موفق فذ . فالحب الصحيح والفن الأصيل كلاهما رغبة إنسانية عميقة تنزع إلى إبداع مثل معنوى أعلى . وهذه الرغبة مستقرة فى نفس الجاهل والمتعلم ، والغنى والفقير . ولذلك يمكننا أن نقول إن بذرتها راسخة فى تربتنا البشرية ، وإن فى كل واحد منا تكمن روح عاشق وشخصية فنان .

الحب والموسيقى

الحب هو الذى ابتدع الموسيقى ، بل هو الذى علم الموسيقى للحيوان . والطيور كلما أحبت تفننت فى تغريدها . وكثيراً ما نرى الطائر الذكر الذى انفصلت عنه أنثاه ، يغرد جاهداً ليدعوها ، ثم يموت وهو ينشد نشيد حرمان ويأس ووداع !

إخلاص لشخص واحد

الحب عاطفة قاهرة تتطلب منا توديع مناعم الحياة الظاهرة ، واحتقار متاعها الباطل ، وحصر هذا المتاع فى امتلاك ورفقة مخلوق معين . نخلص له وحده ، ونرى من خلال شخصه الرائع صفوة جمال ومتاع هذه الدنيا . فالذى يهوى التلون والتقلب وانتهاب فرص اللذة لا يستطيع أن يعرف الحب لأن اللذة كبر وطمع وأنانية . أما الحب فتواضع وقناعة وتضحية . لهذا لا يثبت على الحب الصحيح غير كل من سمت نفسه ، وعاف التقلب والتلون ، وكان فى خلقه وروحه من الثابتين المكتفين الأقوياء .

قربان الحب

الحب يبدلنا فجأة ، ويشعل فى صدورنا حوافز البطولة والجهاد .

فإذا كنا فقراء لم تروعنا الفاقة ، بل هزأنا بالبؤس وتحدينا القدر .

وإذا كنا بلهاء ، تفتقت أذهاننا واضطرمت فيها شعلة الفكر .

وإذا كنا كسالى ، سرى الدم الحار فى عروقنا ، وأقبلنا على العمل بعزم الجبابرة .

وهكذا نؤكد بالحب وجودنا ، ونؤكد استحقاقنا للحياة ، ونرفع قربان العمل والجهاد إلى هيكل محبوبنا وهيكل الحياة .

ألوان الحب

بعضنا يحب بخياله وفكره فقط ، وبعضنا الآخر يحب بقلبه وعواطفه فقط ، والسواد الأعظم يحب بحواسه وغريزته فقط . أما الحب الكامل الذى تلتقى فيه جميع هذه القوى ، فشىء رائع ونادر . وهذا هو السر فى تهالك الناس عليه منذ الأبد .

المحبون السعداء

المحب السعيد ينسي وجود الموت ، بل يؤمن فى ذات نفسه إيماناً غريباً بأنه قد خلد حقاً ، وأن فردوسه ابتدأ من هذه الأرض . لهذا يمرح المحبون السعداء فى هذه الدنيا كأنما هى قد خلقت لهم وحدهم ، وكأن لافقر فيها ولا مرض ولا موت . ونحن نستخف بهم بل نسخر منهم . ولكننا فى الحقيقة نحسدهم ، ونتمنى لو نصبح مثلهم . مخلوقات أثيرية مجنحة عرفت كيف تقهر دمامة الحياة ، وتخلقها خلقاً جديداً ، وتبسط عليها سلطان الخيال والجمال والشعر .

وجه الحب

. . . وبرغم السعادة التى يشعر بها المحبون ، فوجه الحب كثيراً ما يبدو عابساً ، متجهماً ، لايعرف الابتسام ولا الضحك بل الصراخ والخوف والبكاء . فالعاشق قد يبكى مستجدياً ، ثم يصرخ غيرة ، ثم يرتعد فرقاً من الهجر والإذلال والفراغ . وهكذا الحب قد يتقلب فى جو مأساة . ولكن هذه المأساة هى التى تنقذ الإنسان من رتابة حياته ، وتجدد الكون فى عينه ، وتضاعف فيه قوى الصراع ، وتشعره بأن عقله وقلبه وحواسه قد امتلأت بالتجارب يوم يخرج من مأساة حبه مترنحاً وذاهلا ومثخناً بالجراح .

الحب والخيال

كل إنسان ، رجلا كان أم امرأة ، لايتلهف فقط عندما يحب على هبة نفسه وحياته لمحبوبه بل يريد فى الوقت ذاته أن يجعل من محبوبه مخلوقاً جديراً بهذه الهبة . لذلك يضفى عليه كل رائع من مولدات خياله ، ويتصور الكمال المعنوى المطلق فى شخصه ، ويبدع منه مثلا خارقاً

أعلى . فإذا ما اتصل به ولمس فى حياته اليومية أى نقص أسرع وقارن بين الخيال العظيم والواقع المرير . فعز عليه تقلص خياله ، وأبى إلا أن يظل محبوبه عند مثله الأعلى . وعندئذ تراه يعذب المحبوب عذاباً دائباً : ويقف له بالمرصاد متنبهاً متحفزاً ، ويحاسبه على أبسط هفواته ؛ ويطلب منه الكثير فى حين أن الحياة لاتعطى غير القليل . وهكذا يشعر المحبوب أن محبه لايطيق منه أن يكون إنساناً فيه ضعف بشرى ونقص فطرى . فيثور على ظلم هذا المحب وتعصبه وجنونه ، ويقول له إنه هو نفسه ناقص وضعيف . ولكن المحب لايفهم بل يمعن فى غيه ، ويطلب المستحيل من محبوبه . فيخنق فى المحبوب حبه وأمله وحلمه ، ويقتله كإنسان لأنه أراد أن يجعل منه شبه إله .

الحب والحرية

إذا كان الحب يدفع إلى الإيثار ويغرى بالتضحية ، فهو فى الوقت نفسه قد ينزع إلى الأنانية والحيازة والاستبداد .

ومن المحبين من يحمل فى أعماق ذاته شخصية طاغية مستبد ، ينكر على محبوبه حقه فى الاستقلال ، وحقه فى الحياة ، وحقه فى الحرية بوصفه إنساناً له عقل وفكر وكرامة وإحساس .

بيد أن كراهية الحب للحرية هى اللعنة المسلطة على مستقبل المحبين وراحتهم . هى التى تولد الغيرة الطائشة ، والقسوة الطاغية ، والثورة الهادمة ، وما تزال بالحب ترهقه وتعذبه حتى يموت آخر الأمر لعجزه عن الجمع بين ضرورة إنكار الذات والتضحية ، وبين ضرورة التمتع المشروع بنعمة الحرية .

وليس هذا فى الحق بغريب . فالحرية أصيلة فينا ، أما الحب فحلم رائع من أحلامنا ؛ لايمكن أن يتحقق ولا يمكن أن يدوم إذا هو اعترض ، بالتوجس الدائم والغيرة الظالمة ، حق الحرية المتأصل فى جوهر طبيعتنا .

فإذا شئنا السعادة فى الحب ، فعلينا أن نعترف بقسط من الحرية وافر مشروع للشخص الذى نحب . علينا بعد امتحانه أن نثق فيه . فلا نطغى عليه بهواجسنا وشكوكنا ، ولا نحاول أن نمحو شخصيته المستقلة ونخضعه لمطلق إرادتنا ، ونسومه الخسف والذل والهوان بدعوى أننا نحبه وأنه يحبنا .

وهكذا نلطف من أنانيتنا ، ونكبح من غيرتنا ، ونتخلص من كبرنا وطغياننا . فيتطور الحب من عاطفة مستبدة غاشمة إلى عاطفة مهذبة عميقة ، تجمع بين شخصين متساويين فى واجب الإيثار والوفاء ، لأنهما متساويان فى حق الحياة والكرامة والحرية .

الثقة أيضاً . . .

إن أنت لم تثق فى محبوبك وتؤمن بشرفه ، استحال عليك المضى فى حبه والاطمئنان إليه . وهو إن لم يثق فيك ويؤمن بشرفك . تعذر عليه أن يبادلك ثقة بثقة وشرفاً بشرف . فيجب أن يؤمن كل منكما بشرف الآخر كما يؤمن الرجل بمبدأ اعتنقه وثبت عليه . وقد يحدث أن يشك هذا الرجل فى مبدئه . ولكن تأصله العميق فى نفسه ، يدفعه إلى التشبث به جهد المستطاع قبل أن يسلم بفساده . كذلك المحب يجب أن يتشبث طويلا بعقيدته فى شرف محبوبه قبل أن يسلم بأن شرف هذا المحبوب كان حقاً زائفاً .

اختلاف وائتلاف

اللحظات التى يحس فيها شخصان أن كلا منهما يختلف فى شىء عن الآخر أو يمتاز بشىء عن الآخر ، ثم يسلم كل منهما بما فى الآخر من تمايز واختلاف ، هذه اللحظات هى التى قد تجمع بينهما فى صداقة وثيقة أو فى حب عميق . ذلك لأن ما يفصل يمكن أن يجمع ، وما يكون

نقيضاً هو الذى يجذب إلى النقيض .

حبك يشبهك . . .

إن حبك يشبهك تماماً ، وكيفما تكن يكن حبك . فإذا كنت صادقاً ووفيًّا وشهماً ، تغذى حبك من أخلاقك ، فرفعك فى عين نفسك حتى لو خدعك محبوبك وأشقاك . أما إذا كنت أنانيًّا أو منافقاً ، أو مستبدًّا ، فأخلاقك لا بد أن تنحط بك ، فتلوث حبك ، وتنغص حياتك ، حتى لو أخلص لك محبوبك وحاول جهده أن يسعدك .

فنحن الذين بأخلاقنا نقتل الحب أو نحييه ، نسعد به أو نشقى أبد الدهر . فأخلاقنا هى خلاصة شخصيتنا ، وهى لا بد أن تؤثر فى حبنا الذى هو جزء لا يتجزأ من شخصيتنا . فإذا أبغضك حبيبك فلا تتهمه ، بل اتهم قبل كل شىء أخلاقك أنت .

خداع الحب

قد تحب إنساناً وأنت تريد فى الواقع أن تلتهم حياته على حين تعتقد اعتقاداً راسخاً أنك تريد أن تهبه حياتك .

وقد تحب إنساناً لا لأنك تريد أن تسعده ، بل لأنك تريد أن تهرب من نفسك فيه ، أى من فراغ عاطفى يضنيك ، أو عذاب نفسى شديد الوطأة عليك .

فاحذر خداع الحب ، ولا تقتحم بالحب حياة إنسان إلا وأنت واثق من أنه هو غايتك ، وأنك فى حبه منزه عن الغرض والأنانية .

الحب الأسمى

لا تقل أبداً لمخلوق إنك تحبه إذا لم يكن فى وسعك أن تشاركه حمل قدره ، وتعاونه على توكيد شخصيته ، وتمده كلما استطعت بنفحة

من حنان يصبو إليها ، أو عون عاجل يحتاج له ، أو حافز من قوة ينقصه فى ساعاته المريرة ويمكن أن يقاوم به اليأس أو المرض أو الموت . هذه هى قيمة الحب النزية الأسمى .

الهارب من الحب

نحن فى الشرق نخاف الحب ، وفى الوقت نفسه نحتقره ونقول فيه كلمتنا المشهورة : « الحب بهدلة . . . » . ذلك لأن العواطف الكبيرة التى يلهبها الحب ، ترهق منا الفكر والعصب ، وقل أن نستطيع حملها ، ولاسيما أن المجتمع من حولنا لا يفتأ يسخر بمثل تلك العواطف ويتخذ من صاحبها هزأة وضحكة .

فلكى نأمن شر هذه « البهدلة » ، نفاخر بأننا عقلاء ، وأن العقل يقتضينا أن نجعل من الحب لعبة ، وأن نتبع اللذة لا الحب .

وهكذا الفرد منا ، المعتز بعقله ومكانته ، لو هاجمه الحب ، يرتعد خوفاً من « البهدلة » ، ويطرح عنه الحب ويهرع إلى اللذة ، ثم يبتهج ويردد أنه « شاطر » ، وأنه قوى ، وأن الحب لم يسلبه من نفسه ، فى حين أنه هو يكون قد جرد نفسه من أثمن وأخصب مشاعر القلب أى التعاطف والتآلف والحنان والوفاء والبذل ، ويكون قد فر أيضاً من حومة الصراع الذى لا بد أن يلهبه الحب ، الصراع بين الأمل واليأس ، بين الطمأنينة والخوف ، بين الثقة والغيرة ، بين الجسد والروح ، بين الفرح والألم ، هذا الصراع الذى يمثل حركة وجود المحب كإنسان ، والذى فيه نشوة الامتلاء الوجدانى ومتعة الحياة .

أدنى مراتب الحب

هناك حب هو أدنى مراتب الحب ، وهو شائع عند طائفة كبيرة من رجالنا ، حب يؤخذ بالجسد فقط ، ولا يشتعل إلا بنار الجسد فقط . فإذا تمكن

هذا الحب من أولئك الرجال وأحسوا أنه ينهك أبدانهم ويمتص عصارتهم وأن ناره المتأججة توشك أن تخبو . ثارت كبرياؤهم ، وهالهم من رجولتهم عجزها المباغت المخزى . فأسرعوا ولاذوا بالمخدرات والمغيبات وشتى العقاقير . يلهبون بها تلك النار . ويلتمسون منها قوة ترد إليهم اعتبارهم فى نظر أنفسهم . وفى نظر المرأة التى يرتعدون فرقاً من تصور احتقارها الصامت . واحتمال انصرافها يوماً عنهم . وعندئذ تراهم وقد انقلب حبهم إلى ضرب من الهوس الشهوى : يغرقون فى استخدام تلك المخدرات والعقاقير . فتعصف بهم « النورستانيا » الجنسية . فنشهد نحن فيهم ذلك السهوم الذهنى ، والتبلد العقلى ، والتهافت العصبى ، والعجز الصارخ عن النهوض بأى عمل كبير ، بل عن مزاولة العمل اليومى فى نشاط وجلد .

وهذا هو الانتحار البطىء الذى يحكم به على نفسه كل رجل يفقد سلطانه على عقله ، ويهدر بإسفافه الحسى كرامة إنسانيته ، ويهوى بالحب ، ويجعل منه رابطة تشد حيواناً إلى حيوان .

لكى لا تكون عبداً للجسد

كلما كان الإنسان فقير العقل محدود أفق الخيال ، كان أقرب إلى الفطرة فى حبه وأوثق صلة بالغريزة الجنسية. وكلما كان مستنير الفكر موفور الثقافة ، واسع أفق الخيال ، كان أكثر استعداداً للحب العاطفى وأقرب إلى اعتبار الحب علاقة لا تربط بين جسدين إلا لتؤلف بين قلبين وعقلين وروحين فى عالم معنوى رائع . فالفكر يهذب الغريزة ويؤثر فى الجسد ، كما أن انعدام الثقافة والفكر يطلق الغريزة من عقالها ويجعل الإنسان عبداً للجسد .

عداء . .

إذا جمعت الشهوة الجنسية وحدها بين رجل وامرأة ، فكل منهما

لايكاد يستمتع بها حتى يرتد إلى أنانيته ، وينفصل عن صاحبه كأنه غريب عنه ، بل كأن عداء مستحكماً كان بينه وبين صاحبه فثأر لنفسه باللذة التى انتزعها منه .

وإذن فالقلب فى الحب هو الذى يجمع ، أما الشهوة الجنسية وحدها فكثيراً ما تفرق .

القوى العليا

إذا أحببت امرأة بالجسد فقط فأنت تنشد غرضاً وضيعاً واحداً . إذن فأنت ضعيف وفقير . أما إذا كنت تحب امرأة بقلبك أيضاً فأنت عظيم وقوى وثرى . ذلك لأن حب القلب ينبع من جميع القوى العليا الكامنة فى نفس الإنسان . ينبع من روحه الظامئة إلى اللانهاية ، ومن ضميره الحى الذى يفرض عليه الوفاء ، ومن طيبته التى تعلمه معنى الرأفة بالضعيف ، ومن غيرته النبيلة التى تهون عليه كل تضحية لإسعاد من يحب .

هبة وتقدير

الرجل فى الحب ينشد لذة الكفاح لينعم بلذة النصر ، والمرأة فى الحب تنشد لذة التسليم لتنعم بلذة التقدير . فإذا ذهبت نشوة النصر بلب الرجل ولم يقدر هبة المرأة ، ثارت المرأة منه بالكيد والدهاء والحيلة كما يثأر الضعيف المهزوم من طاغية مستبد .

أقوى حب

أقوى حب وأبقاه وأمتعه ، هو ذلك الحب المحروم ، ذلك الحب الصامت اليائس المستوحش الذى يرسل أروع الصرخات وأعذب الأنغام ، والذى يشبه طائراً يغنى طول حياته بمفرده . . .

المرأة والحب

متى أحبت المرأة حبًّا صادقًا ، تهذبت وسمت ، واستحال عليها أن تتصور نفسها ملكًا لغير الرجل الذى تحب . فلا العواطف ولا المال ولا أروع مفاتن الترف يمكن أن تؤثر فيها وتدفعها إلى خيانة حبيبها . فالحب يكسبها مناعة عجيبة تتكسر حيالها مختلف وسائل الإغراء . وهذه المناعة هى كبرى فضائل الحب عند المرأة ، وهى التى تميزها من الرجل ، إذ الرجل فى الغالب أنانى وشهوانى . وهو قد يخون وإن كان يحب .أما المرأة التى تحب حقًّا فتعتبر الخيانة نذالة ، وترى فى الوفاء الخالص رمز الكرامة وعنوان الشرف .

قلب المرأة

لا تستطيع المرأة أن تعيش بلا حب . وهى إذا لم تحب الرجل ، أحبت الطفل ، أو أحبت المال ، أو انطوت على نفسها ، وصلّت وصامت وأحبت الله . . . .

ما تنشده المرأة

المرأة لا تحب إلا لتهب حبيبها القوة أو تستمد منه القوة . فهى تحب الرجل التاعس الشقى المعذب لتعزيه وتشجعه وتنفث فيه الحياة . وهى تحب الرجل المسيطر المتفوق لتزداد به قوة ومكانة . أما الرجل العادى أو المتوسط ، فقد يروقها منه اعتداله ، ولكنها لن تحبه بجُمع نفسها أبداً .

ملاك أو شيطان

المرأة لا تتبذل أبداً متى أحبت . ولكن إرادة التبذل عند المرأة التى تحب هى انعكاس لرغبة الرجل الذى يحبها . فإذا كان الرجل مستهتراً

ووضيعاً ونزاعاً إلى التبذل فى العلاقة الجنسية وفى الحياة ، فالمرأة تطيعه أول الأمر لتجذبه وترضيه ، ثم يخلبها سلطانها عليه ، فتتقد غرائزها ، فتتبذل أيضاً لسواه . فالمرأة عبقرية فى المحاكاة والتقليد . فإذا جعلت هدفك فى حبها منذ بدء غرامك هدفاً معنوياً سامياً ، تأثرت هى بك ، ثم أشربت نفسها هواك ، ثم نازعتك فى النهاية سلطانك وتفوقت فى سمو العواطف عليك . فأنت الذى فى مقدورك أن تلهب غرائزها وتجعل منها شيطاناً فتستحيل بين ذراعيها إلى حيوان ، أو تلهب قلبها وروحها وتجعل منها ملاكاً ، فتستحيل بين ذراعيها إلى نصف إله .

غايتها الوفاء

إذا أحبت المرأة حقاً فهى تؤثر أن ترى حبيبها ميتاً على أن تراه خائناً . وهذا يدل على أن المرأة أشد تعلقاً من الرجل بفضيلة الوفاء ، وأنها مهما أحبت بقلبها وحواسها فهى لا تستطيع أن تنسى فى الحب كرامتها وكبرياءها .

تضحيات المرأة

على قدر حب المرأة يكون انتقامها . إذ المرأة لا تحب إلا فى سبيل غامر من التضحيات ، فكل تضحية تبذلها ، تضاعف فى قلبها الحب ، وتضاعف فى نفسها عند الخيانة شعور السخط وعاطفة الانتقام . فلا تتورط فى علاقة مع امرأة تحبك إلا إذا كنت واثقاً من أنك أنت أيضاً تحبها وفى نيتك أن تخلص لها . وإلا فاعلم أن كل ما تبذله هذه المرأة من أجلك هو قيد فى عنقك ، وفضل محسوب عليك ، يوم تفكر أنت فى الخيانة ، وتفكر هى فى الانتقام .

نقيض وشبيه

المرأة تريد الرجل نقيضًا لها وشبيهًا بها . تريده قويًا وضعيفًا معًا . فيه المتانة الخلقية التى تنقصها . وفيه رقة العواطف التى تمتاز هى بها . وهكذا تشعر أنه بخلقه المتين يكمل نقصها ، وبرقة عواطفه يستطيع أن يستجيب إلى طبيعتها .

نعمة حياتها . .

الرجل عندما يحب يتجهم ويعبس ويحزن ، ويثير فيمن حوله الضجر . أما المرأة التى تحب فتبدو فى سعادتها الغامرة ساحرة ورائعة . ذلك لأن الحب يشطر حياة الرجل ويوزعها بين دعوة العواطف وواجب العمل والجهاد والرغبة فى الامتياز والتفوق. أما المرأة ــ حتى لوكانت عاملة ــ فالعمل لا يستغرقها ، بل تظل وهى تعمل مندمجة فى حبها ، فتحس أن الحب يوحد كيانها ، ويتم عليها نعمة حياتها . ويشعرها شعوراً كاملاً بامتلاء شخصيتها . فالحب عند الرجل مأساة وعند المرأة نشوة .

القرب والبعد

الرجل يفكر ويتخيل ، ولذلك يشتد حبه على البُعد ويضعف على القرب . أما المرأة فالقرب هو الذى ينعش عواطفها ، لأن القيمة عندها فى الواقع المحسوس لا فى الخيال المحجب المتوارى .

عذاب . . وأحلام

إذا خابت المرأة فى الحب فهى تتعذب أكثر من الرجل . إذ من السهل على الرجل أن يتصل بعدة نساء وأن يختار منهن واحدة يقوم معها بتجربة حب جديدة . أما المرأة فالمجتمع يراقبها ، ومن الصعب عليها

أن تغامر بكرامتها وسمعتها وتتنقل من رجل إلى رجل . وهكذا تتشبث بالرجل الذى خانها وتتعذب ، وقد تظل تحتمل وتتعذب أملاً فى استرداده ، وهى تعلم أن هذا الأمل حلم من الأحلام .

المرأة وكرامة الجسد

الغانية لا تكاد تهب نفسها لرجل لقاء بعض المال حتى تشعر أنها قد تدهورت . فتسرع وتمنح ذاتها دون مقابل للرجل الذى تحبه . وإذن فكرامة الجسد أصيلة فى المرأة ، والمرأة لن تسعد حقاً وتسمو فى نظر نفسها إلا إذا أثبتت كرامتها بالحب المنزه عن المصلحة حتى لو كانت غانية .

روابط الأمومة

كل حب يظل فى نظر المرأة ناقصاً حتى تباركه وتوثق روابطه الأمومة المشروعة . وهذا هو السر فى أن المرأة لا تشعر بالسعادة المطلقة فى الحب المحرم أبداً .

الفرحة الكبرى

لا أبلغ ولا أعمق من فرحة المرأة بالأمومة . إنها ليست فرحة . إنه جنون ، جنون بحياة تنبثق بشراً من بشر ، وتأخذ ممن أوجدها اللحم والعظم والدم ! . . .

أين الرجل من هذا ، الرجل مهما خلق وأبدع ، فهو لا يخلق إلا فى حدود الفكر . وصحيح أنه هو الذى يعقب الطفل من صلبه . ولكن صلب الرجل أعمى لا يرى غير لذته . أما حشا المرأة فبصير ، وقل أن تستغرقه اللذة ، إذ هو يرى خلف اللذة احتمال خفق الأمومة . فالمرأة وإن تقبلت من الرجل بذرة الحياة ، إلا أنها هى التى ترد البذرة إلى الحياة

زهرة ، وهى وحدها التى تشعر أن دمها المتجمد يستحيل إلى كائن ينبض ، وهى وحدها التى تهب عصارتها هذا الكائن المعبود ، وهى التى يخلبها بعد عذابها منظره إذ تبصره يخرج فجأة من محبسها السرى العجيب ، ويندفع إلى النور أشبه بطائر خرافى ، وفى الوقت نفسه إنسانى ، طائر يبكى ويصرخ مثلنا ، ومثلنا أيضاً يبتسم ويضحك ويغرد . . .

حارسة الحياة

الطفل يلهو بلعبته وسرعان مايتلفها . أما الطفلة فتحتفظ بعروستها وتحنو عليها . وهذا يدلنا على أن الرجل وإن كان يخلق ويبدع إلا أنه فى الوقت نفسه قاس ومدمر . أما المرأة فهى التى تعتبر بحق راعية النوع وحارسة الحياة .

المرأة والحب الأعلى

الفارق الذهنى الرئيسى بين المرأة والرجل هو أن فى وسع الرجل أن يتحرر من سلطان العاطفة ، وأن ينظر إلى العالم بعين العقل المجرد ، وأن يحب العلوم والفنون والفضائل لذاتها ، حباً مطلقاً نزيهاً لا تشوبه المصلحة الشخصية . أما المرأة فكائناً ما كان علمها وثقافتها ، فهى لا تستطيع أن تحب شيئاً حباً صادقاً إلا بدافع من القلب وحافز من النوازع العاطفية . إنها قد تتعلق بالفن ، لا لأن الفن جوهر مثالى مجرد يحمل غايته فى ذاته ، بل لأنه قوة توقظ خيالها الشخصى ، وتخاطب على التو قلبها وروحها أو تلهب عواطفها نحو إنسان معين . وهى قد تستمسك بالفضيلة لا لأن الفضيلة غاية إنسانية مطلقة . بل لأنها قوة تزينها وتحميها وتوثق عرى الولاء والإخلاص بينها وبين الرجل الذى تحبه . وهذا مايفسر لنا تفوق المرأة فى ميدان الفن أحياناً ، وتفوقها فى ميدان الفضائل العاطفية دائماً . كما يفسر لنا ضعفها الظاهر فى ميادين العلم والفلسفة حيث

يسود الفكر المطلق ويتحكم العقل المجرد . على أن هذا الضعف فى المرأة هو سر قوتها . ذلك لأن العالم يعيش بالعواطف أكثر مما يعيش بالفكر ، ويتبع وحى الغرائز أكثر مما يلبى نداء العقل . فالرجل فى ميدانه يتحكم فى الحياة العليا ، والمرأة فى ميدانها تتحكم فى الحياة العامة . ومع ذلك فكلما تثقفت المرأة وارتقت واستعانت بعقلها وإرادتها على التحرر من إسارها وتحطيم القيود التى كبلها بها الرجل ، استطاعت أن تجمع بين العاطفة والفكر ، وأن تطلق الخفى المحتجز المكبوت من ملكاتها ومواهبها . وعندئذ ترتفع وتؤكد قيمتها ، فلا تبسط فقط سلطانها على الحياة العاطفية العامة ، ولا تؤثر فقط فى الرجال وتلهمهم ، بل تشاركهم أيضاً فى إبداع روائع الفكر التى تمثل الحب الإنسانى الأعلى .

الحب عند العرب

هل وجد الحب بين أبناء الصحراء العربية ؟ . . . هل وجد الحب فى تلك الصحراء الممحلة بين الشمس المتوهجة والأرض القاحلة وقسوة الحياة بين الوهاد والنجود، ورحلة الصيف والشتاء ، والعصبية الجاهلية وعزة كل قبيل بقبيله وكل إنسان بسيفه ورمحه ، بين الحروب المتواصلة ومطالب العيش القاسية وجفاء الطبيعة بما يشبه القحط ؟ . . .

نعم . لقد وجد الحب فى تلك الصحراء ، عند نبع الماء وفى منعطف الكثيب وظل الواحة والنخيل ، وعلى العشب الأخضر بين حداء الرعاة وغنائهم ، وتحت النجوم البعيدة اللامعة ، وبين الرمال الصفراء المترامية كأمواج المحيط .

هناك بين الخيام والمضارب والطنب كانت تقع العين على العين ، ويعلق القلب بالقلب ، ويلتقى كل خليل بخليلته على الشرف والعفة ولو بَعُدَ الرقيب .

كان عرب الجاهلية فريقين : فريق الأشراف والسادة من رءوس القبائل ذوى الشوكة والمال والفروسية والأتباع . هؤلاء كان الحب بينهم كما هو طبيعى أن يكون بين قوم مترفين لهم من متاع الحياة والقدرة على ما يكون لذوى المال والسطوة والفراغ والجاه العريض .

والذين يحكمون على حياة العرب فى الجاهلية ، بأنها كانت مقسمة بين الخمر والنساء والحرب ، يصدرون هذا الحكم لما يجدون من هذه الأشياء وحدها فى شعر امرئ القيس ومعلقته وفى بقية المعلقات ، ومن وضوح هذه النواحى الثلاث وحدها وبروزها فى شعرهم ، كأنها قوام حياتهم كلها . ولكن الفريق الآخر — أى سواد العرب — كانت فى حياتهم نساء غير نساء امرئ القيس ، وكان فيها حب غير حب امرئ القيس واستهتاره وتبذله .

كان الشرف عندهم فوق الحب ، والذود عن العرض فوق الحياة . ونحن نرى فيما روى عن حياة الجاهلية وصدر الإسلام عجبًا من الأقاصيص عن الحب والشرف بين بنات العرب وفتيانها حتى لقد كان بعضهم يذبل من فرط الهوى ويموت ، ثم هو لا يبوح باسم من يهوى خشية أن يصيبه أذى من أهله ، بل مخافة أن يذكر اسمه بسوء . . كان الحب عند العرب صادقًا كفجر الصحراء ، طاهراً كنقطة الندى ، يقظًا محاذراً كدليل القافلة ، صامتًا كتومًا كغار الجبل ، راسخًا قويًّا كالطود ، عميقًا كنبع الماء فى الصخر الأشم !

وكانت قيود الحياة الاجتماعية شديدة القسوة ، فكانوا إذا عرفوا أن واحداً منهم عرض لذكر فتاة فى حديثه أو شعره ، حرموا عليه زواجها ورؤيتها أبد الدهر ولو كانت من ذوى قرباه خيفة أن يشهر بالفتاة ، ويقال إنه أحبها قبل زواجها وكانت بينهما مظنة ريب . . .

لهذا السبب كان الحب عذريًّا كتومًا . وكان محنة للنفس والروح يشقى بها المحب ويموت بدون الظفر بمن يهوى . ولكن هذا الشقاء كان

عذباً شهياً إلى نفوس عشاق العرب ، لأنهم كانوا يعشقون الشرف أكثر مما يعشقون أحبابهم . وكان شباب العرب يفاخر بعضهم بعضاً بهذا اللون من العشق ، حتى استعلى شباب قريش يوماً على بقية القبائل واشتهروا بأنهم أعشق العرب ، وحتى فاخر بنو عذرة بطهارة عشقهم فنسب الهوى العذرى إلى قبيلتهم . . وكانوا كما قال عروة بن الزبير عن نفسه : « إنى لأعشق الشرف كما تعشق المرأة الحسناء ! » . وكانت نساؤهم تقول كما قالت ليلى الأخيلية فى شعرها المشهور :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها ... فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل

ولقد قامت بين العرب حروب ومواقع بسبب هذا الشرف وقداسته . قامت بينهم حرب الفجار المشهورة ، لأن شباباً من قريش وبنى كنانة كانوا ذوى غرام . فشاهدوا امرأة جميلة من بنى عامر محجبة الوجه تحدث شاباً ، فسألوها أن تسفر .

بل هذا امرؤ القيس نفسه ، طرده أبوه لأنه عشق ابنة عمه عنيزة ، وكان له معها يوم ، ذكره فى معلقته ، غير حافل .

وبقى العرب يحبون ذلك الحب العذرى الطاهر ، فتحافظ الفتاة ويحافظ فتاها على شرفها وشرفه كحفاظهم على دمائهم ، حتى جاء الإسلام وجاء محمد عليه الصلاة والسلام فجعل العاشق العفيف من الشهداء . ولقد روى عنه عليه السلام أنه قال : « من أحب فعشق فعف فمات فهو شهيد ! » . وكان عليه السلام يجعل المكان الأول لعواطف الخطيب والمخطوبة ، ولم يجعل للأب ولا للولى أن يزوج فتاة بغير من تريد ، بل كان يرد زواجهما عند عدم الرضا .

ولقد بقى الحب على عذريته وطهارته بين الأعراب فى الصحارى والمدن ، حتى جاءت الفتوح والأموال والغنائم من بلاد فارس والروم ومن

مصر والعراق والشام . فأصبحت بلاد العرب سوقاً مائجة بالأسلاب والجوارى ، فلقى أشراف العرب ورءوسهم من هذه الأموال والغنائم ما جرهم إلى ترف الحياة ومفاسد التحضر والنعيم . فظهر العشق الماجن المستهتر الذى اشتهر به عمر بن أبى ربيعة ، والذى نجد أقاصيصه فى مصارع العشاق وتزيين الأسواق وبلاغة النساء ، وما دوّن أبو الفرج فى الأغانى .

هذه القصص ، وهذا الشعر ، وهذه النوادر التى تدور حول أسماء « فَضْل » الشاعرة ، و « عبيدة الطنبورية » ، و « حبابة » وذات الخال ، وعشرات من أمثالهن ، لا تدل فى شىء على حب العرب وما عرف به من طهارة وعفة ، بل تدل على مجون الموسرين وعبثهم ، والأغنياء مع جواريهم اللاتى كن يشترين ببدرات الذهب ، ويجلبن من أسواق العبيد . والواقع أن حب العرب هو ذلك الحب الشريف الذى نجده بين قيس المجنون وليلاه ، وبين كثير وعزة ، وبين جميل وبثينة .

ومما يذكر عن قيس أنه بعد أن منع ليلى ، وبرّح به حبها حتى أصاره رجلا تالفاً مشرّد العقل مشوّش الذهن ، كان لا ينفك عن ذكرها ، وترديد شعره فيها ، وندائها فى الليل والنهار ، فلما جاءته تطرق باب خيمته لم يجب ولم يلتفت إلى الطارق لأنه كان مشغولاً عنه بالتفكير فى ليلى ! .. وكذلك نجد فى أقاصيص العرب أمثلة عليا فى وفاء المحبين وإخلاصهم وثباتهم .

ولم تكن قسوة الحياة فى الإسلام ، ولم تكن سطوة المجتمع على مثل ما كانت فى الجاهلية . فرأى علماء الإسلام فى هذا النوع من الحب لونا من ألوان العبادة كما قال بعضهم . فكانوا يشفقون على أبطاله ، ويقوم الأشراف بالوساطة والشفاعة حتى يزوجوهم بمن أحبوا .

فمن هذا الحب الشريف ، ومما كان يسود المجتمع الإسلامى بعد الصدر الأول ، ظهرت الصوفية . وهى نوع من الحب ازدهر أول الأمر فى قلوب العاشقين الأطهار ، ثم تطور ونما وتطلع إلى الحب الأعلى ، أى إلى حب الله !

فى قيمة الثقافة

امتياز الإنسان

لا امتياز للإنسان إلا بثقافته .

إنها هى التى تشركه ، وهو الحى ، مع كل ما خلف العقل الإنسانى من تراث .

هى التى تصل بينه و بين ما هو أعلى من حظه البشرى .

هى التى تحرره من ربقة جسده كى ترده إلى أصله الأزلى .

هى فى الحقيقة حب أمثل يملأ فراغ نفسه الظمأى بأكثر مما يمكن أن يملأها أى حب دنيوى .

هى خلوده قبل موته ، هى الفردوس الذى تصبو إليه روحه قبل أن يفنى منه الجسد .

لن تزهد أبداً . . .

قد تزهد فى كل شىء . فى أروع أسباب الترف ، فى أجمل وأفتن امرأة . ولكنك إذا أحببت الفكر فلن تزهد فى الفكر أبداً . ذلك لأن الفكر عشيقة فذة سماوية ، دائمة التشكل والتجدد ، أبدية الحرارة والشباب .

بين الرغبة والمعرفة

الإنسان فى الغالب لا ينظر إلى الأشياء إلا بعين الرغبة . ولكنه لن يرتفع إلا إذا نظر إلى الأشياء بعين المعرفة .

فالرغبة تستعبدنا ، أما المعرفة أى الثقافة فتحررنا ، وتجعلنا ننظر إلى ما يكمن خلف الرغبة من وهم باطل قد يقضى علينا ، أو من حافز يدفعنا إلى طريق فيه الخير والعزة للغير ولنا .

حضارة وثقافة

لاحضارة بالمعنى الصحيح إلا إذا اقترنت بالثقافة . وقد تكون الأمة متقدمة من الوجهة المادية أى من حيث التنظيم الاقتصادى والرقى الاجتماعى . ولكنها لن تكون حقًّا متحضرة إلا متى اقترن رقيها المادى برقى فكرى ووجدانى يتمثل فى ارتفاع ثقافة أفرادها وفى إقبالهم النزيه على التزود من روائع الآداب والفنون والعلوم .

فإذا ظل الفرد فى مثل تلك الأمة ، يتبرم بالاطلاع المتواصل والتثقف الدائم ، ويكتفى بما أحرز من شهادات ، وينظر إلى الثقافة نظرة مصلحة مجردة ويتخذ منها وسيلة من وسائل الارتزاق أو الوجاهة الاجتماعية ، فهذا الفرد لا يجمد وينحط فقط ، بل يؤخر رقى أمته ، ويهدد حضارتها المادية ، ويجعل من هذه الحضارة شبه عمارة شاهقة ، تأخذ العين ضخامتها . ولكنها لا تنهض فى الواقع إلا على رمل وتراب .

الشخصية والثقافة

الإنسان موزع النفس ، مشتت الشخصية . فهو تارة يحس أنه طيب ، وتارة يحس أنه شرير . بل هو يحس فى بعض الأحيان أنه طيب وشرير فى الوقت نفسه ، وأن العاطفة الصالحة التى تخامره الساعة لا تلبث أن تقترن بعاطفة سيئة قاهرة ، وأن العاطفتين تتجاوران وتتحدان فى منطق سرى يحيره ويذهله ، وتتكسر حياله رغبة الخير التى ينصحه باتباعها صوت ضميره . فهو من عواطفه فى حرب دائمة ، يحاول أن يفهمها ويحكم الصلة بين أسبابها ودوافعها ، ويرجع بهذه الأسباب والدوافع إلى مصادرها ، خشية أن يتخبط ويرتطم ولا يبصر غير فوضى وظلام .

فحياته تشبه سيلا جارفاً غير منظور ، وإحساساته وميوله تشبه مياهاً متدفقة ، منحدرة من جوانب مجهولة لتتوزع فى طرق متضاربة ومجهولة

أيضاً ، وشخصيته تشبه مجموعة من طيور عجيبة تتنقل من غصن إلى غصن ومن جو إلى جو ، ولها فى كل غصن حياة ، وفى كل جو شقاء مستقل أو سعادة مستقلة .

فالثقافة هى التى تنقذ الفرد من هذه الفوضى ، أى من التوزع والتشتت الكامنين فى طبيعته . وهو كلما أقبل على شتى الآراء التى تزخر بها أعمال كبار رجال الفكر ، وكلما أنعم النظر فيها ، وفاضل ووازن بينها ، واستخلص منها بمجهوده الذاتى حقائق يرتاح إليها عقله وينمو بها ذهنه ، عندئذ تصبح شخصيته ثمرة جهاده . فيستطيع أن يغالب توزعها ، ويقر فيها النظام قدر الطاقة ويقهر الفوضى ، وينزع بها إلى التماسك والترابط والوحدة ، بحيث تستحيل إلى قوة قادرة على فهم الحياة ومعالجة أحداثها وفق آراء فحصها العقل ولمس نتائجها الفعلية فى الواقع اليومى الحى .

فمثل الإنسان تجاه ذاته والعالم كمثل رجل وُلد فى بهو قصر عظيم أقفل كل باب من أبوابه بقفل خاص . فأبواب هذا القصر المغلقة هى أسرار النفس والعالم . والرجل إن لم يوفق إلى صنع مفتاح لكل قفل و باب ، عاش فى بهو ذلك القصر أسيراً ولم يستطع أن يمتلكه وينعم بما فيه . أما لو نفض عن نفسه غبار التبلد ، واعتزم الانطلاق من ربقة جسده وحيوانيته وألهب فى كيانه شعلة الفكر والروح ، فالثقافة لابد أن تحرره من إساره ، فيفتح بكل معرفة باباً ، ويكشف بكل معرفة سراً ، ويصبح هو سيد القصر فى مقدوره أن يبسط سيادته وسلطانه على نفسه والعالم .

الثقافة والحافظة

لا تثمر الثقافة بقوة الحافظة بل بقوة الفكر . ونحن لن نتعلم شيئاً مذكوراً إلا إذا طرحنا كل ما حفظناه . وأنت لن تتقدم خطوة واحدة فى دراسة شىء معين إذا نظرت إلى هذا الشىء بالعين التى ينظر إليه

بها غيرك أو التي تعلمت أن تنظر بها أنت إليه . فلكى تفهم هذا الشيء تماماً يجب أن تنعم النظر فيه كأنه كان مجهولاً منك وكأنك تراه الآن لأول مرة . وهكذا تصبح أنت والشيء تجاه فكرك فقط . فيتقد فيك الفكر المستقل ، فتستطيع أن تبدع الجديد الفذ متغلباً على المحافظة وما تخلف فيها من رواسب كل فكر دخيل وشائع .

ومع ذلك فينبغي أن تذكر أن آراءك الخاصة التي استخلصتها من ثقافتك لايمكن أن تكون آراء فاصلة وقاطعة مهما بدت لك سليمة وعميقة . فاحذر نشوة الثقافة وما تولده فى النفس من كبر واعتداد ، واستمع لآراء غيرك حتى ولو كانوا من متوسطى العلم والذكاء . إذ من يدرى فقد يكون متوسط العلم أو الجاهل ذا بصيرة مشرقة تنبثق منها فى مثل لمح الطرف أروع حقيقة ، فيفضى احتقارك لذلك الجاهل أو المتوسط العلم إلى عكس ما تنشد فى الثقافة من سماحة عقل وتواضع فكر واستزادة معرفة ، أى إلى المكابرة والعناد ورذيلة التعصب الشائنة المزرية .

بين العقل والعاطفة

إذا راقك رأى من الآراء ثم أردت أن تتقى الخلط بين فضيلة التمسك بالرأى ورذيلة التعصب للرأى ، فافهم أن التمسك بالرأى أو المبدأ يجب أن يكون قوة إيجابية تنبع من عقلك وثقافتك لتستقر فى عاطفتك ، لا قوة سلبية مفتونة تنبع من عاطفتك لتستقر فى العاطفة نفسها .

فبقدر ما يشترك عقلك المثقف فى تكوين مبدئك ، تتجلى فيك القدرة على التمسك بهذا المبدأ والقدرة على العدول عنه فى تسامح ورحابة صدر متى اقتنعت بأن مايناقضه هو الحق .

وبقدر ما تشترك عاطفتك فى تكوين مبدئك ، يرسخ هذا المبدأ فى وجدانك على أساس الباطل والتعنت . ذلك لأن العاطفة المجردة تؤخذ

بالظواهر وقل أن يتعمق أصحابها البحث فى حقائق الأشياء .

فكرة ثابتة

الإفراط فى التحمس للرأى قد ينقلب إلى تعصب . والتعصب إذا استفحل جعل من الرأى فكرة ثابتة تحتل عقل مجنون .

مطلق ونسبي

إذا تعلقنا بالحقائق المطلقة ، فذلك قد يهبنا الطمأنينة وراحة الذهن . ولكن هذه الراحة نفسها تحجب عنا وجه الدنيا ، وتجعل منا عبيداً لتلك الحقائق المطلقة الماثلة فى كل ما هو شائع ومألوف .

أما إذا نظرنا إلى الحياة على أن لا حقيقة فيها ثابتة ومطلقة ، وأن كل ما فيها متغير ومتناقض ونسبي ، يحمل سلسلة من الحقائق مختلفة ومتحركة ، ثم جاهدنا ما استطعنا كى نخرج من كهف راحتنا ومن جو الطمأنينة الذى يخنقنا ، ونحاول أن نفكر ونتأمل ونمعن النظر فى الحقائق المتباينة المتعارضة ونحتضنها ، عندئذ نحس أن جوهرنا البشرى قد استيقظ فينا ، وأننا لم نعد مستعبدين لحقيقة واحدة مطلقة ، وأن كلاً منا إنسان متحرك وقوى وحر ، وأن طبيعتنا نفسها كما يقول « بسكال » تكمن فى الحركة ، وأن راحة الذهن بالنسبة لنا هى الموت .

الجداول والأنهار

الفارق بين الإنسان السطحى والإنسان المثقف كالفارق بين الجداول والأنهار . الجداول الصغيرة تثرثر ، أما الأنهار الكبيرة فصامتة . والواقع أن ظاهر الحياة هو الذى يجذب الناس . ولذلك يتفق السطحيون الثرثارون ، أما المثقفون حقاً فهم كالأنهر الكبيرة ، وسطحهم صامت بارد لا يجذب لأن حرارتهم تكمن فى الأعماق .

فلنفتح جميع النوافذ

نحن فى الشرق العربى مازلنا نعيش خاضعين لعدد معين من الثقافات الأجنبية ، يحتل عقولنا ، ويسيطر على عواطفنا ، ويصدر عنه وحى تفكيرنا وإحساسنا .

فالذى تثقف منا ثقافة إنجليزية يمجد الروح السكسونية ، والذى تثقف ثقافة فرنسية يشدو بالعبقرية اللاتينية ، والذى أحرز قسطاً وافراً من ثقافة الألمان أو الروس يسخر بالثقافتين المتقدمتين ويقدس العقل الجرمانى والروسى .

فكل فرد من هؤلاء يتجه فى حياته ومنزعه اتجاهاً خاصاً ، ويحاول أن يطبع فكره وأعماله وجهوده بطابع تلك الثقافة الأجنبية التى تشربتها نفسه .

ولقد ترتب على هذا أن نشأ بيننا نوع من التعصب لثقافة أمة دون أمة ، يهدد وحدتنا المعنوية ، ويوسع مسافة الخلف بين أفراد شعبنا ، ويضعف إحساسنا بشخصيتنا المبدعة المستقلة .

بيد أن حضارة اليوم أصبحت عالمية ، وثقافة اليوم أصبحت عالمية أيضاً . فواجبنا الآن ونحن نشترك فى هذه الحضارة التى هى وثيقة الصلة بتراثنا ، والتى نريد أن نضيف إليها المستحدث الطريف من مولدات عبقريتنا ، واجبنا أن نقتدى بأقطابها ، وأن نقدس الفكر نفسه لا الفكر ممثلاً فى ثقافة معينة .

وأما ثقافتنا العربية العريقة فينبغى أن نحرص عليها ، ونعمل على إحيائها ، بدون أن نعرقل تقدمنا بدعوى أن الحفاظ على القديم هو الذى يصون قوميتنا . إن الانطواء يقتل القومية ولا يبعثها . فإذا انطوت الثقافة العربية على نفسها ، قيدت عقولنا ، وأخمدت مواهبنا ، وباعدت بيننا وبين تطور الفكر والعالم .

وإذن فلا اكتفاء بأية ثقافة ، ولا تعصب لأية ثقافة ، بل اتجاه نحو ثقافة عالمية شاملة ، وواسعة الأفق رحبة الفسحات تستمد قواها من مخلفات الفكر فى شتى الأمم كى تنحدر وتنصب آخر الأمر فى الطينة المصرية العربية والمحيط المصرى العربى ، تعزيزاً لعبقرية المصريين والعرب ، وإقراراً للانسجام المعنوى بين أفرادهم ، ومضاعفة لإحساسهم بشخصيتهم المميزة وخصائص كيانهم المستقل .

ولقد كان الغرب نفسه فيما مضى يعيش على الثقافتين : الإغريقية واللاتينية ، ولكنه أدرك أن ثقافة البحر المتوسط ليست هى كل شىء فى العالم ، وأن هناك ثقافات عديدة أخرى هى فى الواقع أجزاء متفرقة عظيمة من تراث الفكر البشرى الخالد . فأسرع مفكرو الغرب وأقبلوا على تلك الثقافات ، واغترفوا منها ، وأدمجوها فى ثقافتهم وأضافوا إليها ثقافة العلم التجريبى الحديث الذى تمتاز به حضارتنا .

وهكذا أصبحت الثقافة الآن نظرية وواقعية ، تجريدية وعلمية ، محلية وعالمية .

فالرجل العصرى المثقف حقًّا هو الذى يقرأ فى الفلسفة من أفلاطون إلى هيدجر ، وفى الأدب من الأغارقة إلى شكسبير وجيته وبالزاك حتى بروست وجويس ، ويقرأ أيضاً مخلفات الفكر عند الهنود واليابانيين ، ويحاول فى الوقت ذاته أن يفهم « أينشتاين » وأن يقف على أسرار الكون والذرة كى يتصل بعصره وبالحقائق الأخيرة التى كشف عنها العلم .

فالغاية المثلى هى اقتران الثقافة النظرية الشاملة ، بالثقافة العلمية المتجددة الراهنة .

وليس لنا أن نقارن ونفاضل بين هاتين الثقافتين . فكلتاهما تنبع من مطالب عميقة وأصيلة فى الكيان البشرى وضرورية لارتقائه . فالثقافة النظرية من فلسفة وأدب وفن تخاطب عقل الإنسان وقلبه ووجدانه وروحه ، والثقافة العلمية التجريبية تخاطب عقله كى تسخر له الطبيعة ،

وتحكم الصلة بين واقعه ودنياه وعصره ، فقيمته كامنة فى الجمع بين الثقافتين . أما إذا غلب فى نفسه الثقافة النظرية الخالصة ، فهو لا بدّ أن يصبح مخلوقا متأملاً حالمًا شعريًّا خياليًّا مقطوع الصلة بواقعه وعصره . وإذا اكتفى بالثقافة العلمية المجردة ، فهو لابد أن يصبح مخلوقًا عمليًّا جافًا ، ينظر إلى الكون فى ضوء ما يمكن أن يحققه العلم من مصلحة فقط . فيحبسه الواقع فى سجنه المادى ، وقد يميت فيه آخر الأمر كل حاسة وجدانية عليا .

وأنا أعتقد أن لا مفر لحضارة المستقبل من أن توفق بين الثقافتين ، وتتجه نحو ابتداع إنسان جديد . وهذا الإنسان الجديد سيجمع بين الأدب والعلم ، بين الثقافة والصناعة ، بحيث نستطيع أن نتمثله منذ الآن فى شخصية عامل ميكانيكى يقود قطاراً كهربائيًّا وهو فى أعماق نفسه يتغنى بأشعار هوميروس التى تمجد سرعة فرسان طروادة . . .

فإلى هذه الثقافة الشاملة التى تقرن الفكر بالعمل ، والخيال بالواقع ، والروح بالمادة ، يجب أن تتجه جهودنا مع احتفاظنا بتراثنا الفكرى ، وبطابعنا الخاص ، وجوهر شخصيتنا الطامحة .

تفاعل الثقافات

الإنسان هو المخلوق الفرد ذو الباطن المتفتح على العالم . فإذا تخصص فى علم واحد أو فن واحد ، وأغفل النظر فى بقية العلوم والفنون ، ولم يدرك أن المعارف مترابطة والثقافات متجاوبة لا تنفك تتفاعل ويؤثر بعضها فى بعضها الآخر ويكسبه قوة ورحابة وعمقًا ، فذهن ذلك الإنسان المحصور فى دائرة معينة لابدّ أن يفقد تفتحه الثمين على العالم ، وضيق ثقافته لابدّ أن يهبط بمستوى العلم أو الفن الذى انقطع له . فيمسى على حد تعبير « مكس شلر » أشبه بالحشرة الزاحفة فى اتجاه واحد والمتخصصة فى عمل واحد ، تقنع بحظها ، وتهجس غريزتها فى روعها أن دنياها المغلقة الرتيبة الكثيفة هى الدنيا .

ثقافة الحياة

المجهول هو الذى يمدنا بثقافة الحياة . ولا سبيل إلى ثقافة الحياة إلا بالتجربة والمغامرة . فكل تجربة تمر بها ، بل كل مغامرة تقدم عليها ، لابد أن تصطدم فيها بمجهول لم يكن فى حسبانك أبداً . وعندئذ وتجاه حوادث المجهول ، تختبر أنت نفسك . وتمتحن قواك وتتمرس بحقائق المجهول التى هى حقائق الحياة .

فاغترف من ثقافة الفكر ما استطعت ولكن لا تضع الثقافة فوق الحياة ، وإلا ألفت العزلة فى نشوة المطالعة والتأمل ، فاستبدت بك هذه النشوة المستكبرة ، وألقت فى روعك أنك قد عرفت كل أسرار المجهول ، وأنك أصبحت معفى من أن تجرب وتختبر وتغامر وتعيش .

فاهرع إلى العزلة فى فترات تستكمل فيها ثقافتك . ثم اخرج إلى العالم واذكر على الدوام أن أصداء العالم لن تتجاوب فى كيانك إلا إذا كنت بقرب إنسان . وأنت لو لاحظت العصافير ، لرأيت أن منها من لا يمعن فى تغريده إلا إذا كان هو الآخر بقرب إنسان .

المثقفون والحرية

شرط الثقافة هو الحرية . والمثقف المحروم من حرية الفكر وحرية الاعتراض ، يحس أن لا قيمة لمواهبه ، ولا جدوى من وجوده . فينسلخ شيئاً فشيئاً عن إنسانيته ، ويظل يدور حول نفسه فى فراغ خانق ، ثم يثيره هذا الفراغ فيتهالك على نفسه ويحرقها حرقاً إما فى التواكل والاستهتار ، وإما فى الجنس أو فى الكحول .

الثقافة للشعب

الثقافة يجب أن تستلهم الشعب ، وتشق الطريق لخدمة الشعب .

والمثقفون هم الذين ينبغى أن يتقدموا الصفوف ، ويبرزوا فى الطلائع ، ويذودوا عن الحرية ، ويدافعوا عن المكاسب التى أحرزها الشعب ، ويحموها بصدورهم ، ويبذلوا فى سبيلها كل مرتخص وغال . وما قتل الأمم الكبيرة غير جبن المثقفين ، وأنانيتهم وتسخيرهم ثقافتهم لخدمة مصالحهم على حساب الشعب وفى ظل النفاق .

نحو رقى عام

كل أمة لا ترتقى مختلف طبقاتها بنسب متعادلة ، بل تستأثر فيها بعناصر المال والثقافة طبقة دون طبقة هى أمة مضطربة مزعزعة ، كائناً ما كان رقى خاصتها وتحضر طبقاتها العالية .

فالطبقة العالية فى أية أمة تستطيع حصر السلطة فى نفسها كما تستطيع بفضل أموالها تعليم أبنائها ، والأخذ بأسباب الحياة الراقية المتمدينة . ولكن حضارة الأمة فى مجموعها لا يمكن أن تقاس بنسبة الرقى الاجتماعى والفكرى والمادى الملحوظ فى طبقتها العالية .

ولقد كان عصر لويس الرابع عشر عصراً ذهبياً ، ولكنه كان عصر حضارة أرستقراطية نهضت بها طبقة واحدة ، فلم يشعر سواد الشعب أن تلك الطبقة فكرت فيه أو عملت على إسعاده أو سعت لإشراكه فى النعيم المادى والمعنوى الذى كانت تمرح فيه .

والواقع أن الأمر كان على النقيض ، فقد استقلت تلك الطبقة العالية بحضارتها ، واعتزت بثقافتها ، وضاعفت مالها من امتيازات وثروات ، فقوضت بأيديها دعائم النظام الأرستقراطى ومهدت للثورة الفرنسية الكبرى .

لا تحزن

إذا تثقفت وكانت لك مواهب وأردت أن تبدع أعمالاً فكرية باقية ،

فاعمل جاهداً وأنت تنشد الكمال ، ولكن لا تطلب خصوبة الإنتاج مقترنة بكماله . لا تعتقد أن النابغة الخليق بهذا الاسم هو الذى تتوافر فى جميع أعماله شروط الكم والكيف ، أى كثرة الإنتاج وروعته فى الوقت نفسه . إن الجمع بين الخصوبة والروعة على الدوام أمر لا تقبله الطبيعة . إذ الروعة فى محيط الفكر كالروعة فى محيط الطبيعة لا تتم إلا على حساب الكثرة فى عدد الوفيات .

وكما أن الطبيعة تقسو على المرأة المخصبة فتُفقدها فى الغالب بعض أولادها كى يعيش الباقون على حسابهم ، كذلك تقسو الطبيعة على النابغة أو العبقرى فتفقده الكثير من أعماله كى يعيش الصالح منها فقط على حساب الأعمال الميتة .

فلا تحزن على ما يمكن أن يموت من أعمالك ، وامض فى العمل متجهاً بروحك صوب الكمال ، تبدع فى حُمى الخلق والإنتاج عملك الكامل الذى لابدّ أن يعيش على حساب أعمالك السالفة التى لم تكن فى الواقع غير قوى متعثرة متخبطة تتلمس طريقها نحو الكمال .

المتعة المثلى

البحث عن الحقيقة أمتع من الاهتداء إلى الحقيقة ، والمجهود المتواصل أمتع من النجاح ، والحب الذى نهبه أمثل من الحب الذى نتلقاه .

المعبود الجديد

الثلاجات والغسالات والمواقد والمكانس والمطابخ الكهربائية والتليفزيون ولا سيما السيارات ، أى « الآلة » ، الآلة التى أوجدتها الحضارة لخدمتنا ، أصبحت هى اليوم معبودنا الجديد ، نتنافس على اقتنائه ، ونفخر بحيازته ، ونكاد فى حرصنا عليه أن نقدسه ونحرق عند قدميه البخور .

نحن نؤثر أن ننطلق فى سيارة أو نمكث الساعات تجاه التليفزيون

على أن نقبع فى ركن ونهدأ ونتثقف ونقرأ فى كتاب .

فالتهافت على امتلاك الآلة ، بأية وسيلة ، يوشك أن يخمد فينا شعلة الفكر والقلب والروح ، ويجعل من حياتنا المعنوية صحراء .

ومتى استحالت حياتنا المعنوية إلى صحراء ، فمعبودنا نفسه يصبح ملاذنا الأوحد . فنشتد فى التهافت عليه ، ونمعن فى الاندماج فيه . فتتشوه وجوهنا ، وتمسخ طبائعنا ، ونستفيق ذات يوم وإذا بكل منا ، وقد تحول فجأة وتبدل ، ينقلب إلى آلة صغيرة ، لامعة وجامدة وصماء ، وشبيهة أعجب الشبه بذلك المعبود الجديد .

الثقافة والإرادة

. . . فإذا شئنا أن نرتد إلى إنسانيتنا ، وأن نظل ونحن نستخدم الآلة مسيطرين عليها ، ومتجهين بالثقافة إلى مايسمو بالجانب المعنوى النبيل فينا . فعلينا أن نضع نصب أعيننا حقيقة من الأهمية بمكان عظيم . وهى أن لا ثقافة بدون منهج ، كما أن لا إرادة بدون منهج . وأنت مهما حاولت فلن تثقف أبداً عقلك ولن تظفر بقسط وافر من العلم والأدب والفن ، إلا إذا كنت قد اخترت من مختلف المؤلفات العالمية ما أجمع كبار النقاد على كماله ، ثم استنهضت ما استطعت إرادتك ، ورسمت لك بالعزم والإرادة منهجاً معيناً للمطالعة ، على أن يكون ذلك فى أناة وصبر وتأمل فاحص دقيق .

فالنزول على حكم المنهج والمثابرة عليه والاستمرار فى تنفيذه ، فضائل نفسية وخلقية تضاعف من قوة إرادتك ، وتضاعف فى الوقت ذاته من ظمئك إلى المعرفة وولعك بالتثقف ، فيصبح حب المعرفة والتثقف عادة فيك ، فتتطور هذه العادة على مر الزمن وتصبح جزءاً أصيلاً من طبيعتك . وعندئذ تشعر أنك قد امتزت وارتفعت ، وأنك حقاً تعيش بما يجدر أن يعيش من أجله إنسان .

البيت هو المنبع

البيت هو منبع الثقافة ولا ثقافة إلا فى البيت المنظم الهادئ الذى يمكن أن يحبب إلى الفرد حياة الفكر .

فإياك أنت المثقف أن تختار امرأة جاهلة أو ناقصة التعليم أو محبة للظهور ومفتونة بأسباب الترف ، وتقترن بها مدفوعاً بعامل المصلحة أو مسوقاً فقط بنداء الجنس . إنك لو تهورت فلا بد أن تندم وتشقى ، إذ مثل هذه المرأة قد تأخذك فى شبكة أنوثتها ، وتزين لك الحياة على غرارها . فتنزلق أنت وتعيش فى عالمها ، فتختنق فيك نوازعك العليا ، ويتقلص من نفسك كل ميل جاد إلى الثقافة والفكر . إن فى كل رجل جانباً أنثوياً ما يفتأ يغالب جانب الذكورة فيه . وهذا الجانب الأنثوى قد يدفعه إلى التشبه بالمرأة الشائعة فى الولع بالمحسوسات ، والنفور من الفكر وتطلعاته الكبرى ، والنزوع إلى الطمأنينة فى ظل التمتع الرخيص . فإذا أردت أن تحرص على امتيازك المعنوى الذى فيه قيمتك ، فاحذر ذلك الجانب الأنثوى الغادر الكامن فيك . ثم اعلم أنك لن تحيا أبداً بجزئك الأعلى إلا إذا ترفعت فى زواجك عن كل غرض مادى وضيع ، واخترت امرأة أقرب ما تكون إلى مستواك الذهنى . ومتى اخترتها فابذل قصاراك فى أن تدفعها إلى التثقف مثلك ، وأن تلهب فيها شعلة العقل والفكر . وهكذا تحررها ولو من بعض ما يمكن أن يكون قد تخلف فيها من غرائز الأنثى . فتحس هى أن فى العالم أشياء غير العلاقة الجنسية والمظهر الاجتماعى وحب الترف والتهالك على الموضة ، أشياء عظيمة جديرة بأن تشاركك فى الاهتمام بها ، حرصاً على كرامتها وحرصاً عليك ، وترضية وإمتاعاً للجانب المعنوى من نفسك ونفسها . وأنا أعتقد أن المرأة المتعلمة تقبل على الفكر مختارة إذا أحست أن زوجها حقاً يحبها ويريد أن يرقى بها . ولكن الملاحظ أن الزوج هو الذى يأبى فى الغالب إلا أن تظل زوجته محض أنثى ،

ترقص له رقص « الغوازى » ، فيفرح بها ثم يسأمها ، ويقول إنها تافهة ، وإنها رخيصة لا تعرف أن تكون غير راقصة وأنثى ، فارتفع بشخصية زوجتك ولا تحتقر عقلها . إن احتقارك عقلها وفكرها هو الذى يضاعف من حدة غرائزها . ويبقيها مغلولة فى سجن فطرتها ، لا تؤمن بغير العلاقة الجنسية ولا تستطيع أن تتحرر أبداً منها . وهكذا تنفصل هى عنك ، وتحتقر بدورها أفكارك وشواغلك . فتستفيق أنت بغتة وإذا بك فى بيتك وبقرب امرأتك تعيش فى عزلة روحية خانقة فتهجر بيتك ، وتفر من امرأتك ، وتتشرد فى الشوارع والمقاهى .

على أن امرأتك نفسها ، امرأتك المتعلمة التى أشركتها فى ثقافتك يجب أن تحذر تلك النزعة الوبيلة المصابة بها بعض المثقفات ، أى نزعة الإسراف فى النقاش والجدل ، والإسراف فى المعارضة والمكابرة ، واستخدام ذكاء الفكر وفن الكلام لا فى البحث عن حقيقة أو الحرص على مصلحة أو السعى لفض نزاع ، بل فى الاعتزاز بالنفس ، والرغبة فى إثبات الشخصية وتوكيدها على حساب كرامة الزوج . هذه النزعة التى تولدها الكبرياء وتفضى ولا ريب إلى تلك المنازعات البيتية المروعة التى تخنق كل ميل متعطش إلى الثقافة والفكر .

فهذب بالفكر نفسك وامرأتك ، واجعل من بيتك منبع ثقافتك ، وأشرك فى الثقافة أيضاً أولادك ، ثم خذ بوسائل ضبط النسل بحيث لا تعقب من الأولاد أكثر من اثنين وإلا استحال بيتك إلى حظيرة ، واستحال عليك أن تحسن تربية أولادك ، وعجزت أيضاً عن المطالعة والتثقف فى بيتك .

فاعرف قبل كل شىء كيف تصنع مستقبلك وكيف تبنى زواجك وبيتك على العقل والقلب والخلق ، لا على المصالح والمظاهر والشهوات .

إياك . . .

إياك أن تعشق صفحة السماء الناصعة فيشغلك جمالها عن دورة الأفلاك .

إياك أن تنام تحت أشعة الشمس فتستمرى الدفء ولا تفكر من أين يأتى الشعاع .

إياك أن تتنشق عبير زهرة وأنت لا تعرف اسمها .

إياك أن تعجب بجمال الأشجار وأنت لا تفكر فى حظ الطيور التى تغرد عليها .

إياك أن تطمئن إلى النظرة الساحرة إلا إذا أيقنت أنها ليست غادرة .

إياك أن تحدق إلى أى وجه إلا إذا حاولت أن تمزق عنه القناع .

هذا التحرر من الخديعة النابع من الظمأ إلى المعرفة هو العذاب . ولكن مجد الإنسان كامن فى نصب قامته وتحمل هذا العذاب !

فى قيمة الأدب

حافز الأديب هو القلق

القلق أبرز الخصائص فى شخصية الأديب الحق ، إذ هو إنسان لا يطمئن أبداً إلى صحة الفكرة أو الاتجاه أو المنزع الذى خيل إلى الناس أنه قد آمن به واستقر عليه .

وهو فى هذا شديد الشبه برجل العلم . وكما أن العالم يظل مخلصاً للنظرية العلمية حتى تدعوه التجربة إلى نقضها واستبدال غيرها بها ، كذلك الأديب يظل مخلصاً لاتجاهه الفكرى أو العاطفى حتى تدعوه تجربة جديدة إلى نقضه والتحول عنه إلى سواه .

فخاصة القلق ، ونزعة التقلب ، وشهوة التجربة هى طبيعة فيه . ونحن لو طالبناه بالثبات على اتجاه فكرى أو عاطفى معين ، لضيقنا آفاق حياته ، وأقمنا فى وجهه الحواجز والسدود ، وعطلنا نمو مواهبه ، ورجعنا بالتطور الثقافى القهقرى .

وقد يستنكر البعض هذا التقلب فى شخصية الأديب ، ويعده شذوذاً فى الطبع والمسلك . ولكن هذا التقلب المحفوف بالقلق والنابع من إرادة المعرفة ومن الرغبة العميقة فى النفاذ إلى جوهر الأشياء ، هو الوسيلة الوحيدة لخدمة الفكر والفن وفهم الحياة ، إذ الحياة نفسها لاتفتأ تتقلب ، والأديب الحق هو انعكاس دائم لتقلب الحياة .

والواقع أن الأديب يتعذب بهذه النزعة المتأصلة فيه . يتعذب لأن حياة الناس تميل بهم إلى الثبات والاستقرار وتجنب الإقدام على التجارب المريرة الكبرى ، وحياته هو تدفعه إلى اقتحام تلك التجارب ولو خالف ما اصطلح عليه الناس واصطدم بهم وتعذب .

بيد أن عذابه هو العذاب المخصب الخالق الذى يجدد نظرتنا إلى

الدنيا ، ويبدع لنا مادة بكراً من حقيقة وجمال ، فيها قيمة الأدب لأن فيها صور التقلب والتعدد الماثلة فى الحياة .

فالثمرة التى نجنيها من عذاب الأديب ماثلة فى عمله ومستقطرة من خالص دمه ، تشفع لقلقه وتقلبه وحريته ، وتضطرنا إلى التجاوز عما نلحظه فى أخلاقه من غرابة وشذوذ .

وبعد فماذا يهمنا من شذوذ أخلاق الأديب إذا كان عمله جميلاً . ماذا يهمنا من السماد إذا كانت الزهرة جميلة . الأديب لا يستطيع أن يعطى إلا على قدر ما أخذ . وهو لن يكون عبقرياً إلا متى شابه أمه الأرض ، الأرض الأبدية التى تهضم كل شىء لتخرج أبدع الأشياء .

بين النبوغ والعبقرية

ما الفارق فى الأدب بين النبوغ والعبقرية ؟ . . . الفارق ولاريب جوهرى .

فالأديب النابغ شىء ، والأديب العبقرى شىء آخر . الأديب النابغ يحاول الإبداع ولكنه يحرص على تراث الماضى ، ويترسم فى الغالب خطوات من سبقوه ، ويخشى الطفرة الثائرة ، ويبذل قصاراه كى يخلق ويبدع دون أن يزعزع الأصول الفكرية والفنية التى ثبتت على الزمن والتى هى فى عرفه مقياس الكمال .

ولا شك أن مثل هذا الأديب النابغ هو الذى يحرس مخلفات أمته ، وهو الذى يسهر على تراثها الثقافى ، وهو الذى يغذى هذا التراث بما يؤكده ويدعمه . وقد يأخذ الأديب النابغ فى الوقت نفسه بمبدأ التطور ، ولكن بشرط أن يكون هذا التطور تدريجياً لا يتحول إلى انقلاب شامل يهدد القواعد والأصول .

فإبداع النابغ مقيد ومحدود ، أما إبداع العبقرى فحر ومنطلق . إذ قوام شخصية الأديب العبقرى هو الوثبة والاستحداث والتجديد .

التجديد لا فى الفروع بل فى الأصول ، ولا فى العرض بل فى الجوهر ، ولا فى ما اصطلح عليه الناس وألفوه بل فى ما يتقدم عصرهم ، ويجاوز حدود تفكيرهم ، ويرسم لهم طريقاً فى فهم الحياة والتعبير عنها لم يكن فى حسبانهم .

ومع ذلك فالعبقرية ولا ريب شىء نادر . وليس فى وسع كل أديب أن يكون عبقرياً . ولكن فى وسع كل ذى موهبة أن يتأثر خطى العبقرى ، ويستلهم عناصر العبقرية وخصائصها ، كى يغالب ما استطاع مؤثرات القديم ، ويبدع ولو فى أفق محدود أدباً جديداً ، يضيف إلى التراث الثقافى نغمة شخصية مستقلة ، تعبر عن فكر الأديب النابغ ووجدانه ومشاعره ، تعبيراً فيه الصدق والحرارة لأن فيه انتفاضة حية وفيه تطلع إلى استكشاف عالم مجهول .

شخصية العبقرى

لم تكن العبقرية أبداً تخصصاً محدوداً أو ثمرة من ثمرات الممارسة والإجهاد والصبر الطويل .

ما العبقرية إلا نظرة نسرية هابطة من عل ، تستطلع وتقتنص فى لحظة ما قد لا يجمعه النبوغ فى سنين من العمل والكد . إنها تستشعر الحقيقة المستخفية الجديدة استشعاراً عاصفاً غلاباً مفاجئاً . لذلك هى أقوى من قانون الزمن . وأن ما تدركه فى بارقة لامعة لأبعد مدى وأعمق تأثيراً مما يتهالك عليه النوابغ فى قرون .

إنها لا تخضع للحكمة وناموسها والعقل ومنطقه ، بل بالعكس يتجلى انطلاقها المعنوى فى نوبات عصبية مباغتة أشبه بنوبات الصرع ، تهز كيان العبقرى ، ويندلع منها برق يضرب جسده بصاعقة فيحرقه كى تخلص الروح فكراً طليقاً جامحاً يشترك والطبيعة فى إلهاب القوى الخلاقة المبدعة .

. ما ينشده العبقرى

قد يكون الأديب الروائى عبقرياً ثم لا يكون فى أدبه فناناً . إذ هو لا يعنى بشروط التناسب والترابط والقياس والانسجام وبلاغة الأسلوب ، قدر ما يعنى بالغوص على شتى الحقائق والظواهر الأبدية يمثلها فى عالم من الشخصيات ذات التعبير الإنسانى الخالد .

وليس من شك فى أن الجمع بين فضائل التناسب وانطلاق العبقرية هو الكمال فى الفن . ولكن العبقرى فى الغالب لا ينشد الكمال الفنى بل ينشد الإحاطة والشمول .

هكذا كان شكسبير وبلزاك، ودستويفسكى فى سائر أعماله عدا « الجريمة والعقاب » .

فكل من هؤلاء كان عبقرياً ولكنه لم يكن فناناً ، لأن من يريد أن يحتضن كل شىء لا يمكن أن يصور فى فن كامل متناسق روح التبعثر والتشوش التى تغمر فى الحياة كل شىء .

بيد أن الحقائق الأبدية المستغلقة التى تكمن وراء هذا التشوش والتى يكشف عنها العبقرى ؛ هذه الحقائق تشفع له فى انطلاقه المحموم ؛ وقد تكون فى إطارها الشكلى المشوش أبلغ وأعمق تأثيراً علينا مما لو كانت مهذبة ومصقولة تحققت لها كل شروط الفن الكامل .

ما ينقصنا . . .

إن ما ينقص معظم رجال الفكر فى الشرق هو اتخاذ الفكر رسالة ، هو الإخلاص العميق للفكر ، هو احتقار الكثير من مناعم الدنيا التى لابد أن تلوث الفكر ، بل هو التبتل الخالص الصارم من أجل الفكر . إذ الفكر قبس من وحدانية الله ، وهو لا يمكن أن يقبل الشرك .

خيانة الفكر

لا أعرف شرًّا أبلغ فى الوشاية والنميمة والوقيعة والدس من الشر الذى ينفثه الزهو والغرور والحسد والغيرة والتكالب على الشهرة والمال فى نفوس طائفة كبيرة من الأدباء .

إن هذا الشر المستبد بهم ، يستنزف الكثير من عصارة أذهانهم ، ويؤثر ولا ريب فى أعمالهم ، فتخرج مرتجلة هزيلة يشوبها الغرض وتداخلها روح المكابرة ونزعة الوصولية .

وهكذا يخونون أنفسهم ويخونون الفكر ، إذ الغرض يعمى ويصم . أما عزة النفس ، فتنأى بصاحبها عن سوء القصد ، وتنعكس ولا ريب على الوحى والفكر ، فتكسب العمل خصائص القوة والصحة والنماء .

خطر على الأدب

ثقافتنا الأدبية ما تزال حتى الآن فى مجموعها ثقافة تحصيل آراء ومعلومات ومعارف مجلوبة من الخارج ، لا ثقافة عضوية ثرية تنبعث من شخصيتنا وتنزع إلى الخلق الذاتى المستقل . وليس من شك فى أن الثقافة المجلوبة تعاوننا على إنماء ثقافة الخلق والإبداع . ولكن الخطر اليوم على ثقافتنا الذاتية المبدعة الرفيعة هو تأثرها بالثقافة السطحية الرامية إلى تسلية الجماهير والممثلة فى ثقافة السينما والتليفزيون والراديو .

فالأديب الشرقى الذى أحرز قسطًا وافراً من الثقافة المجلوبة واستشعر فى نفسه نبوغًا يدفعه إلى الخلق والإبداع وفق أمثلة من الأدب العالمى ممتازة وكاملة ، هذا الأديب إذا لم يتنبه إلى الخطر المتربص به ، وانحرف عما كان يمكن أن ينتجه من أدب رفيع يتجاوب مع مختلف مشاكل الإنسان ، واتجه بأدبه نحو السينما أو التليفزيون أو الراديو ، فهو يهدر — ولا شك — نبوغه ، ويخون نفسه وأدبه ، بانحداره إلى القيم الرخيصة

الباطلة ، أى إلى تسلية الجماهير وما تجلبه التسلية من شهرة زائفة وربح هين وميسور . وعندئذ يعرقل هذا الأديب حركة التنوير الصحيح ، أى حركة الثقافة العضوية التى كان يجب أن تظل نابعة من عنصره النقى ومن ذاته السامية النزيهة ، تلك الثقافة التى لا قيمة للفكر إلا بها ، ولا رقى للجماهير إلا بوساطتها ، ولا رفعة لشعب إلا بالإخلاص لها والتضحية فى سبيلها .

تضحية وإنكار ذات

كلما كان الأديب متأهبًا لتوديع ملذات الحياة ، كان أقدر على تحقيق عمل عظيم .

وهذا ما أدركه عدد كبير من أعلام الأدب ، فانقطعوا لخدمة الفكر انقطاع النساك فى الصوامع .

فالروائى الفرنسى « بلزاك » كان من فرط إحساسه بقيمة رسالته وبما تفرضه عليه هذه الرسالة من واجب ، يحبس نفسه فى حجرته الأشهر الطوال ، عاكفًا على عمله ، باذلاً فيه عصارة قواه ، غير حافل بشئ المناعم التى كانت تصطخب حوله وتزخر بها باريس .

وكان الشاعر الروسى الفقير « لرمنتوف » يهرع إلى الريف فراراً من زحمة الحياة فى المدن ، ويظل هناك الأشهر بل السنوات عاكفًا هو الآخر على عمله ، آخذاً بأقسى ضروب التقشف والحرمان ، يأكل الخبز اليابس مغموسًا فى شاى أسود لا قطعة من السكر فيه .

أما القصصى « مارسل بروست » فكان يكسو أبواب حجرته بطبقة من الفلين كى لا تنفذ إليه أصوات البيت والشارع ، ثم يقبع فى الحجرة الأسابيع الطويلة ، منكبًا على العمل فى حرارة وحمية وإخلاص .

وأما « فلوبير » فكان مثال الأديب المتوحد المستوحش المنقطع لفنه ، لا يخرج من داره إلا نادراً ، ولا يلبى دعوة صديق إلا وهو كاره ،

ولا يستقبل أحداً إلا وهو حزين أشد الحزن على الجزء اليسير الثمين من وقته يسرقه منه ذلك الزائر .

فإنكار الذات كان شعار أولئك العظماء ، فلم يترددوا فى التضحية بمتع الحياة وهم رجال أقوياء تضطرم فيهم الميول وتحتدم الأهواء والرغبات . ولكنهم بهذه التضحية المقترنة بإرادة جبارة ، بهذه التضحية التى يجب أن يقتدى بها أدباؤنا ولاسيما الشبان ، أحرز أولئك الأعلام سعادة مزدوجة رائعة : سعادة إبداع الأعمال العظيمة التى كانت تراود أحلامهم ، وسعادة الإيمان الراسخ بأن تلك الأعمال ستصبح جزءاً من التراث الفكرى الخالد ، ولابد أن تسهم فى رقى الإنسانية وخيرها .

الحافز المفقود

يبدو لى أن فتور أو برود أو عقلانية أو خواء أدبنا من شعلة العواطف التى تلهب النفس وتكشف عن قوى الروح وتدفع إلى المجاهدة والصراع ومغالبة الحياة والتوق إلى التفوق ، يبدو لى أن هذا كله يرجع إلى أن معظم أدبائنا لم يعرفوا المرأة ، لم يعرفوا المرأة التى منها الشعلة ومنها الحافز ومنها المنطلق .

إنها اليوم أمامهم ، تعمل معهم ، وتتصل بالرجل على مرمى النظر منهم . ولكنهم عندما أرادوا أن يصوروها فى علاقتها بالرجل ، لم يصوروا من تلك العلاقة غير الجانب الحسى الشهوى الذى تخلف فيهم من وراثتهم الشرقية المتأصلة .

فلا عاطفة مشبوبة فى معظم أعمالهم — عاطفة تعلو على الجسد — ولا افتتان مجنون ، ولا عزم مغامر ، ولا يأس قاتل ، ولا روحانية سامية ، ولا فرح عظيم . كما أن لا صورة من ذلك الصراع الأبدى بين رجل وامرأة ، أو من ذلك التجاوب الوجدانى العميق بينهما ، ولا من أصداء هذا كله فى نفسيهما ، وفى حياة من يتصل بهما ، وفى الحياة الكبرى نفسها .

فالأخيلة فى هذا الأدب قل أن ترتفع ، ووثبات الشعر قل أن ترقى إلى أفق إنسانى خالص .

إن شطراً واحداً من الحياة هو مادة معظم أدبائنا ، شطر الرجل وحده ، عقله وحده ، شهوته وحدها ، شهوته التى تفصله عن الجانب المعنوى فى المرأة . فهو إذن مبتور الرجولة فيما يجب أن تكون عليه الرجولة من رحابة وامتلاء . إن رجولته تائهة فى غمرة الحواس ، تبحث عن توكيدها فى الشطر الناقص منها أى فى العاطفة الثرية . فتعجز عن العثور عليه . فتتوه فى أغوار أفكار وأحلام وشهوات لا يمكن أن تكون مادة عمل فنى خليق بهذا الاسم .

الخيال الكاذب

من الشعراء عندنا من لا يلبث أن يفكر فى قصيدة ، حتى يتخيل عاطفة ثم يصطنع الشعور بها ، ثم يسرع فينظمها ، بدل أن يوطئها كنفه ، ويصبر عليها ، ويتعمق خفاياها ، كى يجمع شتاتها ويحبسها آخر الأمر فى شعر صادق حى .

ومن القصصيين أيضاً من لا يلبث أن يتخيل موضوع قصة حتى يسرع ويكتبه . بدل أن ينصرف قبل هذا إلى تثقيف عقله ، ودراسة نفسه ومن حوله ، واختزان ملاحظاته وتجاربه ، يستمد منها لقصته عنصر الصدق ؛ أى عنصر الحياة والبقاء .

فالخيال لا الواقع هو الذى يجذب الكثيرين من أدبائنا .

وليس من شك فى أن الخيال سهل والصدق فى معالجة الفن صعب . ونحن نعلم بسليقتنا أنه إذا كان فى النظر إلى الحياة بعين الخيال الكاذب لذة ، ففى النظر إليها بعين الواقع الصادق معاناة وألم ، ونحن إنما نؤثر اللذة على المعاناة والألم ، ضعفاً منا وتلهفاً على السهولة واليسر ، وتخلصاً من الألم والمعاناة فى تحرى الصدق الذى يلقى بنا أمام حقائق الحياة وجهاً لوجه .

الرمز والتجربة

الرمز فكرة عن الحياة ، ولكنه ليس الحياة، والأديب المولع بالرمز يستعيض بالفكرة عن الحياة ، أى يختزل تجاربه فى الفكرة الرامزة ، بدل أن يصور تلك التجارب نفسها فى حرارتها وصدقها ونبضها الحى .

وصحيح أن الرمز يوسع دائرة تخيلاتنا وأحلامنا ويفتح لنا آفاقاً نستشرف منها على شتى معانى الوجود والحياة . ولكنه مع ذلك يحصرنا فى نطاق عقلى تجريدى ، ويتركنا نفكر ونسبح ونتصور على وقع أغرب ما يخالجنا من ميول وأهواء وشطحات . وعندئذ نحار ونتخبط ولا ندرى أى التأويلات هى التى يومئ إليها الرمز وتكشف لنا الستار عن قوانين جوهرية فى حياتنا . فلا نملك إلا أن نتهم الأديب بأنه إنما يأخذنا فى دوامة من الألغاز والأحاجى . فنشك فى أنه هو نفسه على وعى صحيح بأى مدلول كامل للرمز ، وفى أن لهذا الرمز جذوراً حقيقية تمتد إلى صميم الأشياء وتعبر فعلا عن تجارب الأديب وواقع الحياة .

فتصوير التجربة أثمن بكثير من الرمز ، والعظماء الخالدون فى تاريخ الأدب أمثال شكسبير أو بلزاك أو تولستوى أو دستويفسكى لم يحفلوا قط بالرمز . إذ الرمز كما ذكرنا يصدر عن العقل ، أما أدب أولئك العظماء فيعتمد على التصور المشرق الذى لا يفر من التجربة إلى الفكرة ، بل يصور التجربة كما هى مندمجة ومنتزعة من الواقع الحى .

حول الأدب الشعبى

يدعو فريق من أدبائنا إلى أدب شعبى ، ويرى هذا الفريق أن مهمة الأديب ، سواء فى القصة أم فى المسرحية ، هى تصوير الشعب ، وأن لا قيمة لعمل الأديب إلا إذا تمثلت فيه روح الطبقة الشعبية الكادحة ،

وما تعانى فى جهادها اليومى من آلام ، وما ينبغى أن تكون عليه من عزة ، وما يجب أن يتوافر لها من حق مشروع فى العدل الاجتماعى .

وهذا جميل . ولكنى مع ذلك أتساءل : هل كل أديب يمكن أن يكون قد عاش بين الشعب ، وهل فى مقدور كل أديب أن يعرف الشعب ، وكيف يمكن للأديب إذا كان قد نشأ فى بيئة بورجوازية أو إقطاعة أن يرسم لنا صوراً صادقة من حياة الشعب ؟ . . .

لا شك أن الأديب هو ابن البيئة التى نشأ فيها ، وهو انعكاس للمؤثرات التى تخلفت فى نفسه منها ، وانعكاس للمشاهد والوقائع التى يعرفها عنها ، والتى لا يمكن أن يكون فنانـًا صادقـًا إلا إذا صورها هى . . . .

وإذن فمن العبث بل من المستحيل أن نطالب الأديب بالصدق فى تصوير الشعب إذا لم يكن هو قد خرج من الشعب كمكسيم جوركى مثلاً .

وعندى أن ما يجب أن نطالب به الأديب هو أن يكون قبل كل شىء حرًّا ، وأن يصور لنا فى أمانة وصدق ما أحسه وعرفه وتمرس به فى أى وسط عاش فيه على شرط أن يكون « إنسانيًّا » فى نظرته إلى الحياة والناس .

ومتى كان الأديب فنانـًا نزيه العاطفة ، كبير القلب ، نبيل النفس ، واسع الأفق الإنسانى ، فهو حتى لو صور لنا بيئة إقطاعية عاش فيها ودرس أخلاق أفرادها وطباعهم ، فإنسانيته المقرونة بصدقه لا يمكن إلا أن أن تدفعه إلى تصوير تلك البيئة على حقيقتها ، أى فى أنانيتها ونفعيتها وقسوتها واستغلالها مما لابد أن يلهب فى صدورنا عوامل الثورة عليها ، فيلهب فى قلوبنا حب الشعب المكافح المحروم ، والشعور بآلامه ، وبالظلم الواقع عليه ، وبضرورة السعى لإنقاذه والارتفاع به .

فالحرية مندمجة فى النزعة الإنسانية ، هى التى يجب أن ننشدها فى عمل

الأديب . إذ هو كلما كان حراً ، وفى الوقت نفسه إنسانى العاطفة والنظرة إلى الحياة ، كان عالمى المنزع بفطرته ، عدواً للظلم نصيراً للشعب ، تواقاً إلى العدل ، كما كان « زولا » و « تلستوى » و « أناتول فرانس » و « رومان رولان » ، أولئك الأدباء العظام الذين لم يخرجوا من وسط الشعب ، ولم يكن فى مقدورهم أن يصوروا حقيقة حياة الشعب وآلامه ، ومع ذلك فقد كانوا إنسانيين مخلصين وصادقين ، فأحسوا تلك الآلام ، وأدركوا أن الطبقة الإقطاعية المستعلية هى المسئولة عنها . فحملوا على تلك الطبقة ، ودافعوا أحر وأبلغ دفاع عن حقوق الشعب .

فعلينا والحالة هذه ألا نلزم الأديب بالنزعة الشعبية إلزاماً . إذ الإلزام التعسفى لابد أن يحرمه من حريته ، ويشوش عليه فكره ومواهبه ، ويقسره على تصوير لون من الحياة ربما كان يجهله . فتنعدم فضيلة الصدق والإخلاص فى عمله ، فلا يكون قد خدم الأدب ولا يكون قد خدم الشعب .

العنصر الإنسانى فى الأدب

لكى يصبح الأدب المصرى القصصى فى مستوى الآداب العالمية الخصبة ، يجب أن يجمع بين عنصرين أساسيين هما : عنصر البيئة ، وعنصر الإنسانية ، أى اللون المصرى المحلى والحياة الرحبة الشاملة التى يحسها كل إنسان ، وتؤثر فى كل شعب فى أى زمن .

والواقع أن محاولة تصوير العادات والتقاليد المصرية السطحية تصويراً فوتوغرافياً ، أمر لا قيمة له ، إذا لم يستطع القصصى أن يلمس خلف العادات والتقاليد عارضاً نفسياً عاماً ، أو ظاهرة خلقية مشتركة ، أو نزعة وجدانية أبدية ، يستجيب لها القارئ الأجنبى أياً كان موطنه .

وليس معنى هذا أن يضحى الكاتب باللون المصرى فلا يخلعه على العمل الفنى . بل الغاية المثلى هى اقتران هذا اللون بالبواعث والحوافز

النفسية العميقة التى تتردد أصداؤها فى قلب كل إنسان .

وهذا هو السر فى عظمة الأدب الروسى مثلاً وتفوقه .

فنحن نلمح فى أعمال جميع أدباء الروس خصائص النفسية الروسية ، ومختلف الأخلاق والعادات الشائعة فى البيئة الروسية فى عهد معين . ولكننا نشعر أيضًا من خلال تلك الألوان المحلية بذلك الجوهر الإنسانى الخالد الذى يشترك فيه الناس جميعًا من أى شعب كانوا وإلى أية أمة انتسبوا .

وليس هناك شك فى أن الإنسان واحد مهما تنوعت الثقافات ، واختلفت البيئات ، وتباينت الأمزجة . وهذه الوحدة المشتركة هى أساس الفن وعنصره الرئيسى . وما العادات والتقاليد المحلية إلا الإطار الذى لا يجب أن يستغرق اهتمام القصصى : وإلا باعد بينه وبين الصورة ، وضيق آفاق عمله الأدبى ، وحبسه فى جو محدود ، وقضى عليه بألا يطالع فى غير البيئة التى أوجدته .

وهناك مشكلة أخرى من الخطورة بمكان ، وهى أن تلك العادات والتقاليد المحلية التى يفتن بعض كتاب القصة فى وصفها وتصويرها ، لابد أن تخف وطأتها أو تزول كلما تقدمت الأمة وقطعت أشواطًا جديدة فى ميدان التحضر . وعندئذ يخف أو يزول تأثير العمل الأدبى الذى اشتمل عليها .

وإذن فالعامل الإنسانى هو الذى يهب تلك العادات المتغيرة صفة الحياة بما يدمجه فيها من تأثير أبدى دائم ، وهو الذى يرتفع بالأعمال الفنية ، ولا يجعل منها مجرد آثار متحجرة صالحة للعرض فى متحف .

ولقد حدث أن مميزات البيئة التى رسمتها قصص « تولستوى » و« دستويفسكى » و« تشيكوف » فى العهد القيصرى قد اختفى الآن منها الكثير فى روسيا الاشتراكية ، وحلت محلها مميزات أخرى وعادات أخرى ، وتقاليد أخرى . ومع ذلك فما تزال تلك القصص باقية . لماذا ؟

لأنها قامت على العامل الإنسانى لا على الرغبة فى تصوير البيئة ومظاهرها فقط .

فيجب والحالة هذه ألا نسرف ، عندما نتكلم عن أدب القصة عندنا ، فى التعصب للون المحلى ، بل يجب أن تتجه قوانا ومجهوداتنا إلى إجراء ذلك التعادل المنشود بين اللون المحلى والحقائق البشرية الخالدة .

حول الأدب المكشوف

لا يزال الكثيرون عندنا يعتقدون أن كل أدب مكشوف لابد أن يكون أدب تبذل واستهتار ، ينزع إلى تصوير الأهواء الجنسية الصارخة والميول الحسية الشاذة ، ويؤدى إلى نشر الإباحيه الممقوتة . وهذا خطأ .

إذ الأدب المكشوف بمعناه الفنى شىء والأدب المكشوف الرامى إلى الإثارة الجنسية شىء آخر . فالأدب المكشوف بمعناه الفنى يسميه الغربيون « ناتورالزم » أو « ريالزم » ، أى رسم الطبيعة كما هى والواقع كما هو . أما الأدب المكشوف الرامى إلى الإثارة الحسية فقط فلا يعتبر فى نظر الغربيين أدبًا ، بل يطلقون عليه اسم « بورنوجرافى » للتفريق بينه وبين الأدب المكشوف الفنى السليم .

فالأدب المكشوف السليم هو مذهب يعترف بحق الأديب وحريته فى أن يتناول المسائل الجنسية والغرائز البشرية بالدرس والتحليل ، على أن يكون ذلك دون إثارة حسية متعمدة ، وفى حدود أدب القول وجمال الفن ، ما دام حسن النية رائد الأديب وتصوير الحقيقة الواقعية هو غرضه الأول والأخير .

وأبلغ دليل على هذا أن قصة « مدام بوفارى » لجوستاف فلوبير وهى من عيون الأدب الواقعى المكشوف السليم ، تصور لنا بعض انحرافات الخيال والجنس عند المرأة تصويراً فيه الدقة الكاملة والواقعية الحية . ولكنه لفرط توافر هذه النزعة الفنية فيه ولفرط اقترانه بأدب القول ونزاهة القصد

عند الكاتب لا يثير فينا أى انفعال جنسى وضيع أو رغبة شهوية منكرة .

وكذلك « لورانس » فهو فى قصة « عشيق اللادى شترلاى » يصور لنا من شئون الجنس أجزاء وتفاصيل قد تبدو نابية ، ولكن الكاتب لفرط اندفاعه فى الدعوة إلى فلسفة تنهض على العلاقات الجنسية الفطرية السليمة وفرط التزامه بالموضوعية التامة والدقة العقلية المتنبهة فى عرض صوره وأوصافه التى يضفى عليها حلة رائعة من الشعر ، لا يثير فينا هو الآخر أى إغراء شهوى ، بل يحملنا معه فى تيار واقعيته الصادقة ، فنؤخذ بها وبما يصاحبها من شعر وفلسفة ، فلا يعود لعامل الجنس أى تأثير سيئ علينا .

وإذن فـ « البورنوجرافى » هو اللون الرخيص الذى يرمى إلى الإثارة الجنسية . أما الأدب المكشوف الفنى السليم الذى أشرنا إلى مثالين منه ، فهو لا ينزع إطلاقاً إلى نشر التبذل وترويج الإباحية بل إلى دراسة الإنسان والكشف عن طبيعته ، وإماطة اللثام عن تلك الميول الخفية ، والغرائز الدفينة التى تسيطر فى الواقع على معظم اتجاهاته ومنازعه .

فمن الظلم ، بل من الجهل أن نقرن بين الأدب المكشوف الفنى السليم ، وبين هستيريا الشهوات التى ينشرها أدعياء الأدب من المرضى أو طلاب الربح على حساب الأدب والأخلاق . كما أن من الحماقة والتعنت الرجعى ألا نعترف للأديب فى حدود حسن النية وأدب القول بحريته المطلقة فى رسم أية صورة وفى معالجة أى موضوع . ذلك لأن الحرية بالنسبة للأديب هى المتنفس لفكره ، والحافز لعمله ، والينبوع الذى يستمد منه القوة للتطور بالفكر والمجتمع .

خيال حر

طغت موجة العقل على معظم الإنتاج القصصى فى أوربا اليوم . فأصبحت القصة ذهنية ، تمثل فكرة فلسفية عن الإنسان والحياة ،

أو تدعو إلى نظام اجتماعى معين ، وهذا ولا شك انحراف بفن القصة عن أصله . إذ كل عمل قصصى جدير بهذا الاسم هو وليد الخيال الخالق الحر المستمد من الواقع والمتصل دائماً به ، فإذا تدخل العقل فى الخيال الواقعى الحر بأفكار ونظريات فلسفية أو اجتماعية مهيأة فى ذهن القصصى من قبل ، فشخصيات القصة لابد أن تتشوه ، ولابد أن تتحرك لاوفق دوافعها الطبيعية من عواطف ومشاعر وانفعالات ، بل وفق إرادة القصصى الذى يقسرها قسراً على تأييد ما ينزع إليه من مذهب فلسفى أو هدف اجتماعى ، فتبدو لنا تلك الشخصيات أشبه بعرائس خشبية لا لحم فيها ولا دم ولا حياة .

وحيث إنها عرائس يعوزها النبض والاختلاج الحى ، فهى لا يمكن أن تقنعنا بصواب المذهب أو الهدف الذى يرمى إليه القصصى ، ما دام هذا المذهب أو الهدف قد اتجه نحو جانب واحد مقصود من الحياة ، وأغفل الجوانب المتعددة المتضاربة الأخرى .

ثم إن القصصى المكبل بالعقل ، أى بالمذهب الفلسفى أو الهدف الاجتماعى . لابد أن يفقد جزءاً كبيراً من شعوره الباطنى بحرية خياله الخالق أثناء عملية الخلق والإبداع . فيصبح هو نفسه موزع الشخصية ، مترجحاً بين الخيال والعقل ، بين النزاهة فى تصور الواقع وبين الغرض الذى يمليه عليه الفكر ، لا يستطيع أن يسلم غريزته إلى حكم الخيال الخالق الحر ، ولا يستطيع أن يتنكر لما هو مأخوذ به من حكم العقل والفكر . فيجئ عمله مفقود التوازن ، بل ملحوظ الافتعال والزيف فى جوهره ، أبعد ما يكون عن بساطة الحياة الظاهرة ، وأبعد ما يكون فى الوقت نفسه عن عمقها المتوثب المتضارب المعقد الذى يبدعه الخيال الخالق فى اندفاقه التلقائى الحر .

وهذا ما وقع لـ « سارتر » و « كامو » وأضرابهما . وهذا ما يجعلنا نحس فى قصصهم ، برغم طرافة شكلها ، ذلك النقص فى الإحاطة

والشمول . وذلك القسر المتعمد على تأدية جانب معين من الحياة ، هو الجانب الذى طغت فيه عليهم أفكارهم وآراؤهم ونظرياتهم الفلسفية المجردة التى استخدموا القصة فى الدعاية لها ، واتخذوا من القصة منبراً شعبيًا للتبشير بها .

والواقع أنهم فلاسفة قبل أن يكونوا قصصيين . ولكن الفلسفة مقيدة ومحدودة بمذاهبها ، أما القصة فهى الحياة الكبرى ، والحياة الكبرى طليقة ولا حدود لها .

وحدة وكمال

إن فن الأدب هو أبلغ معبر عما تصبو إليه نفس الأديب من انطلاق حر فى تصوير مشاعر الإنسان . ولكن عدو الانطلاق الحر فى العمل الأدبى هو التشوش ، وقيمة هذا الانطلاق فى أن يؤدى إلى وحدة .

فالاتجاه صوب الوحدة ، كما يقول « هيجل » ، هو الأصل فى روعة الأدب والفن . وهو الغاية المنشودة فى كل عمل أدبى فنى رفيع .

فالأديب الذى فى وسعه أن يصب فى عمله شتى ألوان التنافر والصراع بين الخيال والواقع ، وبين العقل والقلب ، وبين الرغبة والإرادة ، وبين مشتهيات الجسد وتطلعات الروح ، ثم يبذل قصاراه فى صياغة هذه الألوان المتنافرة المتناقضة بحيث تتلاءم فى العمل الأدبى ، وتتسق وتستحيل إلى وحدة فنية متماسكة وكاملة ، هذا الأديب هو الذى يبصرنا بالتناقض الكامن فى طبيعتنا ، ويغرينا بالتغلب عليه تحقيقًا لا تساقنا ووحدتنا ، أى تحقيقًا لقدرتنا على أن نعيش لا بالخيال فقط فيحطمنا الواقع ، ولا بالعقل فقط فيجف منا القلب ، ولا بالروح فقط فنحرم أنفسنا رغبات الجسد ، ولا بالجسد فقط فتعصف بنا الشهوات . بل نعيش بقوى الخيال والعقل والقلب والروح والجسد ، موحدة ومؤتلفة فى توازن وتعادل

وانسجام ، كذلك التوازن والتعادل والانسجام الماثل فى العمل الأدبى الكامل .

فوحدة العمل الأدبى الكاملة ، لا تبهرنا انبهاراً فنياً وجمالياً فقط ، بل تؤثر أيضاً فى أخلاقنا وطباعنا . فتسمو بنا ، وتغرينا بمحاولة الاتجاه فى حياتنا صوب الوحدة والكمال .

الشارح والخالق

الأستاذ الجامعى هو الذى يبسط ، ويشرح ، ويحلل ، ويرتب الأثر الفكرى بالقياس إلى غيره من مبدعات التراث الثقافى . أما المفكر الحر أو الأديب الفنان فهو الذى يخلق هذا التراث بعبقريته أو نبوغه .

ونحن كثيراً ما نخلط بين الشخصيتين ، بل كثيراً ما نؤخذ بالألقاب ونعلو بشخصية الأستاذ أو الدكتور الجامعى على شخصية المفكر أو الاديب النابغ الذى لا يحمل من المؤهلات غير تلك التى أغدقتها عليه الطبيعة فى سخائها المذهل .

وهكذا نضع الشارح فوق الخالق ، والاعتبار الاجتماعى فوق الإبداع الذاتى فنخنق النبوغ ونقتل العبقرية .

النقد عندنا

كيف يمكن أن نقدر إنتاجنا الفكرى ، ونفرق بين غثه ونفيسه ، وصحفنا اليومية لا تفرد ولو نهراً واحداً من أنهارها لنقد الكتب ، ومجلاتنا الثقافية الرفيعة لاتكاد تظهر حتى تختفى ، والقيم الأدبية عندنا فوضى ، والمجاملات تحجب الحقائق ، وتقارض الثناء بين أدبائنا أصحاب « الشلل » هو العرف السائد .

لا عناية بالنقد عندنا ، ولا وزن لقيم الفكر ، ولا رغبة صادقة أمينة فى هداية القراء . فكيف نستطيع حيال هذا أن نحقق عنصر المفاضلة بين

عمل أدبى وآخر ، وأن نبرز الأعمال الممتازة وندلل على ما فيها من جوانب الابتكار والتجديد ، بحيث نقنع الناس بقيمتها ، ونغريهم بالإقبال عليها ومطالعتها ؟ . . .

الواقع أن سوق الكتب عندنا أصبحت سوقاً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وليست حلبة تتبارى فيها العقول ، ويشرف عليها نقدة ممتازون ، منقطعون لغربلة الأعمال الفكرية ، ومشهود لهم بالثقافة الواسعة والنزاهة الخالصة والذوق السليم .

ولقد ترتب على هذا النقص الخطير فى نهضتنا أن اضطربت القيم واختلطت وتشوشت ، وأصبح الكتاب الجيد يضيع فى غمرة الكتاب الردىء . بل أصبح الكتاب الردىء أو المتوسط يقابل من الشلل الأدبية بإطراء بالغ لمؤلفه متى كان منتمياً إلى زمرتهم . فتغيب فى جلجلة هذا الإطراء المغرض ، جوانب النقص الملحوظة فى الكتاب ، والتى كان لابد من نقدها وإبرازها كى تتكشف القيمة الحقيقية للعمل الأدبى ، ويمكن للكاتب أن يتدارك جوانب نقصه فى أعماله المقبلة .

إن حياة الفكر مرهونة بوجود النقد . وقيمة الفكر لا تتأكد إلا فى ضوء النقد ، وتطور الفكر عندنا محال بدون حافز من نزاهة النقد .

افهم عبقريتك الشرقية

جمعتنى المصادفة بكاتب أوربى كان يزور مصر ، فلم يكد يتطرق بنا الحديث إلى الشرق والشرقيين حتى حمل الكاتب على الثقافة الشرقية ، واتهم العقل الشرقى بالهوس الدينى والتواكل القدرى والتجرد المطلق من الروح العملية ، ثم زعم أن العلم المادى التجريبى ، كما تفهمه الحضارة الحديثة ، دخيل على العقل الشرقى المولع منذ القدم بالأخيلة الدينية . ثم أفاض الرجل فى شرح نظريته ، وانتهى إلى القول بأن الشرق لفرط إيمانه بالقوى العلوية واستخفافه بسلطان الفكر البشرى ، انفصل

عن عبقرية الغرب ، وبات من المستحيل عليه أن يساهم مساهمة خلاقة فعالة فى تقدم الأفكار والعلوم المادية التى هى اليوم قاعدة الحضارة .

فالشرق فى نظر الرجل خيالى الفكر دينى النزعة ، والغرب عملى الفكر عقلى النزعة ، وهذا التناقض الذى كان ولا يزال قائماً بين اتجاهى الشرق والغرب هو سر تأخر الشرقيين وتخلفهم عن ركب الحضارة حتى اليوم .

ولقد أصغيت إلى حديث الرجل ثم قلت له :

صحيح أن الشرق خيالى الفكر دينى النزعة . ولكن أى شرق تقصد ؟ إذا كنت تقصد الشرق الأقصى وتحمل على العقائد الأسيوية التى تنفر من الحياة ، وتحتقر العمل ، وتنادى بخنق الرغبات البشرية وفناء الفرد فى فضاء « النرفانا » ، فقد تكون محقاً . . . على أن هذا الشرق الأسيوى نفسه قد استيقظ اليوم على الحياة العلمية الصناعية الجديدة . أما شرقنا نحن ، أى الشرق الإسلامى ، فلا تنطبق عليه نظرتك بتاتاً .

إن ثقافة الإسلام قد تفجرت من النبع نفسه الذى تفجرت منه ثقافة أوربا . فمزاج الإسلام ليس خيالياً بل هو أقرب ما يكون إلى المزاج الأوربى العقلى . وعندى أن الحضارة الإسلامية التى امتدت من جبال البرانس حتى الهملايا ، ومن الأطلنطى حتى الجانج ، كانت حضارة استمدت مقوماتها من الغرب أكثر بكثير مما استمدتها من الشرق . فالعلم العربى مدين للإغريق أى للغرب أكثر مما هو مدين لشعوب آسيا .

والواقع أن جهود « أرخميدس و « إقليدس » ومن جاء بعدهما من الإغريق هى التى استند إليها العرب فى مختلف بحوثهم الرياضية . أما « هيراقليط » و « بطليموس » فهما اللذان اهتدى بهما علماء الإسلام فى شتى البحوث الخاصة بالفلك والتى استنار بها فيما بعد « خريستوف كولمبس » نفسه .

وحتى فن العمارة الإسلامية فقد استوحاه المسلمون من أثينا وروما وبيزنطه . خلا بعض مؤثرات تافهة تطرقت إليهم من الفن الأسيوى .

أما الثقافة الإسلامية الفلسفية فكان يهيمن عليها فى العصر الوسيط عقل « أرسطو » . ولولا « ابن سينا » و « ابن رشد » وهما من تلامذة هذا الفيلسوف ، ما عرفت شعوب الغرب نفسها قيمة عبقرى الغرب أرسطو .

فالتبادل الثقافى كان عميقاً بيننا وبينكم . والتشابه الفكرى كان ملحوظاً ولا سيا فى العلوم والفلسفة .

فالشرق الإسلامى إذن ليس هو الذى تزعم . ونحن فى الحقيقة لا نشبه فى شيء قدماء الشرقيين الأسيويين الحالمين . نحن منكم . وليس فى نزعتنا ولا فى مزاجنا ولا فى تقاليد ثقافتنا ما يمنع العقل من الاتجاه فى طريق الفكر الحر . ولا ما يحول بين العقل وبين الإقدام على معالجة العلم . ولا ما يستبد بالعقل من ميول ونزعات تعصبية تفرق بين دين ودين وجنس وجنس .

فالاجتهاد مشروع عندنا . والبحث العلمى المادى قطع فى الماضى أشواطاً بعيدة بفضل علمائنا . والتسامح الدينى كان ولا يزال مفخرة من مفاخرنا . أما التأخر الذى كان ملحوظاً علينا فمرجعه إلى سببين رئيسيين :

الأول : سياسة الأجنبى المستعمر التى عصفت بنا ، وضربت رواقاً من الجهل الكثيف علينا ، وتركتنا القرون الطويلة فى ظلام دامس نرسف فى أغلال الذل والعبودية .

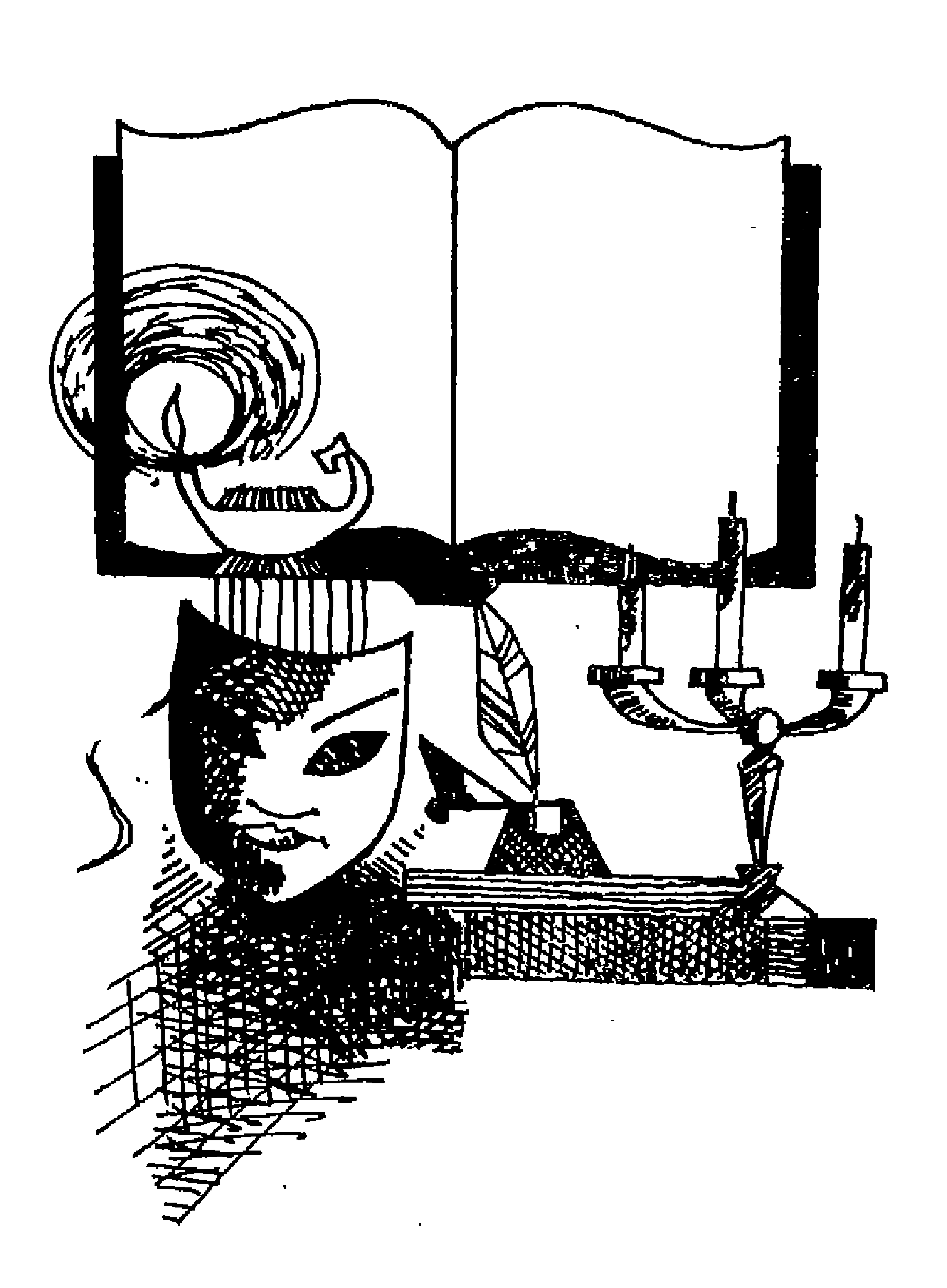
والثانى : سياسة الإقطاعيين من رجالنا الذين نسوا أو تناسوا أنهم منا . فاستبدت بهم شهوة المال وشهوة الحكم . فتحالفوا مع المستعمر الأجنبى علينا ، وأبقوا على جهلنا وعلى خرافاتنا وعلى انحطاطنا ، خشية أن تضطرهم يقظتنا إلى التضحية ببعض مصالحهم الغالية من أجل تقدمنا ورقينا .

فنحن اليوم نكافح ذلك الاستعمار الأجنبي لنؤكد حريتنا السياسية والاقتصادية الكاملة ، ونكافح بقايا النزعة الإقطاعية التى ما تزال تتربص بنا ، ونحقق العدالةا لاجتماعية المقرونة بالتحضر الصناعى والتى لا يمكن يرتفع مستوانا إلا بها .

وإنا لنشعر ونحن نمضى قدماً فى هذا الطريق ، أننا قد نفذنا إلى عالم الحضارة الحديثة ، لا لأن هذه الحضارة تمثل قوة جديدة غريبة عنا ، بل لأنها تمثل القوة التى أخذنا نحن بها ، وجاهدنا فى سبيلها ، وساهمنا فى ابتكارها وخلقها . فكأننا لا نعود اليوم إلا إلى بيتنا ، وإلى أسرتنا ، وإلى استطراد العمل الذى كنا قد شرعنا فيه وكان فى الواقع سر مجدنا وعظمتنا . »

هذا ما قلته للكاتب الأوربى ، وهذا ما يجب أن أذكرك به أنت أيها المواطن المصرى والعربى كى تكون على وعى بذاتك ، وعلم بماضيك ، ومعرفة بالاتجاهات الأصيلة فى ثقافتك ، فتنطلق فى طريق الحضارة الحديثة كامل الثقة فى نفسك ، مرفوع الرأس ، ثابت الخطى .

فى قيمة الفن



روح ألفة وسلام

فوق النظم وفوق القوانين وفوق ظواهر الحياة العارضة ، يخلق الفن جوهراً حراً طليقاً يخاطب النفس البشرية الخالدة . فالعادات تتطور ، والأخلاق تتبدل . والمجتمع يتحول ويتجدد . وآثار الفن الرائعة هى الباقية على مر الدهور والأحقاب .

إن ما يمتاز به الفن وما يجب أن نقدسه من أجله ، هو أن روحه روح إنسانية محضة ، أى روح تفاهم ومحبة واتحاد .

فنحن إذا ما ضمنا مجلس سمر . ثم اشتبكنا على الرغم منا فى أى نقاش يتعلق بحياتنا الاجتماعية المادية ، فقد تختلف منازعنا وأهواؤنا ، وقد يدب الشقاق بيننا ، بل قد تفشو فى قلوبنا الضغائن والأحقاد . أما إذا اختلفنا فى تقدير الفنون ، فمهما تعددت ميولنا وأذواقنا ، فمرجع اختلافنا لا يمكن أن يصدر إلا عن عاطفة حب الجمال ، وحب النوع ، وحب الحياة . وإن من يذود عن نظرة فنية ويدافع عن لون من ألوان الجمال ، يعلم علم اليقين أن لا سبيل لإقناع خصمه بوسائل العنف .

وأبلغ دليل على أن روح الفن هى روح ألفة وسلام ، أن العالم اختلف ويختلف على كل شىء . أما عبادة « شكسبير » و « موليير » و « بتهوفن » و « رامبرانت » وأضرابهم . فتلتقى فى محرابها القدسى كل الشعوب فى كل زمن .

فالفن هو العقيدة الإنسانية البعيدة عن التعصب ، وهو مجلى الحضارة ومطلبها الأول والأخير . والواقع أن كل إصلاح مادى غير مقترن بدعوة فنية حارة لابد أن ينشر فى الناس روح الأثرة الجنائية ، ويرجع بالإنسانية القهقرى .

قناع الفنان

كل فنان لابد أن يتقنع . وهو لو بدا ضاحكًا لاهيًا مهذاراً فهو مقنع . ولو بدا عابسًا مقطّبًا حزينًا فهو مقنع ، لن تعرف أبداً من هو لا فى الفرح ولا فى الألم . إذ هو فى الواقع حلم يمشى . حلم غامض بعيد فى رأس حائر عجيب . كل ما فيه مستغرق فى ضباب حلمه . أما الأفراح والآلام التى يبدو بها أمامك ، فهى من ظواهر جسده فقط ، تتعاقب على سطحه كما تتعاقب الموجات على سطح بحر .

الطبيعة والفن

ليست وظيفة الفن هى النقل الفوتوغرافى ، وليس غرض الفن محاكاة الطبيعة . الفنان يغزو الطبيعة ولا يحاكيها . أى أنه يفرض رؤيته الخاصة عليها بما توحيه هى إليه من صور وأشكال تؤكد تلك الرؤية وتقويها . فالفنان حر تجاه الطبيعة ، وهو يستخدم حريته ضد الطبيعة . ذلك لأن الفنان قد وهب روح إنسان ، أما الطبيعة فلا روح لها . وهى لن تنبض وتصبح ذات روح مميزة إلا بمقدار ما تتميز صورها وأشكالها النابعة من روح الفنان وخياله وتصوره .

ينابيع الوحى الثلاثة (١)

لا يستغنى فنان عن قوة روحية يستمد منها وحيه ، ويهتدى بهديها فى تفكيره ، ويستضىء بنورها أثناء عملية الخلق والإنتاج .

ولا شك أن الحياة بألوانها المختلفة وصورها الرائعة هى مادة الفنان ، ولكن الفنان محتاج لحافز معنوى يمكنه من الإشراف على الحياة ،

---

(١) نشرت هذه القطعة فى أحد أعداد مجلة « الهلال » ولكن الطابع أخطأ فنسبها إلى كاتب أجنبى فى حين أنها من قلم المؤلف .

والتأمل فيها واستجلاء غوامضها وتمثيل الظواهر والمرئيات وما يكتنفها من غوامض وأسرار فى حلة فاتنة من جمال .

فهذا الحافز يلتمسه الفنان عند الله أو عند المرأة أو يستمد عناصره من اعتداده بنفسه وثقته فى عبقريته وشدة إحساسه بكبريائه الشخصية .

فالله والمرأة والكبرياء هى الحوافز المعنوية الرئيسية ، وهى ينابيع الوحى العليا يعب منها جميع الفنانين كل بحسب استعداده ومزاجه ونفسيته .

فكبار المصورين والمثالين فى عصر النهضة مثلاً — ونخص منهم بالذكر « ليونارد دافنشى » و « ميكل أنجلو » و « رافائيل » وأضرابهم — كانوا يتوجهون بكل قوى عبقريتهم صوب الله ؛ وكانت نفوسهم مندمجة فى الذات الإلهية اندماجاً شبه صوفى يطبع ميولهم ونزعاتهم بطابع دينى ، ينعكس تأثيره على أعمالهم . ويتجلى فى حياتهم الشخصية وفى نظرتهم الفلسفية إلى الحياة .

ولقد كانت نزعة البراءة المقترنة برغبة السمو والتطهر والمنحدرة من أعماق الإيمان الدينى ، تستولى على عقولهم ومشاعرهم قبيل الإنتاج وبعده ، فتهذب من جوهر أرواحهم ، وتكسر من حدة غرائزهم ، وترتفع بهم فوق أدران المادة ، وتسوقهم إلى إبداع فن دينى علوى يرسم حياة أجمل وأكمل من هذه الحياة .

ومما يدل أبلغ الدلالة على أن الله كان مصدر الوحى عند أولئك الفنانين ، أن المثال « ميكل أنجلو » كان لا يستطيع الإقدام على عمل فنى جديد إلا بعد أن يخلو إلى نفسه فى حجرة موصدة مظلمة ، ثم يجثو على الأرض ، ثم يستغرق ساعات طويلة فى تأملات وصلوات حارة يحقق بوساطتها ذلك الاتصال الصوفى بينه وبين القوة الإلهية التى تلهب ذهنه ، وتوسع آفاق خياله ، وتنير أمام بصره وبصيرته طريق الجمال .

وأما « رافائيل » فقد كان لا يصلى فقط ، بل يصوم أيضاً ويظل يتعبد الأيام الطوال وهو يتأمل ويفكر . ومن غرائب ما سجله عنه معاصروه أن وحى الفن كان يهبط عليه هبوطاً عاصفاً مفاجئاً فى اللحظات التى يرهقه فيها الصوم وينشب الجوع فى أحشائه مخالبه .

ولقد كانت نظرة أولئك الفنانين إلى المرأة نفسها نظرة دينية طهرية . فقد أحب « ميكل أنجلو » سيدة إيطالية رائعة الجمال لم يقربها قط . وكذلك أحب « ليونار دافنشى » ابتسامة امرأة غير مكترث لسحر بدنها الناضج المغرى ، وكذلك أولع « رافائيل » بعذراء فاتنة ولعاً أفلاطونياً لم تلوثه الغريزة الجنسية ولم تتطرق إليه من الحواس أية شائبة .

فمن خلال وجه الله ، كانت هذه الطائفة من الفنانين تقدس المرأة وتمجدها .

على أن هناك طائفة أخرى أحبت المرأة لذاتها ، واتخذت من جمالها ورقتها وحنانها وعطفها ، مصدر وحى فنى عميق . فالمصور « ديلاكروا » مثلاً ، كان يهرع إلى معشوقته ويجلس أمامها ، ويتملى صامتاً من سحر عينيها ، ثم يثب إلى عمله متقد الذهن ، ملتهب الخيال .

وكان المصور « كورو » لا يستطيع التفكير فى لوحة جديدة إلا بعد أن يتلو على نفسه رسائل حبيبته ، ويذكرها ويتمثل صباها الناضر وصوتها الرخيم وجمالها الفتان .

وكان المثال « بورديل » يخرج إلى الحدائق العامة ويظل يرقب النسوة العابرات حتى إذا ما استرعاه من إحداهن لون من الحسن شائق طريف ، تبعها فى حذر ، وجعل يتفرس فيها ، ويلحظ فى أدب حركاتها وسكناتها ، وقد جاش قلبه وامتلأت نفسه بعاطفة أشبه بالحب سرعان ما تستحيل إلى وحى يتمثل فى عمل فنى رائع .

ومع ذلك فثمة طائفة ثالثة من الفنانين لا تستحث عبقرياتها النزعة الصوفية أو النسوية قدر ما يستحثها شعور الكبرياء والاعتداد بالنفس .

فالإيمان بالقوة الشخصية . والثقة بالنظرة المستقلة إلى الحياة والناس ، والإحساس بالتفوق فى الفكر والعمل . هذه المشاعر هى التى تستمد منها فئة الفنانين المستكبرين مصادر وحيها .

ولقد كان المثال العظيم « رودان » لا يفتأ يردد : « لست فى حاجة إلى امرأة تلهمنى الجمال والفن . ما على إلا أن أحنو على نفسى . وأخاطبها ، وأفتح مغاليقها ، وأنبش كنوزها . كى تتساقط على عناصر الإلهام أشبه بأضواء ساطعة تغمرنى . إنى لأشعر أنى عالم جُمعت فيه من أقاصى الأرض شتى العوالم . فما حاجتى إلى الحب ، وما حاجتى إلى ضعف المرأة واستبدادها . كلا . إن الطبيعة أودعت فى خيالى كل ما أنا فى حاجة إليه . وما علىّ إلا أن أنعم النظر فى نفسى كى أمجد قوتى وأوقظ الوحى الكامن فىّ » .

هذه مصادر الوحى الثلاثة عند الفنانين ، ولا ريب أنها جميعاً وثيقة الاتصال بجوهر الحياة . فحب الله يدفع إلى التطهر والسمو ، وحب المرأة يكشف عن منازع القلب والوجدان . أما حب النفس فهو فى مراتبه العليا ، شعور بالكبرياء النبيلة الخصبة التى يفيض منها الثراء على الغير ، فيدفع إلى توكيد الشخصية البشرية و بسط سيادتها على الحياة .

عالم الفنان

لكل فنان عالمه المستقل المبتكر . وما تعدد تلك العوالم الفنية واختلافها إلا المظهر الأسمى لغريزة البقاء تهددها الطبيعة بالفناء ، فتستفيق فيها إرادة التفوق ، فتجتهد فى التغلب على هذا الفناء بمضاعفة الشعور بالحياة من طريق الفن وهو يبدع للناس حياة جديدة عليا .

فالفنان وهو يخلق يثور على جرثومة العدم المسلطة على الإنسان . والواقع أن اليوم الذى تحركت فيه أقدام البشرية الأولى بالوثب والرقص وانطلقت من حناجرها بوادر الموسيقى فى نغم مطرب مشوش ، هو اليوم الذى أحست فيه البشرية بنقصها ، فأرادت أن تسجل فى فنون الرقص والغناء البدائية ثورتها على الألم والموت ، ورغبتها فى تجميل الحياة ومضاعفتها وتجديدها ، وحاجتها إلى عالم آخر غير هذا العالم الذى تعيش فيه .

فالفن هو خلاص البشرية من لعنة الأرض . هو صرخة الفرح الإنسانى منتصراً على الألم والقبح . هو الفرار من سجن المحدود إلى فسحات غير المحدود . هو تحقيق ذلك التطلع البشرى العجيب إلى مثل أعلى . ذلك التطلع الذى ما يفتأ يلازم كل فرد منا ، ويقض مضجعه ، وينزع به إلى حياة أرحب من حياته ، وأوفر انطلاقاً ، وأبعد أفقاً وغاية ومعنى .

فالفنان يخلق العمل الفنى ليطلق خصائصه الذهنية والوجدانية من عقالها ، ويحررها من ربقة الأوضاع والتقاليد ، ويتجه بها لا نحو الحرية الفكرية والاجتماعية فقط ، بل نحو الكمال أيضاً ، أى نحو ذلك المثل المعنوى الأعلى الذى ينشده الفن كما ينشده الدين ، والذى يلتقى فى محرابه الفنان بالقديس .

ولذلك امتزج الفن بالدين منذ القدم ، واستمد وحيه من شتى رموز الحق والخير والجمال التى نبعت من الدين ، أى من صورة الله الأبدية الكاملة التى تخيلها الإنسان واستجاب لها وفزع إليها بدافع خفى من حظه المجهول ونفسه المتألمة وروحه الظمأى .

الله والجمال

للإنسان حياة شخصية باطنية تنزع به فى أحيان كثيرة إلى أن يستقل بقلبه وروحه عن العالم . فإذا أحس فى تلك الأحيان أن القدر يأبى إلا أن

يطبق عليه ويحبس روحه فى سجن العالم ، فهو قد يهرع إلى الدين فراراً بروحه من سجنه ، أو يهرع إلى الفن ويرى فى الفن خلاصه .

فالدين والفن هما الحياة الباطنية للإنسان ، إذ ليس فى قدرة الإنسان أن يستغنى لا عن الله ولا عن الجمال .

شخصية الفنان

ولكن ما الفنان وما هى شخصيته ؟ . .

الفنان رجل محكوم بغريزته وتصوره وإلهامه، أى بمختلف الأخيلة والعواطف التى تجيش بها نفسه ويفجرها عقله المتوقد وبصيرته المشرقة .

فهذه الأخيلة والعواطف هى التى تقوده وهو يبدع العمل الفنى ، وهى التى يرغب فى تسجيلها وتخليدها فى العمل الفنى . بيد أن تصوير الأخيلة والعواطف ضرب من المحال . إذ ليس فى وسع أى فنان بالغة ما بلغت عبقريته أن يرسم أخيلته كما احتدمت فى تصوره تماماً ، وعواطفه كما اشتعل بها قلبه ووجدانه . ولو انه حاول فهو لا بدّ أن يراكم الظلال والألوان ، ويخلط بين الضوء والظلمة ، ويمزج بين الصورة المعبرة والصورة الغثة فيطمس معالم الصور جميعاً ، ويخنق تأثيرها ويمسخها .

وإذن فالفن لن يكون حقاً فناً ولن يرتفع إلى روعة التأثير واكماله ، إلا إذا نشب الصراع بين الفنان ونفسه ، أى إلا إذا غالب الفنان احتدام عواطفه وأخيلته جهده ، واستطاع أن يروض تلك العواطف والأخيلة ويكبحها ويحصرها ثم يتخير الصالح القوى المعبر منها ، ثم يبرزه وينسقه ويصقله ، بحيث يخرج العمل الفنى كالزهرة المتألقة السليمة ، فى ظاهرها نضرة الجمال المتكامل الأمثل ، وفى باطنها فوضى الطبيعة أى احتدام القوى الطبيعية التى أبدعتها ، والتى عرف الفنان كيف يضبطها

أسوة بالطبيعة التى تضبط نظامها وقوانينها وهى تختال أمام الناظر فى أبدع حلل جمالها وأغربها .

وهذا هو عمل الإرادة ، أى عمل العقل . وفن بلا إرادة وعقل هو الفوضى . فوضى الطبيعة بلا ضابط يحكمها ، وبلا قوة فى مقدورها أن تشعرنا بعمق تناسبها واتساقها ونظامها .

فالفنان العظيم هو الذى يسيطر بعقله وإرادته على عواطفه ومولدات خياله ، كما تسيطر القوة الأبدية على عناصر الطبيعة وتقر فيها النظام برغم احتدامها . ولذلك شبهوا الفنان بتلك القوة وسموه خالقـًا .

فالغرض من الفن والحالة هذه هو تصوير ما فى الكون والنفس من عواطف وأخيلة وأفكار ومرئيات ، راضها العقل ، وتحكم فى فوضاها ، وأضفى عليها حلة رائعة من جمال التناسب والنظام الماثل فى الطبيعة نفسها ، والمعبر عن الصورة أو القوة الجمالية العليا التى أوجدتها .

وهذا هو السر فى أن جميع الأعمال الفنية الخليقة بهذا الاسم توحى إلينا وتغرينا بفضائل ثلاث هى : الشعور بالقدرة البشرية ، والإحساس بتلك الصورة الجمالية الإلهية العليا ، والتطلع إليها باعتبارها قوة مثالية تجذبنا إلى محيطها ، وترقى بنا إلى نورها ، وتكمل نقصنا فى سمائها ، وتعزز فى نفوسنا شعورنا بالقدرة مقرونـًا بتلهفنا الروحى الأصيل على تحقيق عالم أمثل من الجمال والخير والحق .

وقديمـًا كان أرسطو يقول : « إن فن التراجيديا وهو يصور عواطفنا وميولنا وحكم القدر علينا تصويراً يسوده عقل الفنان المنظم ، يتغلب على تلك العواطف والميول ، بل على تصاريف القدر نفسها ، فيعلمنا نحن أيضـًا كيف نتغلب على مصيرنا ونحتمله ، وكيف نرتفع بهذا التغلب الإرادى ونسمو إلى مصاف الآلهة ! »

وما يصدق على فن التراجيديا يصدق على جميع الفنون وحتى على فن الموسيقى الذى يعبر بالنغم ، وفن النحت الذى يعبر بالحجر . ففن

الموسيقى هو أيضاً فن قدرة واستعلاء إذ هو فى محاولة التعبير عن انفعالات النفس بالنغم ، يخضع الأنغام المتنافرة لقانون التلاؤم والانسجام والوحدة ، أى يخضعها إخضاعاً رياضياً أساسه العقل والإرادة .

وأما فن النحت ، فهو ليس فن الجمود ، بل هو فن الحركة . فن التجرد من سلطان الزمن وسلطان الحركة . كى يثبت الزمن وتثبت الحركة ، فيصبح التمثال الفنى هو الزمن باقياً والحركة خالدة ، ضمهما الفنان بعقله وإرادته فى وضع واحد يشع بمختلف الأوضاع وتتراءى فيه وتنبعث منه كلما نظرنا إليه أبعد وأعمق تصوراتنا وأحلامنا .

فقيمة الفن العظيم إذن هى توكيده لنزعة السيادة فى أرقى مراتبها . السيادة على النفس ، والسيادة على الطبيعة ، فى محاولة إبداع جمال يثبت قدرة النفس ، ويجاوز حدود النقص الكامن فى طبيعة الإنسان .

لهذا يعتبر الفنان العبقرى ، كما يقول « نيتشه » ، المخلوق الوحيد الذى يرتفع بنفسه وبالحياة ، ويمثل فى اتقاد بصيرته وعقله ، وتوتر أعصابه وإرادته ، وقوة تغلبه وسيطرته ، فضائل الإنسان الأعلى أتم وأبلغ تمثيل .

نزعة الفن العصرى

الفن العصرى الأوربى ، ولا سيما فن الرسم أو النحت ، لم يعد يحفل بالنظرة العالمية بل يغلب عليها نظرة التفنن الفردية التى تنبعث من وعى الفنان الباطن ولا ترتد فى الغالب إلا إليه هو .

فهذا الفنان العصرى يقطع الصلة بالماضى ، وينطلق فى التفنن الفردى غير مكترث لمشاركة الجماهير فى فهم عمله الفنى وتذوقه . فهو لا يهتم بالقيم الأبدية بل يحصر اهتمامه فى أن يخلق لفنه عالماً جديداً واتجاهاً جديداً وصناعة تكنيكية جديدة ولو جاء فنه غريباً وشاذاً وخارجاً على كل مألوف .

وليس من شك فى أن المألوف الذى لا تجديد فيه والذى تبرز ألوانه فى وضوح يعوزه العمق ، غير جدير بفنان ممتاز . ولكن الفن الشاذ شذوذاً صارخاً هو فن يكتنفه ولا شك الإبهام والظلام ، ولا بد أن يبعث فى النفس الحيرة والتخبط والفوضى .

فالولع المفرط بالشذوذ فى التجديد والصناعة والتكنيك ، يجعل الفن العصرى مستغلق الفهم على الناس ومقطوع الصلة بواقعهم ، فيفقد بذلك قيمته كرسالة إنسانية يتأثر بها ويستجيب لها الجميع .

ومن المحال أن يستجيب الناس إلى فن من الفنون يضاعف من وحدة الفنان ويلقى بهم هم أيضاً فى هاوية التخبط والوحدة ، فن تغلب فيه نزعة التفنن العقلية الصناعية الموغلة فى الفردية ، على الأخيلة والعواطف والمشاعر التى يمكن أن ينفعل بها المثقف الممتاز وكذلك متوسط الثقافة ، فيلتقى الكل فى فهمها وتذوقها مهما اختلفت المنازع والميول .

فالتوفيق بين نزعة الابتكار والتجديد التى تتمثل فى شخصية الفنان وفرديته ، وبين ما هو جوهرى وأبدى فى الحياة ، ولو من خلال ألوان طريفة طرافة تبدو لأول وهلة غامضة ، أو من خلال ظلمة نيرة لا تكاد تثير الدهش والفضول حتى تحث على الفهم والتأمل ، وهى تحرك العقل والقلب والروح ، هذا التوفيق هو ميزة الفن الباقى ، وهو الذى يوثق الصلة بين الفنان والناس ، ويجعل من الفن رسالة إنسانية خصبة لا مجرد ألاعيب ذهنية شكلية تزول بزوال الموضة التى أشاعتها ولا يبقى منها على الزمن شىء .

الحكيم والفنان

الحكمة يجب أن تلازم الفنان . والفنان وإن كان هو الرجل العاصف إلا أنه ينبغى فى الوقت نفسه أن يكون الرجل الحكيم .

والواقع أن الحكيم والفنان لا يتنافران . وكما أن الحكيم يجب أن يحذر

الشطط فى الفكر ، كذلك الفنان يجب أن يحذر الشطط فى رسم العواطف ، وإلا جمحت به عواطفه فازداد اتقاد مزاجه العاصف ، فشوه الحقيقة وأحالها إلى مجرد وهم .

ولقد كان الفلاسفة الرواقيون يقرنون على الدوام بين شخصية الحكيم وشخصية الفنان ، ويقولون إن فضيلة ضبط النفس هى التى توثق الرابطة بين العقل والعاطفة ، وبين الفكر والانفعال . فتتولد منها فضيلة التوازن المثلى التى يجب أن يمتاز بها خلق الحكيم كما يجب أن يمتاز بها عمل الفنان .

الوهم والخيال

ليست الفنون وهماً كما يعتقد البعض . إنها خيال . والخيال شيء ، والوهم شيء آخر . الوهم يتغذى من نفسه ، فيستنزف نفسه ، فيختنق فى قبو الدماغ الملىء بالأشباح . أما الخيال فيصدر عن الواقع ويرتد إليه . وخيال الفنان، لفرط ما هو مندمج فى الواقع يصبح فى العمل الفنى حافزاً واقعياً إيجابياً يؤثر أبلغ الأثر فى العقل والقلب والوجدان .

خيال فريد

الفنان الأصيل مهما تمرس بالأعمال الفنية العظيمة ، ومهما تأملها وتعمق دراستها ، فهو لابد يحس مع ذلك أن فيها نقصاً ، وأنها ليست كما يجب أن تكون ، وأن شيئاً آخر أكمل منها وأروع يكمن فى خياله هو وفى تصوره هو .

فخياله المستقل لايفتأ يعذبه ، وهو لا يهدأ حتى يحقق هذا الخيال فى عمل فنى خاص . فإذا أبدع العمل وتأمله ، هاله الفارق بين حلمه وعمله . فتبرم أيضاً بعمله ، واستنكره كأنما هو قد خان نفسه فيه ، وظل يجرى وراء خياله الفريد وهو يتعذب .

تململ وطموح

حينما يقول الفنان متأففاً : « ماجدوى أى شيء » لا يكون فى الواقع قد برم بكل شيء ، بل يكون ، وقد اشتدت به عوامل الحيرة والقلق والطموح ، تواقاً إلى إبداع عمل عظيم يجمع فيه كل شيء .

شباب أبدى

الفنان أبدى الشباب ، وأهواؤه دائماً عنيفة ، وهى منجمه الذى يستخرج منه شتى الكنوز . ولا فن بدون هوى عنيف كما أن لا شباب بدون دم حار .

فالهوى العنيف يصدر عن حب عنيف للحياة ، وكل عمل فنى ينم ولا ريب عن هذا الحب العنيف للحياة ، حتى ولو أبدعه الفنان وهو فى غمرة يأس جارف من الناس ومن كل غاية أو قيمة أو معنى للحياة .

نضارة الأبد

إذا كان لكل فنان روح شاب ، ففيه أيضاً روح طفل تواق إلى استكشاف الجديد فى الحياة فى كل خطوة . وهو لو فقد روح الطفولة هذه ، فقدت أعماله نضارة الأبد .

امتياز الروح

الفنان الأصيل تبرز الطرافة فى عمله بدون أن يبحث هو عنها أو يفكر فيها . إنها امتياز روحه ، استخفى عليه، ثم تكشف فى عمله على غير وعى منه . أما الفنان الذى يسعى وراء الطرافة عامداً ، فهو يسعى إليها بعقله ، شعوراً منه بأن روحه ليست من الأصالة بحيث يطمئن إليها ويثق فى خصبها وثرائها .

ومن الناس من لا يقيِّم العمل الفنى إلا بقدر ما يشتمل عليه من طرافة عقلية شكلية معقدة تثير الدهش . أما البساطة الروحية الفطرية فلا تستهويه بل يستخف بها ، فى حين أن أثمن وأروع طرافة قد تكمن فيها كما فى أعمال الرسام « شردان » أو الأديب الفنان « تلستوى » .

البساطة فى الفن والحياة

البساطة فى الزى ، وفى مطالب الحياة ، وفى الفن ، هى الدليل البالغ على شخصية متفوقة فى الفكر والطبع ، تستنكر أن تنخذع وتخدع فتجرد الحياة من زخارفها الباطلة وتنظر إليها فقط من الأعماق .

ماء الينبوع

الفنان العظيم هو الذى يبدع لنا العمل الفنى مخفياً جهد الطاقة ما تكبد من مشقة فى وضعه ، بحيث يشعر نا كأنه قد نفض يده منه الساعة ، وكأن العمل الفنى ينبثق أمامنا انبثاقاً طبيعيّاً وحرًّا ، ويتفجر كما يتفجر الماء من ينبوع .

نجم وكارثة

للعمل الفنى الكامل روعة كروعة النجم ، وبطش كبطش الكارثة.

الشكل والمضمون

العمل الفنى الخليق بهذا الاسم ، يجب أن يحمل اللانهاية فى المضمون ، والنهاية الكاملة فى الشكل والأسلوب .

الإلهام امرأة

الفنان أو الأديب الحق لاينتظر ساعة الإلهام كى يعمل وينتج .

الإلهام متلون كالمرأة وزاخر بالنزوات مثلها . وهو قد يهبط اليوم على الفنان أو الأديب وقد يخذله أشهراً . فالعمل المتصل هو الذى يحرك مولدات العقل الباطن ، وهو باعث الإلهام وحافزه . والفن أو الأدب قل أن يثمر إلا بالعمل والإنتاج المنظم . ونحن لا نعرف أن أزمة عاطفية أو مالية أو عائلية بالغاً ما كان عنفها ، قد زعزعت أعصاب الشاعرين الكبيرين « جيته » و « هوجو » ، وأنستهما ما عليهما من واجب ، وصرفتهما عن الإنتاج المنظم اليومى .

عدو الفن

البؤس عدو الفن . ولا يعذب الفنان البائس الأصيل أكثر من عمل فنى يجب أن ينجزه ، لقاء أجر معين يكفل له القوت الضرورى .

عدو الجمال

من الناس من يحب أن يزين عقله وقلبه ، ومنهم من يحب أن يزين جسده وبيته ، ومنهم من لا يحفل بأن يزين فى حياته أى شىء .

الفنان يتحدى . . .

أروع الأعمال الفنية قد تندثر يوماً وتموت . ولكن الفنان سيظل يخلق ، متحديا بإرادة الخلق الكامنة فيه ، حكم الموت المحتم على الإنسانية بأسرها .

نظرتنا إلى الجمال . .

نحن مازلنا نحكم على الجمال لا بتناسب أوضاعه ، وانسجام خطوطه ، واتساق ألوانه ، وما يبعثه فى الفكر والنفس من روعة وسمو ، بل نحكم عليه من خلال معاييرنا الحسية أو الشهوية .

فالألوان الصارخة ، والأنغام الباكية النائحة ، والأساليب الأدبية الطنانة ، والنكت القائمة على المبالغة ، والأفلام والمسرحيات والقصص الشهوية المثيرة ، كل ذلك يذهلنا فنعتقد فى سذاجة أن التهاويل البهلوانية فكر ، والإثارة الحسية فن ، والانفعال العصبى العنيف هو الغاية من عمل الفنان .

والتبعة فى هذا تقع على عاتق أدبائنا ونقادنا ، إذ هم الموكلون بصقل الحاسة الجمالية الصحيحة عند الجماهير والارتفاع بها عن كل ما هو غث ورخيص ومبتذل .

آفاتنا الأربع

آفات مصر أربع : التواكل ، والبطنة ، والحشيش ، والموسيقى الشرقية .

فن الموسيقى عندنا

إن إرادة الحرية أشعرت الأمم العربية بأن لا حرية بدون علم ، ولا نهضة سياسية بدون نهضة أدبية وفنية تعززها . فاستطاع الفكر فى الشرق العربى ولا سيما فى مصر ولبنان أن يجدد الأدب بمختلف فروعه من قصة وشعر وتمثيلية ودراسة ومقال ، وأن يشرب الأدب روح الأساليب الأوربية الحديثة وينتقل به من دائرة التصور المطلق إلى فسحات الواقع الحى . وكما ارتقى الأدب فى مصر كذلك ارتقت فيها فنون الرسم والنحت ، واتجه أصحابها إلى الغرب أيضاً . فاقتبسوا منه الأوضاع والأصول وحاولوا التعبير بها عن النفسية المصرية خاصة والشرقية عامة .

وهكذا سايرت الآداب والفنون فى الشرق العربى تيار الغرب ، عدا فن الموسيقى الذى بقى جامداً تردد ألحانه صدى الماضى السحيق .

ونحن لا ننكر أن بعض الملحنين عندنا حاولوا ويحاولون تجديد

موسيقانا . ولكن أساليبهم فى التجديد تتناول العرض فقط ، والشكل فقط ، والتطعيم بالنغمات الأوربية فقط ، دون أن تمس أصول الموسيقى الشرقية ودون أن تحدث فيها أى انقلاب جوهرى .

فما السر فى تقدم الأدب وبعض الفنون عندنا وركود فن الموسيقى ؟ . .

الواقع أن هذه الظاهرة ترجع إلى سبب واضح وهو أننا قبل نهضتنا الحالية لم نكن قد عرفنا فنون الرسم والنحت والتمثيل المسرحى بمعناها الحديث . فلما أخذنا بأساليب الفكر الغربى فى الأدب ، نقلنا تلك الفنون أيضاً من مصدرها المباشر . فكان اقتباسها سهلا علينا ، وكانت هذه الحركة بالنسبة لنا شبه طفرة فصلت بين القديم والحديث .

وأما فن الموسيقى فكان قائماً عندنا . كان للشرق العربى فنه الموسيقى المعين ، ونزعته الموسيقية المستقلة التى تمكنت منه وتغلغت فيه وتأصلت فى نفوس أبنائه ، وخلقت لهم أذناً خاصة ومزاجاً خاصًّا وطابعاً متفرداً فى الإحساس والشعور .

فهذا الرسوخ فى الماضى هو الذى عاق تطور موسيقانا ، وهو الذى جعلها اليوم فى مؤخرة آدابنا وفنونا ، وأبقاها فى جوهرها فنّاً جامداً يشعر حياله الإنسان الشرقى الحديث باتساع الهوة بين عقله وإحساسه ، بين فكره ووجدانه ، بين ذهنه المتطلع وقلبه المتخلف ، بين ثقافته العصرية وتعبيره الفنى .

فروح الشرق الناهض الجديد لم تعد تعبر عنها موسيقاه .

والحقيقة أن الموسيقى الشرقية فى أوضاعها الحاضرة فن لم يخرج كثيراً عن طوره المألوف ، أو هى لم تصبح بعد فنًّا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذ يشترط فى كل فن صدق التعبير ، وتنوع غاياته ، واتساع أفقه ، وجمال تأديته ، ونبل وحيه ، وشيوع نزعة التسامى فيه .

فما هى غايات الموسيقى الشرقية وما هو وحيها وعم تعبر ؟ . .

نجيب فى صراحة أنها مجموعة من نغمات معينة رتيبة ، يسيطر عليها نداء الجنس ، وتنطلق من غريزة الجنس ، ولا تخاطب غير هذه الغريزة وشتى انفعالاتها .

فإذلال النفس أمام الحبيب ، وإطراؤه . وتملقه ، والتخنث من أجله ، واستجداء رضاه بالبكاء والندب والشكوى ، هى النغمات الرئيسية المتحكمة فى موسيقانا . وأما غايتها فواحدة لا تتبدل وهى الوصال ، أى التمتع بهذا الحبيب تمتعاً جنسياً مجرداً .

فالرقة والنعومة والحلاوة الشائعة فى تلك النغمات . تزيف علينا العواطف ، وتزيف علينا الشعر والجمال ، بينا هى فى صميمها شهوية الغرض حسية الغاية والمعنى . بل إن ما فيها من تثنيات متشابكة ، والتواءات متداخلة ، وتأوهات وزفرات وشهقات حادة متقطعة ، لترمز إلى النداء الجنسي وتعبر عنه تعبيراً فاضحاً منكراً لا يجاريها فيه غير رقص البطن البغيض المرذول .

فإذا كانت الموسيقى الغربية توحى إلينابصورة المعبد ، فالموسيقى الشرقية توحى إلينا بصورة الحان . وهى من هذه الوجهة تمثل نفسية الحان ورواده أتم تمثيل .

وأبلغ دليل على ذلك أنها لا تطرب السامع إلا وهى تفقده وعيه وتفصل بينه وبين ذاته ، وتغيبه فى لجة من الصراخ والهذيان والصخب والضجيج ، كتلك اللجة التى يغيب فيها وهو سكران . فتغريه بالخمر فعلا ، وتغريه بشهوة الجنس مقرونة بنشوة الخمر ، وتدفعه إلى التمتع باللذتين الساحقتين ، كى ينسى عقله وينسى نفسه وينسى العالم .

وإذن فليس هو الحب الذى تعبر عنه موسيقانا بل هى الشهوة الحسية . وما الحنين الممزق السارى فى نغماتها إلا حنيناً إلى الحرية . حنين الرجل الشرقى المستعبد القديم إلى الحرية ، حنين إلى كرامة الحرية التى كان محروماً منها ، وإلى المرأة التى كانت محجبة وكان يتلهف عليها ،

وإلى عاطفة الحب التى كان ينشدها فى المرأة وهو يتحسر تحسراً مريراً لعجزه عن الشعور بها .

فالحسرة على حب مستحيل التحقيق فى مجتمع كان مستعبداً وكان يفرق بين الجنسين ، هى التى ما تزال تخلع على موسيقانا ذلك اللون من الشكايات الأليمة الذى يسميه البعض « شجى » ، وما هو فى الواقع إلا صدى استعبادنا القديم ، ورمز عجزنا عن الحب الوجدانى عجزاً ضاقت به نفوسنا فتحولنا به فى موسيقانا إلى محيط الشهوة ، نغرقه فيها ونتخلص منه فى عبابها .

وليس بعجيب فى الموسيقى الشرقية أن الرجل يطرب الناس حين يغنى ألحانها أضعاف ماتطربهم المرأة . فالألحان فى أصلها بكاءة نائحة ، والرجل القوى إذ يؤديها وهو يتخنث ويتأوه ويشكو ويبكى ، يوقظ فينا إحساسنا القديم بالعبودية والحسرة ، ويؤثر فينا أكثر من المرأة التى يفرض فيها الضعف . وهكذا نرضى بأن نرتد بالحسرة إلى ماضينا ، وأن نبصر الرجولة تستذل أمامنا كى يستخفنا الطرب ونشعر بالتأثير العميق .

وأما الطرب فى الموسيقى الشرقية فهو طرب « سماعى » ، يلذ على الآذان وقعه ولا يجاوز كما قلنا حد الحواس لينفذ إلى القلب . وأما التعبير عن الحب وعن العواطف المتنوعة المتضاربة المتفرعة من الحب كالحيرة والقلق والأمل والحلم والغيرة والخيبة والكراهية والثورة والانتقام وغيرها فموسيقانا لاتوحى بها ، ولا تكشف الستر عنها ، ولا تحاول أن تصورها كى تعبر عن الحب فى مجموعه الإنسانى الأبدى تعبيراً منوعاً شاملا .

والحق أن التعبير المنوع ليس هو الهدف الذى ترمى إليه موسيقانا وإنما الهدف هو التعبير السماعى القائم على تأدية انفعال واحد ممثل فى نغمة مطربة واحدة أو فى عدة نغمات مطربة معينة .

فالملحن عندنا والحالة هذه ، لا يسجل من الحب غير مظهر التوسل والشكاية والسلبية والضعف ، مكتفياً بهذا المظهر وحده ، ومعتبراً إياه أصدق وأكمل صورة لعاطفة الحب .

على أن الملحن وإن أدرك بإلهامه أن الحب مجموعة عاطفية جياشة بالأهواء والميول المتنوعة المتمايزة ، وحاول أن يصور هذا التنوع فى موسيقاه فهو لن يجد من أصول الموسيقى الشرقية وقواعدها ما يعاونه على تحقيق التعبير المنوع الذى اهتدى إليه ببصيرته .

ومما يؤيد رأينا ، ذلك الفارق الملحوظ بين ألحان موسيقانا وبين معانى كلمات الأغنية المقترنة بهذه الألحان

فكلمات الأغنية قد يكون فيها ما يعبر ولو عن بعض مشاعر الغيرة مثلا كالغضب والاستنكار والحنق والحقد . ولكن الملحن لا يحفل بتأدية هذه المشاعر إطلاقاً . فترى اللحن ينزع إلى غاية وكلمات الأغنية إلى غاية أخرى ، بحيث إنك لو أبدلت تلك الكلمات بغيرها وركبت عليها الألحان نفسها ، ما أحدث هذا التغيير أى أثر فى القطعة الموسيقية ولظلت الأنغام مستقلة لا تعبر إلا عن الغرض الذى قصد إليه الملحن بصرف النظر عما قصد إليه الشاعر واضع كلمات الأغنية .

ومرجع هذه المهزلة كما ذكرنا إلى نزعة الطرب السماعى المتسمة بها موسيقانا ، وإلى تسلطها على وجدان الملحن ، وإلى اعتقاد الملحن أن الطرب المنشود يصدر عن لحنه هو ، وعن مبلغ قدرته فى التوفيق والملاءمة بين العقد والالتواءات والمحطات ومختلف ضروب « العفأ » ، لا عن قدرته فى التعبير عن معانى كلمات الأغنية وتصويرها جاهداً بألحانه .

فالأنغام المطربة المحددة التى يعرفها الملحن ويعرف تأثيرها المكفول فى الجمهور ، هى التى يصبها بنسب وأساليب مختلفة على كل لفظ وكل كلام مهما تباينت أغراض الكلام وتنوعت معانيه .

وهذا هو السر فى أن موسيقانا آلية متشابهة ، بل هذا هو السر فى السخط الذى يبديه شبابنا المثقف على كل تلك الأغنيات التى لا تفتأ تتكرر أنغامها فى ركود مذل للنفس مثير للأعصاب .

يسخط المثقفون ويشتد بعضهم فى السخط لشعورهم بأننا أصبحنا اليوم أرقى من موسيقانا .

لقد تقدمنا فلم تلحق الموسيقى بنا ، وتطورنا فتخلفت عنا ، وتنوعت ميولنا وإحساساتنا وما تزال موسيقانا راسبة جامدة لاتنقع غلة أرواحنا .

وقد تكون هذه الموسيقى فى وضعها الحالى متفقة ونفسية الجماهير المتخلفة من شعبنا ، ولكن وظيفة الفن أن يرتفع بالجماهير لا أن ينحدر إليها ، أن يجدد إحساسها وشعورها لا أن يمالئها على ذوقها ومزاجها . غير أن الملحن عندنا أسير الجماهير وأسير المصلحة . يضع من الألحان ما يرضى تلك الجماهير ويدر عليه المال ، ثم يأبى إلا أن يفرض ألحانه على الشعب كله باعتبارها فناً قومياً يعبر عن روح الشرق ويحمل طابعه .

بيد أن الشرق الناهض لم يعد يؤخذ بهذه الألحان ، ولم يعد ممثلا فى هذه الموسيقى . فإذا نحن أبقينا عليها وأغضينا الطرف عنها وخدعنا بواجب الحرص على لونها الشرقى المزعوم ، عطلنا نهضتنا وغررنا بأنفسنا وبالناس .

فواجبنا اليوم أن ندعو إلى فن موسيقى جديد . فن يمثل نهضتنا ويساير تطورنا ويعبر عن المستحدث العميق من أهوائنا وميولنا .

نحن لم نعد سلبيين ، ولم نعد أذلاء متواكلين . لم نعد نقنع من الحياة بالتأمل الأجوف ، والحلم الباطل ، والرخاوة العابثة المستسلمة . لم نعد نقنع من المرأة بالأنثى ، ومن الحواس بالشهوة ، ومن الحب بألوان التحرق وظواهر التوجع وصنوف التوسل والتضرع والابتهال .

إن فينا لقوى إيجابية تتحرك وتنطلق وتعمل . ونحن بعد هذا أناس كغيرنا ، لا نتوسل فقط عندما نحب ولا نشتهى فقط ونبكى ونستبكى ، بل ننفعل ونفكر ، نغار ونحقد ، نثور ونتمرد ، نسمو أو ننحط . فهذه العوامل جميعاً وما يتصل بها ويتفرع منها يجب أن تترادف وتتآلف

وتتمثل فى القطعة الموسيقية العاطفية الجديدة بأن تحمل اسم الفن .

ولا سبيل إلى تحقيق الفن الجديد بهذا الاسم فى موسيقانا إلا بهجر نظام الطرب السماعى أى « الميلودى » ، والأخذ بموسيقى الغرب ونظامها القائم على « الهارمونى » ، أى التعبير عن جملة عواطف وانفعالات متباينة يوفق الملحن بين أنغامها المتنافرة ويجمعها فى وحدة حية متماسكة ومنسجمة .

تلك هى قيمة الفن الموسيقى الرفيع ، وهذا هو النظام الذى نحتاج إليه ، وما دمنا لم ندخله بعد على موسيقانا ، فلا يمكن أن نسميها فناً ، إذ فن الموسيقى هو انفعال الروح بوساطة التعبير العاطفى الشامل ، لا طرب الأذن فقط بوساطة البراعة البهلوانية فى صناعة « أرابسك » زخرفى معقد من الأنغام .

وقد يتوهم البعض أن إدخال نظام الهارمونى على موسيقانا يفقدها طابعها الشرقى . ولكن الأتراك أدخلوه على موسيقاهم فتجددت واتسعت آفاقها وظلت مع ذلك تركية صميمة .

وأما الموسيقى الروسية والأسبانية فهى أيضاً غربية الأوضاع . ومع ذلك ففيها الطرب الشرقى إلى جانب مختلف ضروب التعبير ، وفيها الميلوديا الشرقية مندمجة فى الهارمونى ، وفيها من رقة الشرق وعذوبته ، وعنف عواطفه وانفعالاته ، وروعة تطلعاته الدينية ونزعاته الصوفية ، ما يعبر عن روحه أصدق وأعمق تعبير .

فنحن لن نفقد خصائصنا الشرقية إن جددنا موسيقانا ، بل نوسع أفقها وخيالها ، ونعزز خصائصها ونؤكدها ، بشرط أن نتخذ من قواعد الموسيقى الغربية وسيلة للابتكار لا للتقليد ، وللإبداع مقطوعات يتجلى فيها روحنا الشرقى على وضع أرحب وأكمل وأغنى .

وأما تلك الطائفة من ملحنينا التى تزعم أنها تنزع نزعة عصرية وأنها تبتكر وتجدد ، فتجديدها لا يتمثل حتى الآن إلا فى ترقيع النغمات الشرقية

المطربة ببعض النغمات الأوربية الشائعة ، دون توفر سابق على دراسة أوضاع الموسيقى الغربية ودون إحداث أى انقلاب جوهرى فى موسيقانا . وهكذا يسفر هذا الترقيع أو التجديد الزائف عن وضع قطع موسيقية ذات أنغام مشوشة متناكرة لا رابط بينها ولا وحدة ولا انسجام فيها . أنغام لا ترقى إلى مستوى التعبير بالمعنى الفنى الذى بسطناه ، بل تؤدى على النقيض إلى مضاعفة تأثير النغمة الشرقية السماعية المطربة التى ألفناها ، بفعل التأثير المعاكس النابى الذى يحدثه فى نفوسنا ذلك النغم الأجنبى المحشور فى القطعة حشراً والذى لا يمت فى الواقع إلى مجموعها بأية صلة .

وعندى أن من أفضل الوسائل التى يجب أن نأخذ بها كى يألف جمهورنا النغمة الغربية الوجدانية المعبرة ، أن نبدأ باختيار بعض الأغنيات الأجنبية العاطفية الخفيفة التى يتفق شىء من لونها الموسيقى مع طابعنا ومزاجنا ، ثم نضع لتلك الأغنيات كلمات عربية تنسجم ولحنها ، ثم نعهد بغنائها إلى نفر من مطربينا ذوى الصوت العريض الذى يصور العاطفة فى امتدادها الطليق واندفاقها الحر ، لا الصوت الشرقى الضيق الذى « يعفأ » النغم ، فيخنقه ، ويخنق العاطفة ، ويحول بينها وبين ذلك الانطلاق الطبيعى الحر .

وهكذا تأنس أذننا الشرقية اللحن الأجنبى ، فنألفه شيئاً فشيئاً فنستطيع أن نتدرج ونتذوق الموسيقى الغربية الرصينة ، مما يعاون الملحن المصرى على التطور بموسيقانا وصبها فى القالب الغربى ، بحيث تصبح فناً شرقياً وإنسانياً فيه التعبير الصادق الكامل عن مختلف مشاعر القلب والوجدان .

* * *

هذه لمحة فى دراسة سيكولوجية الموسيقى الشرقية ، أردنا بها لفت النظر إلى مافيها من قصور وتخاذل ، وإلى ضرورة أخذها بانقلاب يجددها ويرفعها وينفث فيها روح الفن والجمال والحياة .

من هو الفنان ؟ ...

سمعت هذه العبارة من المثال المصرى النابغة « مختار » :

إن الذى يشتغل بيديه هو العامل ، والذى يشتغل بيديه وعقله هو الصانع . أما الذى يشتغل بيديه وعقله وقلبه فهو الفنان !

الروح المصرية
فى فن المثال محمود مختار

عرفته فى مقهى « ريجينا » بشارع عماد الدين ، رجلا جم النشاط ، وافر الحيوية ، لماح الفكر ، سريع البادرة، لايكاد يتحدث عن فنه حتى يتقد صوته ، ويشرق وجهه ، وتتسع حدقتاه ، وتلتمع فى عينيه الحالمتين ، بوارق خاطفة من تلك الشعلة المقدسة التى تضطرم نارها فى قلب كل فنان موهوب وعقله .

وكان يصحبه الشيخ مصطفى عبد الرازق ، الرجل الوديع الرقيق المصقول الذى أكسبته الثقافة الفرنسية والحياة الطويلة فى باريس ، دقة فى الفكر ، ونعومة فى الذوق ، وأناقة فى المظهر ، ومنطقاً فى الجدل والنقاش .

وأخذنا نتحدث عن كبار المثالين الفرنسيين ولا سيما عن « بورديل » و « رودان » . فأطرى الشيخ مصطفى أعمال بورديل ورفعها إلى القمة . فاعترضه مختار ، وأثنى على هذا الفنان الكبير . ولكنه آثر عليه « رودان » ، واعتبر فنه نفحة من نفحات عصر النهضة ، وقبساً من روح « ميكل أنجلو » .

واشتد النقاش بين الرجلين . ثم صمت مختار فجأة وأمعن فى التأمل والتفكير . ثم قطب حاجبيه ، وشرد ببصره ، ونطق بهذه العبارات ، التى استشعرت أنا وهو يرسلها فى بطء وإصرار ، أنها تمثل اتجاهه ومنزعه والغاية البعيدة التى ينشدها لفنه . قال : « الواقعية الحية المقترنة بالقدرة على التعبير عما هو قوى وجليل ومنبثق من تربة الفنان ومن الطبيعة الحرة فى جوهرها الثابت الأبدى ، تلك هى عظمة « رودان » ، وذلك هو المثل الفنى الأعلى . »

فانبهرت أنا ، ووجم الشيخ مصطفى ولم يسعه إلا أن يقتنع ويسلم . ثم نهض معتذراً وحيانا وهو يشد على يد مختار ، ويعرب له عن خالص

إعجابه بذكائه ، وعن ثقته العميقة فى نبوغه ومستقبله .

وانصرف الرجل ، وتشبثت أنا بمختار ، وأبيت إلا أن أدعوه لتناول طعام العشاء فى بيتى . فلم يتردد . وسرنا الهوينا وأنا متأبط ذراعه ، وهو يتحدث إلى فى الفن ويلقى علىّ مقطوعات من الشعر . فراعنى منه أنه فنان وفى الوقت نفسه أديب وشاعر ، لايلبث أن يحس عاطفة مفاجئة وغلابة حتى يسرع ويرسمها فى مقطوعات من الشعر المنثور تختلج صدقاً وحرارة وحياة .

ودخلنا البيت ، ونفذنا إلى حجرة مكتبى . فلم تتمهل والدتى ، واندفعت إلى المطبخ ، وأعدت لنا قرصاً كبيراً من العجة ، وبعض شرائح من اللحم المحمر ، وطبقاً من البطاطس المقلى . ثم جاءت بها إلى الحجرة فى صينية كبيرة وضعتها فوق منضدة . فشكرها مختار وشرع يأكل . ولكنه كان يأكل وهو لا يرى ما يأكل . كان تائهاً فى فكره ، سابحاً فى حلمه ، يزدرد الطعام ازدراداً . وعينه الحائمة الثاقبة تنظر إلى مختلف الصور التى زينت بها أنا حجرة مكتبى ، والتى كان بعضها للمصور « ماتيس » وآخر لـ « اسلان » وغيرها لـ « فان دونجن » . و« مانيه » .

وكان مختار يتأمل الصور ولا يفتأ يعلق عليها ، مبرزاً جوانب الفن فيها مميزاً بين أسلوب هذا وطريقة ذاك ، ممعناً فى التحدث عن مدارس الرسم المتباينة كأنه بطبعه ومزاجه مصور لا مثال .

وفجأة طرق الباب ، ودخلت امرأة صعيدية من قريبات والدتى . فلمحها مختار ، فثبت نظره فيها ، ووقعت من يده قطعة الخبز ، وظل يحدق إلى المرأة شبه مأخوذ . . .

وكانت المرأة فلاحة بنت فلاح ، متشحة بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ، ذات وجه بيضاوى أسمر دقيق التقاطيع مشرب بحمرة خمرية ، عريضة المنكبين ، ناهدة الصدر ، نحيلة الخصر ،

منصوبة القامة فى عزة راسخة تلطفها ابتسامة ناضرة ، ونظرة ساذجة ، ولفتة رشيقة بريئة ملؤها الخفر والتحفظ والاحتشام .

ولبث مختار يتأملها عن بعد كأنما هو يُشربها خياله ، أو كأنها قد استجابت لما فى ذهنه من خيال . ثم مال إلىّ وهتف : « هذه الفلاحة هى بنت أرضنا . هى ثروتنا وعمادنا . هى روحنا وعبقريتنا ووحينا . إنها هى التى تحتل خيالى . ولن يقرلى قرار حتى أبدع منها حلمى المرتجى وفنى المنشود » .

ثم انصرف ، واحتجب عنى وعن أصدقائه ، وسافر إلى باريس حيث عرض فى معرض الفنانين الفرنسيين تمثالين بديعين هما « لقية فى وادى الملوك » و « كاتمة الأسرار » ، فتألق نجمه ، وفاز بإعجاب نقاد فرنسا الذين رأوا فيه فناناً مصريًّا صميماً يحمل طابع جنسه وعنصره .

جالت بذهنى هذه الذكريات وأنا أطالع الكتاب الفذ الذى وضعه عن حياة وفن مختار ابن شقيقته الأستاذ الأديب بدر الدين أبو غازى .

والحق أن الكتاب يمتاز بأسلوب جزل وشائق ، وتحليل دقيق وعميق ، ونظرات جامعة وشاملة تصب ضوءاً ساطعاً على شتى الخصائص الفنية التى تفردت بها أعمال مختار .

وأبرز هذه الخصائص هى المصرية العريقة الصادقة ، استلهمها مختار من ريف مصر الذى نشأ فيه ، أى من أرض مصر وسمائها وفلاحيها وماضى حضارتها المجيد .

والواقع أن مختار تأمل ودرس هذه الحضارة ، واستوعب الفن الفرعونى ، وحاول برغم القرون التى تفصله عنه أن يجدد تقاليده بأن يودع فى تماثيله هو ذلك السكون الفرعونى الخالب وما يوحى به من مشاعر العزة والجلال والنبل .

على أن السكون ليس هو الجمود . ففن مختار نابض بالواقعية والحياة ،

وتماثيله خطوط محكمة ، تتزاوج مع الشكل ، وتبرز الملامح الأساسية لكل تمثال . أما سطوحه فيتخللها النور ، وأما أسلوبه فيكاد يبلغ حد الكمال فى البساطة والإيجاز مقترنين بذلك الجلال الفرعونى الساحر :

ففى تمثاله « إلى النهر » ، تلوح فلاحاته وهن فى طريقهن إلى النهر وفى عودتهن منه ، نابضات بالحركة والتوثب والشباب . وفى تمثال « امرأة شيخ البلد » ، نحس فى تعبيره العظمة والنبل ، وفى تشكيله تلك البساطة التقليدية التى تحفظ للتمثال كل طاقته الموحية . وفى صياغته ، ذات الخطوط المتناسقة المتناغمة ، ذلك الإحساس الدينى النابع من النفس الصافية والمقترن بالحركة اليومية الواقعية فى ارتعاشها الطبيعى المذهل :

وفى تمثال « نحو الحبيب » نرى العروس الشابة متجهة نحو حبيبها وفى جسدها نضرة صباها ، وفى ردائها بساطة حياتها ، وفى حركتها المسحة المصرية نفسها من العزة والجلال . وفى تمثال « مناجاة الحب » نرى العاشق الفلاح يتطلع إلى معشوقته بكل ما فيه من عنف العشق المنبعث من انجذاب فطرى وحسى مخبل ومتضرع ، على حين تبتسم المعشوقة له وترمقه بنظرة جانبية هادئة وفاحصة ، ومع ذلك متشككة وغير مصدقة ، وفى الوقت نفسه مبتهجة وراغبة .

هذا التمثال فى عرفى طرفة ، وكذلك تمثال « على شاطئ النيل » : ففيه يمثل مختار فلاحة تحمل جرتها على رأسها ، ويلوح فى حركتها أيضاً وفى توازن خطوط تشكيلها ذلك النبل الرائع المصرى الأصيل .

وليس من شك فى أن الفلاحة حاملة الجرة التى ظلت على مر العصور تخطر بخطوات كأنها النغم المردد على ضفاف النيل ، تبدو لنا اليوم وقد مثلها مختار فى همسها وبساطتها ورقتها ومرونة أعضائها تحت الخطوط المستقيمة لردائها ، أكثر قرباً منا ، وأبلغ فى التأثير علينا من التماثيل الضخمة التى كانت تقام خارج المعابد الفرعونية .

وأما تمثال « نهضة مصر » وهو صرخة البعث والإيمان منطلقة من صدر

مختار ، فنرى الفن الفرعونى واليقظة الوطنية المصرية ممثلين فيه خير تمثيل . فالمرأة واقفة فى اعتداد تستند بيدها على رأس أبى الهول ، وترفع باليد الأخرى الحجاب الذى كان يعزلها عن العالم ، وتتجه بوجهها صوب المستقبل فى عزة وثقة ، وعلى ملامحها جلال تضفيه ذكريات الماضى ، وفى نظرتها إرادة منبعثة من شباب مصر الخالد ، وبجوارها أبو الهول ينهض من مهاده الرملى ، ويتطلع إلى العالم فى غير دهشة ، ودون أن يفقد هو أيضاً هدوءه وعزته وجلاله .

فمن هذه المجموعة المتماسكة تشع بارقة الأمل ، وترتفع دعوة الحياة ، ويتأكد سلطان القوة والإرادة والعزم الراسخ على المجالدة والكفاح .

فمختار فى حياته الفنية وفى جهاده المتصل ، قد تأثر أول الأمر بفن رودان والفن الإغريقى الرومانى . ولكنه لم يطمئن ، وظل يبحث عن نفسه ، حتى استطاع أن يتحرر من تلك المؤثرات ، ويرتد إلى تقاليد أجداده الأقدمين ، ويدمج فنهم الخالد فى روح عصره ، ونهضة بلاده ، وتطلعات شعبه ، إدماجاً عبر به عن عبقرية خاصة ومنزع فنى مستقل .

كل هذا جلاه الأستاذ الأديب بدر الدين أبو غازى ، فى دقة وتكامل وإشراق . فجاء كتابه مع الملحق النفيس الذى أردفه به ، تحفة أدبية خالصة ، ودراسة فنية ممتعة ، خليقة بمختار ، وجديرة بأن ينعم النظر فيها ويستلهمها كل فنان مصرى ، يحس أن قيمة الإنسان من قيمة فنه ، فإما إلى هبوط وإما إلى ارتقاء .

فن الرقص فى مصر القديمة

فى الإنسان كما أسلفنا أفكار وتطلعات لا تكتفى بالظاهر المحسوس بل تنظر إلى ما وراء المادة وتطلب شيئاً بعيداً لا نهائياً .

وهذا ما أدركه المصريون القدماء ، وما أثبتته عقائدهم وفنونهم ولا سيما فن الرقص .

ونحن بهذه الكلمة التى استرشدنا فيها بمقال للعالم المصرولوجى الفرنسى « ألكسندر موريه » ، نريد لفت النظر إلى طابع فن الرقص عند قدماء المصريين وإلى مستواه الرفيع فى المعنى والأداء ، عسى أن يستلهمه بعض المجددين عندنا ، فيحكموا الصلة بين ماضيهم وحاضرهم ، ويحاولوا إبداع رقص مصرى فنى جميل ينقذنا من رقص البطن البغيض المرذول .

كان المصريون القدماء على نبوغ ملحوظ فى فن الرقص . وكان رجالهم ونساؤهم يجيدون هذا الفن كما تشهد بذلك النقوش المصرية البادية على المقابر حيث يجثم رمز الموت على مقعد وهو يتأمل جمعاً من الرجال والنساء يرقصون ، وبالقرب منهم جمع آخر يصفق تصفيقاً متعاقباً توقع عليه حركات الرقص .

فالذى ينعم النظر فى تلك النقوش ، يتبين له أن ضفائر النساء طويلة وأنها تنتهى بشبه كرة تهتز أثناء الرقص اهتزازاً يؤدى إلى تماوج الضفائر حول جسم الراقصة تماوجاً ساحراً غريباً يقترن فيه الحزن بالفرح . فالمصريون القدماء كانوا لا يكتفون بتقديم الهبات المادية لموتاهم ، بل كانوا يعنون فى الوقت نفسه بإدخال السرور على نفوسهم من طريق الفن . ولقد كان أوزيريس يحب الإله توت ويعظمه ، وكان توت فى نظر المصريين عالماً وفناناً . فهو الذى أرشد الناس فى زعمهم إلى مبادئ علم الفلك ، وهو الذى راضهم على فن الموسيقى ، وهو الذى علمهم الرقص ومختلف أنواع الرياضة البدنية ، بعد أن ابتدع لهم القيثارة ذات الثلاثة الأوتار . فالرقص كان أصيلا عندهم ، ولم يكن ضرباً من ضروب التفريج والتسلية الرخيصة ، بل كان رجع صدى الحياة ، وفناً يراد به تمثيل الحياة . فالراقص الفذ هو الذى كان فى وسعه بحركاته المعبرة المنسجمة أن يحاكى ليونة الماء ، واضطرام النار ، وضراوة الأسد ، وغضب الفهد ، واصطفاق الموج ، ولهفة العذراء الطاهرة وهى تبحث

فى الفلاة المقمرة عن شقيق روحها المعبود :

وهذه المحاكاة الدقيقة من الراقص ، كانت تنم عن تقديسه للطبيعة وشعوره العميق بما فيها من عنصرى القوة والجمال . ولقد ابتكر المصريون فوق ذلك رقصات تمثل حركات الأفلاك ، تحدث عنها أفلاطون حديثاً ملؤه الإعجاب والتقدير . وأما المآدب التى كانوا يقيمونها تمجيداً للعجل « أبيس » فكانت تبدأ بحفلات رقص رائعة . فتتقدم الصفوف جموع للكهنة ويقوم الكهنة أنفسهم حول الهيكل بالرقصة الأولى . وكان الهيكل يمثل الشمس فى كبد السماء ، وحركات الرقص ترمز إلى مختلف التغيرات السماوية التى تحدث عندما تشرق الشمس أو تغيب ، وفى خلال تطور أضوائها طوال العام. وكان الكهنة لايتوجون أوزيريس ملكاً على المصريين فحسب ، بل يشيدون به أيضاً باعتباره أخاً للمصريين وذلك فى رقصات حماسية متقدة مبتهجة تشيع فى أفئدة الشعب مشاعر الفرح والحب والاعتزاز . ولما كان يحل موعد وفاة العجل أبيس ، كان الكهنة يشيعون جنازته بالرقص أيضاً ، فيرقصون فى الهيكل وفى الشوارع رقصاً ينم عن حزن شديد يظل مستحوذاً على نفوس الشعب حتى يظهر العجل الجديد، وعندئذ تستأنف المآدب والأفراح ، ويقضى الشعب أسبوعاً كاملا فى اللهو والرقص ، على حين يتبادل الفتيات والشبان عواطف الحب ، وكل منهم ينشد الزواج الموفق ، ويبحث فى الحب والزواج عن شقيق الروح .

والواقع أن العجل أبيس كان يمثل صورة مجسدة للإله فتاح ، ويرمز إلى القوة المبدعة التى أوجدت الطبيعة ، أى فى الحقيقة إلى الله . فكأن شعب مصر كان يعتبر الرقص نوعاً من العبادة ، وكان يمجد الله فى صورة الرب فتاح ، ويقدم الرقص قرباناً يعبر به عن عرفانه بجميل الخالق .

لهذا السبب كان الكهنة يتدربون على فنون الرياضة البدنية ،

والتلويح بالأذرع والأقدام قبل البدء بالتفقه فى علوم الدين ، كما كانوا يؤمنون بأن الراقصين متى اندمجوا فى رقصهم واشتدت حماستهم وعنفت حركاتهم ، فرقصهم الديني يصل بينهم وبين القوة العليا ويستنزل الوحى الإلهى عليهم . ولقد ورد فى كتاب العلامة « لولى » عن تاريخ الفنون أن الرقص عند قدماء المصريين كان وثيق الصلة بمختلف شعائرهم وأن قوانينهم نظمته وحددت أصوله ، وخلعت عليه من ألوان التسبيح والفرح ما جعله أروع آية بين آيات العبادة والتمجيد .

فعلينا نحن اليوم أن ننعم النظر فى هذا الفن العظيم ، وأن نقبس منه ما استطعنا ، كى نحرر الرقص عندنا من مغريات الحس وعوامل الشهوة ، ونجعل منه فناً صحيحاً لا يمس ديننا وعقائدنا ، بل يرتفع بنا إلى تصوير الطبيعة وما فيها من جمال وقوة ، وإلى التعبير عن تطلعات قلوبنا وأرواحنا ، ذلك التعبير المعنوى النبيل الذى اهتدى إليه وأبدعه أسلافنا .

إنهم فى الغرب قد استوحوا من تاريخنا الفرعونى رقصات مبتكرة ورائعة ، طريفة الأوضاع ، غنية بالمعانى والرموز الإنسانية . فأجدر بنا وهذا التاريخ المجيد هو ماضينا ، أن ننحنى عليه ونعرف كيف نستلهمه ونبعثه .

فى قيمة الوطنية



وطنية الرئيس
محمد أنور السادات

ظل مؤلف هذا الكتاب ينعم النظر فى شخصية الرئيس محمد أنور السادات ، ويتابعه فى أعماله وتصرفاته كلما تأزمت المواقف واستعصت وسائل علاجها . فآمن بالرجل . آمن بذكائه المتوقد ، وبصيرته المشرقة ، وعزيمته الماضية ، ووطنيته الصادقة ، وتأهبه الدائم لتحقيق مستقبل عظيم لأمته والشعوب العربية جمعاء. فلم يتمالك الكاتب إلا أن يعرب عن إعجابه وتقديره . فكتب الرسالة الخاصة التالية ، وبعث بها إلى الرئيس . فاستأذنت صحيفة « الأخبار » ونشرتها بعددها الصادر فى ١٩ يوليه عام ١٩٧٣ .

وهذه هى الرسالة :

سيدى الرئيس :

تحية وإجلالا .

أرفع إلى سيادتك هذه الكلمة يدفعنى صدق الولاء ، وعميق الإخلاص ، والرغبة الحارة فى أن أعرب لك عما يحمله قلبى لشخصك الكريم من إعجاب يشاركنى فيه الملايين بوحى من فطرتهم السليمة ، وإدراكهم السديد النابع من صفاء النفس ، واستقامة الطبع ، والنزاهة فى تقدير مواقف الأفذاذ من الرجال .

ولا غرو ؛ فأنت الرجل الذى اختاره القدر عن بصيرة ليحمل على منكبيه القويين مصير أمة ومستقبل شعب .

ففيك يا سيدى تجتمع شتى الخصائص الفكرية والنفسية التى تمثل الزعامة الأصيلة فى أعمق وأتم صورها .

فيك العقل الذى ما يفتأ يلاحق الأحداث بما تتطلبه من تنبه وتيقظ وحكمة وحذر ، وفيك الطموح الذى يتطلع إلى آفاق مجيدة وينشد التفوق

والاستعلاء لمصر والعرب ، وفيك الإرادة الثابتة الراسخة التى لا ترتد عن العقبة حتى تذللها ، وفيك القلب الكبير الذى يحب الشعب حبًّا غامراً يتفانى فى البذل والعطاء ويستهين بكل تضحية وكل عذاب .

وحين أرجع بذاكرتى إلى التاريخ الحديث وأستحضر صور البطولة فى مجالاتها المختلفة، وأحاول أن أعثر من بينها على شخصية فذة ، تتوافر فيها نفس خصائص الزعامة التى تتوافر فيك ، وتشبه فى الكثير من مواقفها مواقفك أنت يا سيدى الرئيس ، يقع خاطرى فوراً على الزعيم الفرنسى الجمهورى العظيم « جمبتا » ، وأتذكر ما سجله المؤرخ « لويس لوران » فى كتابه « تاريخ أوربا » عن ذلك الزعيم الذى اضطلع بأخطر الأدوار خلال الحرب السبعينية التى نشبت بين بروسيا وفرنسا .

كانت البطولة هى قوام حياة جمبتا ، وكذلك هى قوام حياتك أنت .

إن معدنك من معدنه ، وروحك من روحه ، وصلابتك فى الحق والكفاح هى نفس صلابته .

لقد هزمت فرنسا فى تلك الحرب ولكن جمبتا لم يسلم بالهزيمة أبدا .

سلك المسلك البطولى الذكى الفعال الذى يشبهه فى الجوهر مسلكك أنت اليوم .

اتجه جمبتا مع الوزير « تيير » إلى تحرك سياسى شامل يؤلب به شعوب أوربا على بسمارك لئلا تستفحل مطامع ذلك الداهية فينزع إلى التوسع وفرض السيطرة على فرنسا وأوربا .

ولم يقل مؤرخ أو مفكر حتى الآن إن جمبتا كان يستجدى الصلح . ذلك لأن جمبتا وهو يمضى فى التحرك السياسى ، كان يلهب فى الوقت نفسه شعور العزة فى صدور مواطنيه ، وينظم المقاومة فى الأقاليم ، ويعد جيشاً مكوناً من مائتى ألف مقاتل ، دفع به إلى معركة « كولمييه » ،

فأحرز على الجيوش البروسية الغازية نصراً أزعج وأقلق بسمارك .

وحتى بعد نهاية الحرب ظل جمبتا ينادى بتعزيز الجيش ، ويذكر دائماً بالثأر ، ويؤلب أوربا على بسمارك ، ويعد العدة لاسترداد مقاطعتى الألزاس واللورين اللتين اقتطعتا من جسم فرنسا .

وأنت يا سيدى الرئيس لم تدخر وسعاً فى التحرك السياسى . بذلت غاية الجهد حتى أيقظت الضمير العالمى . ألبت على عدونا شعوب أوربا وأفريقيا . نبهتهم إلى صلف هذا العدو وجرائمه ومخازيه ، دون أن تكف لحظة عن السعى لجمع شمل العرب . بصرتهم بما يهدد كيانهم . أهبت بهم أن فى الوحدة والتضامن حياتهم ومستقبلهم ، ثم حفزتهم للنضال باستخدام أمضى سلاح اقتصادى لديهم ، هذا،وأنت ما تفتأ تعزز جيشك ، وتمده بمختلف أسباب القوة ، وتسهر على معنوياته العالية ، وتنفخ فيه من قلبك وروحك ، وتتربص وتتحفز لساعة المواجهة الشاملة .

هذا هو جوهر الشبه بين شخصك العظيم وشخص جمبتا .

وتأتى بعد ذلك مأثرتك الجليلة الرائعة . . . .

ماذا فعلنا نحن خلال السنوات التى أعقبت النكسة ؟

انصرف جهدنا إلى تزويد جيشنا بالسلاح ، ولكننا أغفلنا تزويد شعبنا بالطاقة الروحية التى لا بد منها لمساندة وتدعيم السلاح .

لم نفكر فى مواصلة إذكاء الشعور الوطنى فى نفوس الشعب كى تظل الجبهة الداخلية ملتحمة مع الجيش ، متأهبة للكفاح وتواقة هى الأخرى لساعة الثأر . فكان سواد شعبنا يعيش منفصم الشخصية ، موزع النفس . ذاهلا وغافلا ومستهتراً؛ وكأن لا احتلال هناك ولا عدو ولا أرض مغتصبة ، بل منافع تهالك عليها البعض فى أنانية جنائية ، وجشع منكر ، وتطلع أثيم إلى الجاه والسلطان .

ثم جئت أنت يا سيدى الرئيس ، فهالك ما رأيت . فشرعت فى

العمل ولم تتردد . استنهضت لفورك عزيمة أمة . أضرمت فى نفوس أبنائها شعلة الوطنية التى كادت تخبو . رددت شعبنا إلى نفسه . واجهته بواقعه . أيقظته على واجبه . أحكمت الصلة بينه وبين الجيش ، فاتصلت الجبهتان فى وحدة متماسكة صلبة خليقة بشعب عريق طالما تحدى الغزاة .

ثم كانت ثورة التصحيح التى استخلصتها من تجارب الماضى قوة خلاقة مسددة نحو بناء المستقبل .

وهكذا علمتنا الكثير يا سيدى الرئيس .

علمتنا أن العدو ما دام متربصًا بناء ، فيجب أن ننسى فرديتنا ، ونوحد صفوفنا ، ونهب للجهاد والتضحية أنفسنا ، وننطلق جميعًا صوب الطريق المعين المرسوم الذى لا مفر لنا من اقتحامه ، متى دقت الساعة وحان الخلاص .

علمتنا ، وأنت الرجل الثاقب الفكر ، أن هذا العصر هو عصر العلم ، وأن العلم المادى إذا لم يصاحبه إيمان دينى مستنير ، فهو قد يتحول إلى قوة مدمرة تخنق فى الإنسان قلبه ووجدانه وتطلعاته العليا .

علمتنا أن لا عزة للفرد إلا فى وطن قوى عزيز ، وأن الفرد مهما بذل وضحى فالوطن القوى لا بد أن يرد إليه أضعاف ما كان قد أعطى .

علمتنا ألا ننظر إلى الحياة بعين مستضعف ، وألا نقول إن هذا كفاح جبابرة لا جدوى منه ، إذ لو تركنا اليأس يعصف بنا فلابد أن نميل ميل أعواد القمح يطوح بها منجل الحصاد .

وفوق ذلك علمتنا أننا ١٠ دمنا لا ننسى بل نذكر ، ولا نجزع بل نتحمل ، ولا نتحسر بل نقاوم ، فنحن لم نفقد روحنا ، وسنظل اليوم وغداً صامدين وراسخين وأقوياء .

عشت يا سيدى الرئيس قائداً لنا وزعيما ، نهتدى بهديك ، وننضوى

تحت لوائك ، ونتبعك ثابتين حتى النصر .

* * *

ثم كان يوم النصر ، يوم ٦ أكتوبر المجيد وما تلاه من أيام خالدة . فتجلت شخصية محمد أنور السادات ، ووضح أمام الجميع ما انطوت عليه هذه الشخصية من مميزات فذة . فجاشت فى نفس الكاتب كما جاشت فى نفوس الملايين مشاعر العزة والكرامة . فلم يستطع الكاتب إلا أن يطلق مشاعره فى الكلمات التالية ، يؤكد بها اعترافنا بالجهد العظيم الذى بذله الرئيس فى تكتم وصمت ، وبالبطولة الرائعة التى اقتحم بها جيشنا الباسل أمنع خطوط العدو .

وقد نشرت هذه الكلمات صحيفة (الأخبار) بعدديها الصادرين فى ١٧ أكتوبر و٢٩ أكتوبر ١٩٧٣ .

موقد الشعلة وباعث الروح

إذا كان من أقدس واجباتنا أن نذكر فى كل لحظة ونمجد أبطالنا البواسل المقاتلين ، فمن واجبنا أيضاً ومن حق الوطن علينا أن نذكر فى كل لحظة ونمجد البطل الأول ، موقد الشعلة ، وحافز القوة ، وباعث الروح .

إنه محمد أنور السادات .

إنه الرجل الذى تحمل ولم يتزعزع ، وصبر ولم يتململ ، وفكر ولم يتعجل ، وخطط ولم يتكلم ، وأعد العدة فى صمت عميق للساعة الفاصلة المنشودة ، ساعة العزم والانطلاق والخلاص .

يا للصمت الرائع الذى التزمت به يا أنور العظيم قبل أن تصرخ فى شعبك داعياً للقتال !

كان صمتك هو الصمت المخصب الخالق .

كان صمتك هو صمت العبقرى الذى يحتضن فى السر إلهامه ؛

ويبدع فى السر مولدات فكره وخياله ، كى يطلع بها فجأة على الناس عملاً عجيبًا وخارقًا .

كان صمتك هو صمت البحر ، يبدو فى هدوئه الساحر صافى الصفحة باهر اللألاء ، بينما الموج المحتبس يغلى فى أحشائه كى ينفجر بغتة ويحطم كل الحواجز والسدود .

هذا أنت فى صمتك الرائع ، وفكرك اللامع ، وثباتك الواثق ، وبصرك المتنبه المتيقظ الذى أحاط بكل شيء ، وهيأ للنصر كل شيء ، ونظم واستكمل للنصر كل شيء .

فأنت العقل والإرادة ، والحزم والسياسة ، والخشونة والليونة ، والنور الذى جوهره نار .

ونحن ، نحن شعبك وجندك ، نعاهد الله على أن نلتف دائمًا حولك ، ونهتف دائمًا باسمك ، ونذكر دائمًا أنك الرجل الذى رد إلينا شرفنا ، ومحا عنا وصمتنا ، وحفظ علينا كبرياءنا وكرامتنا ، وأثبت للعالم أن المصرى مقاتل صلب الشكيمة وعنيد ، وأن فى كل مصرى من الأنفة الأصيلة والاعتزاز العريق ما يجعله يؤثر أن يقاوم ويكافح ويموت على أن يعيش مقهور النفس ، محنى الرأس ، راضيًا بالمذلة والهوان .

فالمجد لك يا زعيم مصر العظيم . أنت صانع معجزة . وبعزمك الراسخ وإلهامك الحى ، توحد الشعب ، وصنع الجيش المعجزات .

الشعلة لن تنطفئ

أجمع العالم على أن ما أحرزناه من نصر على عدونا يوم السادس من أكتوبر والأيام التى تلته كان رائعًا روعة الخوارق والأساطير .

كانت كل لفحة من أنفاسنا قد سلطت على الغاصب كوقد السعير ، وكل نسمة من أرواحنا قد هبت عليه كريح السموم ، وكل نقطة من دمائنا قد انفجرت فيه كحمم البراكين .

تحالفت عليه قواتنا ، وتمكنت منه ، وأبصرته وهى ظافرة يتصدع ويميد وينهار على نفسه كجبار خرافى حملته قدمان من رمل وطين .

فهذا النصر العظيم لا يفتأ يصطفق فى نفوسنا كموج البحر ، ويجلجل فى سمعنا كتحايا العيد . ولقد كنا نحس وجيشنا الباسل يمعن فى الزحف والتقدم وتحطيم خط العدو ، أن قلب الوطن ينبض ، وروحه الخالد يخفق ، ونوره الساطع يشرق على العالمين ! .

كانت قامات جنودنا تمتد كأنها مردة ، وسواعدهم تشرع كأنها رماح ، وقلوبهم تتقد وتبرق كأنها هى الأخرى ألسنة نار .

تلك هى إرادة التفوق والطموح التى حققنا بها النصر .

فهذه الإرادة الطامحة لن تفتر أبداً فى عزائمنا ، وهى تتلهب كل يوم فينا ونحن نواصل الكفاح والنضال .

لن ننام لحظة على أكاليلنا . سنظل ساهرين ومتنبهين ، وأعناقنا مشرئبة إلى أعلى ، وأبصارنا الطامحة المتلهفة متجهة إلى النصر الكامل المنشود .

إن طريق الجهاد الزاخر بالأشواك ما يزال يدعونا إلى المزيد من البذل والتضحية ، ويهيب بنا أن نتطلع دائماً إلى القدوة ، إلى الزعيم ، إلى محمد أنور السادات ، إلى الرجل الذى أوقد لنا الشعلة ، وأيقظ فينا الروح .

لقد أوقد الزعيم الشعلة وما يزال يوقدها ويغذيها وهى بين أيدينا . فهى أمانة فى أعناقنا ، نفديها بالمهج والأرواح ، ونرفعها علماً على إرادتنا الثابتة ، وعزمنا الراسخ ، وكفاحنا المتصل .

وما دامت هذه الشعلة مرفوعة فى حومة جهادنا ، ومتوهجة ومضطرمة فى صدورنا ، فهى لن تنطفىء أبداً . ونحن بالنار المندلعة منها لا بد أن نتغلب ، ولا بد أن نقهر ، ولا بد أن تكتب لنا فى الأرض صولة وعزة وحياة .

عناصر الوطنية

الشعور بالوطنية هو شعور بين أبناء الوطن الواحد بالمشاركة فى عواطف ثلاث : عاطفة تمجيد ، وعاطفة ألم ، وعاطفة رجاء . . .

فأما العاطفة الأولى ، فهى الشعور بتمجيد الوطن ممثلاً فى أروع صفحات ماضيه ، أى فى مابذله أبناؤه من جهود وتضحيات ، وفى ما حققوه من مآثر وعظائم .

وأما العاطفة الثانية فهى الشعور العميق بالألم واللوعة ، لما لحق بهذا الوطن فى الماضى من هزائم ، وما استهدف له فى حياته الطويلة من مخاطر وعذابات .

وأما العاطفة الثالثة ، فهى الشعور بالرجاء الصادق فى وصل المآثر والعظائم التى حققها الوطن فى الماضى ، بقوى الحاضر المتيقظ المتوثب ، تطلعاً إلى مستقبل زاهر يمحو الألم واللوعة ، وتحاول أن تحققه للوطن عزيمة الأحياء .

هذه هى العناصر التى تنهض بشعب وتؤكد وجود أمة .

الأسرة والوطن

الأسرة هى الصورة المصغرة للوطن . وكل من لا يخلص لأسرته ، لا يمكن أن يكون صادق الإخلاص لوطنه .

فالتضحية فى سبيل الأسرة الصغيرة ، هى التى تدفع عند الاقتضاء إلى التضحية فى سبيل الوطن الكبير .

ولا تضحية مع الأنانية ، إذ الأنانيون يريدون أن يستمتعوا لا أن يضحوا . ومتى عزت الدنيا على فرد ، فالذل مرتعه ، والجبن ملاذه ، والسلامة الوضيعة هى غاية مايطمح إليه .

أما ذلك الذى ينشد الكرامة والتفوق فى الحياة ، فهو يحتقر النعيم الدنيوى سمواً بالحياة . بل هو يعلم علم اليقين أنه لن يمتلك الحياة إلا إذا غامر بها ، ولن يضمنها عزيزة وشريفة لوطنه ونفسه وأصلابه إلا إذا عرف كيف يموت من أجلها .

الشعلة والمطرقة

المواطن القوى لايحزن على مافات ، ولا يقف بأية نكسة عارضة مستهولا وقوعها ، ممعناً فى ذكرها ، جاعلاً منها حسرة دفينة تحز فى صدره ، وتوهن عزمه ، وتبتليه بالشلل .

المواطن القوى لايكبو إلا لينهض ، ولاينهض إلا ليثب ، ولايثب إلا ليكافح ، ويظل متربصاً بالمجهول ، متأهباً لتحدى القدر .

المواطن القوى جمرة وشعلة . وهو إذا حرقته جمرة ، أسرع وقبس منها ناراً لعقله وقلبه وإرادته ، وأحال تلك النار إلى شعلة .

المواطن القوى لايفقد أبداً روحه . إذ هو سندان ومطرقة . سندان يتحمل الألم ، ومطرقة تضرب هذا الألم وتخنقه وتأبى إلا أن تنشد التفوق والاستعلاء .

لا تنس . . .

لاتنس أن الإنسان الحى هو الذى لايرتضى لوطنه قدراً يذله ، وهو الذى يكافح مااستطاع كى يصوغ لوطنه قدراً يرفعه ، وهو الذى لو خانه الحظ أسرع وتلقى الصدمة بوثبة ، قبل أن يستعذب الضعف ويستمرئ الشكاية والندب والعويل .

لاتنس أن حبك لوطنك لايكفى . الحيوان أيضاً يحب جحره . وأما أنت — الإنسان — فيجب أن تحب وطنك بقلبك ، وتخدمه أيضاً بعقلك وإرادتك . إذ الحب وحدة عاطفية سلبية سرعان ماتفنى فى

التعلة والكلام . أما الإرادة العاقلة الدائبة فهى العاطفة الإيجابية التى تدفع إلى العمل والجهاد ، وهى التى تثبت بالبذل والتضحية قيمة الحب الوطنى الصحيح .

لا تنس أنك تعيش فى وطن معين ، وأنه لو قضى على هذا الوطن ، قضى عليك أنت أيضاً . فالبث متأهباً للذود عن وطنك ، تضاعف قوى الحياة الخصبة فى نفسك ، فتشتعل هذه الحياة فى أصلابك . فيتفوق الوطن بكم ويعلو ، لا لخيركم أنتم فقط بل لخير الإنسانية كلها فى تقدمها المطرد صوب حضارة تنهض على الحرية والعدل .

لا تنس تلك الطائفة من المترفين المستهترين الذين تخلبهم مناعم الحياة ، وتستهويهم أبهة المظاهر ، ويهولهم الإقدام على أية تضحية . أنظر إلى أيديهم الناعمة وجلودهم الرخوة ، ثم اضرم فيهم شعلة الروح ، واصرخ فى وجوههم أن اخشوشنوا وتقشفوا وكونوا رجالا ، وإلا كان انطواؤكم على أنفسكم وملذاتكم شراً على الوطن من الخيانة ، بل كان هو الخيانة العظمى نفسها .

وحدة كاملة

إن إنقاذ الحضارة منوط بتعميمها ، وإنقاذ الوطن منوط بالجمع بين أبنائه ومحو الفوارق الطبقية التى تفصل بينهم ، بحيث تتألف منهم وحدة اقتصادية أساسها العدل ، تكمل وحدة الكيان القومى التى أساسها الاستقلال والحرية .

وهكذا لا تتفوق فى الوطن طبقة أو هيئة على حساب المجموع ، بل يتفوق المجموع برمته على نفسه ، تحقيقاً لتماسك الوطن وتكامله .

هذا ما يجب أن يفهمه الشرق العربى كله ، وإلا ظل منقسماً إلى طبقتين : إحداهما متعلمة مترفة ، والأخرى جاهلة معدمة ، أشبه بتمثال عجيب رأسه من فضة وقدماه من طين .

وطن وفكر

ليست القوة المادية وحدها هي التي يجب أن يسعى الوطن للظفر بها . ينبغي أن ينشد القوة المعنوية أيضاً ممثلة في الثقافة . أي في الاهتمام جهد المستطاع بالتعليم العالي ، وإفساح المجال أمام الأفراد للفكر الحر والبحث الحر ، بحيث تخصب عقول الممتازين منهم ، ويصبح في مقدورهم إبراز مواهبهم ، وإبداع الجديد الفذ من استكشافات علمية أوبحوث فلسفية أو أعمال فنية أو أدبية تجاوز محيطهم وتساهم في ارتقاء الحضارة وخير الإنسانية .

فعلى قدر مايساهم الوطن في التقدم الحضاري وعلى قدر مايشع منه نور الفكر على العالم ، يرتفع شأنه ، وتعظم مكانته : وتقدره الأمم والشعوب ، وتحرص على بقائه بل تناصره لو استهدف للمحن ، شعوراً منها بأن قوة مرموقة من قوى التقدم البشري مرهونة بوجوده . وأن هذه القوة لو تقوضت وانهارت فسينهار معها صرح من صروح الحضارة يستند إليه الكل ويرقى بوساطته الجميع .

فاقتران القوة المادية بقوة معنوية مبتكرة وخلاقة تجعل من الوطن كياناً لاغنى للناس عنه وعن ضوئه الثابت الوهاج ، تلك هي الغاية العليا التي يجب أن يتطلع إليها كل وطن ناهض .

ونحن ما زلنا حتى الآن نتمتع بثمرات الحضارة الراهنة التي غرس أشجارها الآخرون ، فيجب أن نغرس نحن أيضاً في حديقة هذه الحضارة أشجاراً نرد بها ما أخذنا ، ويمكن أن يجني من ثمارها الآخرون.

مركب نقص

ليس معنى حبنا لوطننا أن نكره أو نحتقر أوطان الآخرين ونقول عنهم إنهم « خواجات » ، وإلا كان ذلك منا تعصباً أعمى

يطوينا على غرورنا ، ويخنق فينا كل تطلع إلى آفاق بعيدة تسبح فى النور .

إن أوطان الخواجات تنهض كل يوم بأشق الجهود وأسماها . فلنضف إليها جهودنا ، تحقيقاً للمساواة بيننا وبينها فى العمل والإبداع ، محوا لمركب النقص الذى يختم على أبصارنا ويضللنا .

حضارة واحدة

لا يزال بعض كتاب أوربا يفرقون بين حضارة شرقية وأخرى غربية . ونحن نقول لهم إنهم يغالطون لأنهم مستعمرون ، وأن الشرق لن يقف أبداً عند الحد الذى رسمته له عقول مفكرى الاستعمار . إن الحضارة اليوم واحدة . الحضارة اليوم عالمية وليست وقفاً على عنصر دون عنصر ، وشعب دون شعب . ومن المحال على أى فكر نزيه حر أن يسلم بوجود حضارتين متباينتين متطاحنتين ، تعمل إحداهما للتغلب على الأخرى . هنالك أمم مستعمرة ، وأمم تكافح الاستعمار . هنالك أمم تقدس رأس المال ، وأمم تسعى للقضاء على طغيان رأس المال . أما الحضارة فعلمية صناعية واحدة . وأما مايسميه المستعمرون حضارة شرقية ، فالغرض منه إيجاد فوارق عنصرية تقليدية ، تؤيد الاستعمار ، وتحكم باستحالة اندماج الشرق فى الحضارة السائدة .

ولكن الشرق الذى كان يحيا الحياة الزراعية الفطرية قد أفاق من غفلته ، وأخذ يسدد جهوده نحو الصناعة والعلم . ومتى اهتم شعب بالصناعة والعلم ، فقد خرج من سباته ، واتصل بعصره ، وشرع يعتمد على نفسه ، ويؤمن بقيمة العقل ، ويستخدم العقل فى معالجة كل شىء وبناء كل شىء .

ونحن نتجه الآن فى هذا السبيل ، وكذلك الشرق كله . فلاحضارة شرقية وأخرى غربية ، بل حضارة صناعية غمرت معظم القارات .

ومن المحتمل جداً أن تؤدى فى المستقبل إلى رفاهة جميع الشعوب ورقيها. وفق أنظمة اقتصادية اشتراكية عادلة ، تكشف عنها حركة التطور الماثلة فى تعاقب أحداث التاريخ منذ الثورة الفرنسية حتى اليوم . عندئذ يزول كل فارق عنصرى مغرض وخبيث . ولا يبقى بين شعب وآخر إلا اختلاف الطابع والمزاج والثقافة والعبقرية الشخصية .

ذلك العدو . . .

لكى تفهم مكائد المستعمر عدوك وتذكر دائماً أساليب المستعمرين وتحذرها ولا تنساها ، تأمل هذه العبارات التى وجهها الكاتب الإنجليزى « شسترتون » إلى رجال السياسة فى بلاده عقب الحرب العالمية الأولى ، والتى عثرت عليها مترجمة فى أحد أعداد مجلة « صدى العالم » الفرنسية .

قال شسترتون :

إذا شئنا أن يحالفنا النجاح فى سياستنا الاستعمارية ، فيجب :

أولا : أن تظل المستعمرة التى نحكمها بلداً زراعياً متأخراً ، ولا تكون بأى حال بلداً صناعيًّا متقدماً — ثانياً — أن نستولى على خامات المستعمرة ثم نجعل من المستعمرة سوقاً نصرف فيها تلك الخامات بعد تصنيعها فى بلادنا — ثالثاً — أن نحارب التعليم العالى الذى يبصر أبناء المستعمرة بحقوقهم ، وأن نجعل الثقافة سطحية بحيث تقتصر المدارس على تخريج ماتحتاج إليه الحكومة المحلية من موظفين — رابعاً — أن نشجع شعب المستعمرة على التشبث بعاداته المتوارثة ، وتقاليده البالية ، وبدعه الزرية ، باعتبار أن هذه التقاليد والبدع هى الطابع الثمين الذى يميزه ويعبر عن روحه — خامساً — أن نحالف الإقطاعيين ونرسل بأبنائهم يتلقون العلم فى بلادنا ، فإذا ما عادوا منها يحملون الشهادات العالية لوحنا لهم بالوظائف الكبيرة ، وأدمجناهم فى حظيرة عملائنا ، وجعلناهم يتولون الحكم ، واتخذنا منهم الأدوات الصالحة لتأليف طبقة ممتازة ،

تستطيع أن تعاوننا على إخضاع الشعب وتوطيد نفوذنا — سادسا — إذا تمرد شعب المستعمرة وطالب بحريته ، فعلينا أن نسرع ونقمع حركة التحرر بشدة ، لأن الضعيف لا يتراجع إلا متى خاف — سابعاً — إذا حدث ونازعتنا فى امتلاك المستعمرة دولة قوية ، فيجب أن نقتسم المستعمرة معها بشرط أن نحتفظ نحن بنفوذنا الأول فيها — ثامناً — إذا حدث وتغلبت المستعمرة علينا وفازت بحريتها واستقلالها ، فيجب أن نظل متربصين بها ، متنبهين لعثراتها ، نناصبها العداء خفية ونؤلب أصدقاءنا عليها ، حتى تضعف فجأة وتتخاذل ، فنفتح لنا ثغرة فيها ، ونعود فننفذ إليها ، ولو من طريق غير مباشر يزعزع استقلالها ، ويكفل لنا السيادة عليها وضمان مصالحنا .

هذه هى توجيهات « شسترتون » وأضرابه فى فن الاستعمار ، ولقد عمل بها المستعمرون الإنجليز خاصة والأوربيون بوجه عام ، وهى لا تزال متأصلة فى عقول طائفة كبيرة من ساستهم ، برغم استقلال معظم شعوب المستعمرات ، وثورتها على المستعمرين الأجانب وعلى الحكام الوطنيين الإقطاعيين الذين مكنوا لأولئكم الأجانب وحالفوا المستعمر على استغلال بلادهم وإذلالها .

فلنضع عبارات الكاتب الإنجليزى نصب أعيننا ، ولنعلم أنها ماتزال حتى اليوم تهددنا ، وأن واجبنا هو أن نتخذ منها مثاراً لوعينا ، وحافزاً لوطنيتنا ، فى كفاحنا الدائم المقدس للذود عن استقلالنا وحريتنا .

الشعور بالمسئولية

. . . ومع ذلك ونحن وقد ظفرنا باستقلالنا . فعلينا أن ندرك أن الاستقلال هو بداية الطريق . علينا ألا نتسامح مع أنفسنا ، وألا نخفى عيوبنا ، وألا نتهاون فى التنبه إلى النقائص التى تشوب أخلاقنا .

وليس من شك فى أن البعض منا يؤدون واجبهم فى نزاهة مطلقة.

ولكن هناك من يتنصلون من حمل مسئولياتهم ، بل لايكترثون لأى واجب ومسئولية . كما أن هناك من يقومون بواجباتهم ويضطلعون بمسئولياتهم ، ولكن لا عن وحى نبيل من نفوسهم ، بل تحت تأثير الخوف من ضياع المركز والمكانة والاستهداف للتقريع أو العقاب .

بيد أن قيمة الفرد العامل بل قيمة الإنسان تكمن فى شعوره بأن عليه أن يؤدى عمله « كاملا » من تلقاء نفسه ، وأنه فى تأدية هذا العمل مسئول تجاه ضميره ، وتجاه الواجب المقدس المفروض عليه نحو وطنه .

والواقع أن مثل الرجل فى حياته العملية كمثل المرأة فى حياتها الزوجية ، وكما أن المرأة يجب أن تكون قبل كل شىء على فضيلة راسخة وضمير حى كى تخلص لزوجها من تلقاء نفسها إخلاصاً لا يصدر عن خوف من عقاب أو تهديد بعقاب ، كذلك الرجل يجب أن يكون له الضمير الحى نفسه يدفعه إلى الشعور بالمسئولية والإخلاص فى تأدية الواجب بصرف النظر عن القوة المشرفة التى تحاسبه عليه .

وقد حدث فى فرنسا فى مطلع هذا القرن أن تظلمت طائفة من معلمى المدارس الابتدائية ، ورفعت شكاواها إلى الحكومة وطالبت بزيادة رواتبها فماطلت الوزارة فى ذلك العهد وسوفت ، وظلت تماطل مدة عامين ثم سقطت . فلما جاءت الوزارة الجديدة وأجرت تحقيقاً عادلاً فى مطالب المعلمين ، تبين لها أن النتائج التى قدموها فى العامين اللذين استفحلت فيهما شكاواهم ، كانت هى النتائج السابقة الرائعة نفسها لم يلحقها أى تبدل ولا اعتراها أى نقصان .

فأولئك الأساتذة كانوا يتذمرون . ولكن مسئولية العمل كانت حية فى نفوسهم . فلم يقصروا فى تأدية واجبهم ، ولم ينتقموا من الحكومة ومن تلاميذهم بالحط من مستوى التعليم .

هذا هو الشعور بالمسئولية فى أعلى مراتبه . بل هذه هى قيمة الضمير ممثلة فى قوة أبية شريفة . تحاسب نفسها قبل أن يحاسبها الآخرون ،

وتستنكر طلب الجزاء العادل على حساب العمل والمجموع .

فهذه القوة النبيلة هى التى تنقص طائفة كبيرة منا ، وهى التى يجب أن نكافح ما استطعنا لنغرسها فى عقولنا ، ونشربها قلوبنا وأرواحنا ، بحيث تصبح طبيعة فينا ، تدفعنا إلى الشعور بمسئولياتنا من تلقاء أنفسنا ، وتحررنا وتنقذنا من نزعة العبث والاستهتار . ومتى تأصلت فينا هذه القوة ارتفع بنا الوطن وسما . إذ قوة الشعور بالمسئولية هى الدعامة التى يرتكز عليها الوطن . وحيث لاشعور بالمسئولية فلاعزة ولااستعلاء للوطن .

فالمواطن يجب أن يحب العمل لذاته ، ويخلص للعمل مدفوعاً بضميره ، ويعتبر الدقة فى العمل غايته ، والنزاهة المطلقة مثله الأعلى . وهكذا يؤكد المواطن قيمته ، ويؤكد شرفه وكرامته . فيتفوق به وطنه ، لأنه هو نفسه يكون قد قدس الواجب والمسئولية ، واستطاع أن يتفوق على ضعفه ، ويقهر كل منكر وضيع من شهواته وغرائزه .

بيروقراطية نزيهة

الهدف الأمثل للدولة الاشتراكية هو إذابة فوارق الطبقات لتحقيق العدل الاجتماعى مقروناً بحرية الفرد والحرص على كرامته الإنسانية .

بيد أن هذا الهدف الأمثل يجب أن يظل أولاً وقبل كل شىء نصب عين البيروقراطيين الكبار ، إذ هم أداة التنفيذ فى المجتمع الاشتراكى ، وهم القدوة التى يتطلع إليها سواد الشعب .

فإذا تكونت فى المجتمع الاشتراكى طائفة من البيروقراطيين الكبار لاضمير لها ، تنزع إلى الجاه والثراء ، وتستغل مناصبها العالية لمنافعها الشخصية ، وتسلط قوى الإرهاب على الفرد الضعيف ليخافها ويأتمر بأمرها ، فهذا الفرد الضعيف الذى يلمس امتياز تلك الطائفة بالجاه والثراء ، إما أن يغض عن مسلكها ويمالئها عساه أن يلتقط شيئاً من موائدها فيتسمم هو أيضاً مثلها ، وإما أن يرزح تحت وطأة الإرهاب

فينكمش ويصمت ، فيفقد حريته وكرامته وإيمانه بالعدل الاجتماعى .

فالصرامة كل الصرامة فى اختيار بيروقراطية كفء ، نزيهة ، ثم اليقظة الدائمة فى مراقبتها ، والشدة فى محاسبتها على كل إهمال ، واتقاء انحرافها إلى منزع أنانى نفعى باستبدال غيرها بها الوقت بعد الآخر ، إلا إذا ثبت إخلاصها وكفاءتها ، ثم توقيع أقصى العقوبة دون رحمة بأى عضو من أعضائها ، يسرق أو يرتشى أو يسعى سعياً خفياً خبيثاً رامياً إلى تخريب وتقويض . ذلك هو العامل الرئيسى الذى يحمى النظام الاشتراكى ويوطده ، ويشعر الفرد بأنه يعيش فى عالم عادل ومأمون ، لا يرتعد فيه صغير أمام إرهاب كبير ، ولا يعلو فيه كبير على حساب صغير .

ولا ريب فى أننا لو تسامحنا مع البيروقراطى الكبير وأسرفنا فى الثقة به ولم نجعل هناك لجنة من المراقبين تباغته فجأة وتحاسبه ، فقد تأخذه العزة بالمنصب ، فيتوهم أنه صاحب سلطة مطلقة ومركز قوة ، فينقلب فى دائرته إلى دكتاتور صغير . ومتى انقلب البيروقراطى الكبير إلى دكتاتور ، فإما أن يستبد ويطغى ، وإما أن تختم على بصره نشوة منصبه ويعصف به إغراء المادة . فيسلس قياده للشائن المنكر من غرائزه . فيفسد هو ويفسد من حوله ، فتتألف منه ومن أمثاله الوصوليين طبقة جديدة تنسلخ عن مجموع الشعب ، وتحيا الحياة المتحكمة المستغلة التى كانت تحياها بالأمس طبقة الإقطاعيين .

هذا ما يجب أن يتنبه إليه كل مسئول فى كل مجتمع اشتراكى .

صرخات إلى الشباب

لن يعود !

الشرق الفاتر الحالم الوسنان . لن يعود ! الشرق العابث المتواكل المستخذى . لن يعود ! الشرق الجامد النائح الشاكى . لن يعود ! أصبح الشرق عاصفة تزأر ، وإعصاراً يهدر ، ودورة فلكية محتومة استحالت إلى ملحمة خارقة صيغت أحداثها من دم الطموح !

لا استكانة بعد اليوم ولا صبر !

لا رقاد على الماضى ولا حلم . بل عمل مندلع كشعلة النار ، وإرادة قاطعة كحد السيف ، وعزم جارف كاندفاق السيل ، وأمل واضح كصفحة النهر العريض .

لم تعد شيمة الشرق البكاء .

عدو الشرق هو الذى يبكى اليوم على الشرق القديم .

على الشرق الذى طالما امتهنه .

على الشرق الذى طالما انتهكه .

على الشرق الذى طالما اعتصره واستنزفه .

هذا الشرق قد مات .

فليبك العدو على جثته ما شاءت له المرارة والحسرة . أما نحن فسنلقى بالجثة فى كهف سحيق ، وسنوصد الكهف بكتل من حديد ، وسنقيم حول الكهف مأدبة كبرى كتلك المآدب التى ورد ذكرها فى سير الأنبياء الخالدين ، تلك المآدب الرائعة العظيمة التى لا تقام للموتى بل للمبعوثين ! . .

انطلق . . .

انطلق فى طريق الشوك شامخ الرأس ، عالى الجبهة ، مضموم القبضة ، ولا تتقهقر .

احترق أملا ورغبة وتعذب .
احترق طموحاً وكبراً وتغلب .
احترق كفاحاً ونضالا وعش .
هذه هى الحياة !

* * *

إذا خاب أملك فاجعل من الخيبة حافزاً .
وإذا وهن عزمك فاصنع من التعب سوطاً .
وإذا انتابك اليأس فاخلق من اليأس ناراً ، تضرم فيك شعلة الانتفاض وتلهب مثلك الأعلى .
احترق ضعفاً وقوة وتعذب .
احترق مرضاً وصحة وتغلب .
احترق ألماً ولذة وعش .
هذه هى الحياة !

* * *

كن صبوراً ولكن لا تتململ
كن جريئاً ولكن لا تتهور .
كن حازماً ولكن لا تتجبر .
كن إلهاً ولكن اذكر دائماً أنك إنسان .
احترق تجربة وحكمة وتعذب .
احترق ثقافة ومعرفة وتغلب .
احترق إرادة وتحملا وعش .
هذه هى الحياة !

* * *

قد تجد الدودة فى كسرة الخبز فلا تحفل .
قد تجد المرارة فى جرعة الماء فلا تجزع :

قد تجد الغانية فى روح المرأة فلا تحزن .
قد يطأ الغاصب أرضك فلا تفزع .
انبذ الخبز ، واسكب الماء ، والفظ المرأة ، وقاوم الغاصب واحترق
احترق إباءً وأنفة وتعذب .
احترق إرادة وعزماً وتغلب .
احترق تحفزاً وجهاداً وعش :
هذه هى الحياة !

* * *

لن تُمتهن إلا إذا تلهفت .
ولن تحتقر إلا إذا توسلت .
ولن تموت إلا إذا انبطحت على الأرض وزحفت .
فالو بوجهك ولا تتطلع .
واحبس وجيب قلبك ولا تتنفس .
والبث واقفاً واحترق .
احترق تجلداً وتصلباً وتعذب .
احترق وحدة وعظمة وتغلب .
احترق ثباتاً وتحفزاً وعش .
هذه هى الحياة !

* * *

وإذا انحنت عليك الآلهة من عليائها ورمقتك بعيون ملؤها العطف والحب ، فابتسم الحظ لشجاعتك ، وخضع المجد لإرادتك ، ودانت الدنيا لسلطانك ، فافتح مغاليق صدرك وتقدم .
تقدم أيضاً واحترق .
احترق تطلعاً إلى السماء وتعذب .
احترق تحديقاً إلى الشمس وتغلب .

احترق سعياً وراء الكمال وعش .
هذه هى الحياة !

فوق السحب . . .

وإليك هذا المثل الحى الخليق بأن تستلهمه القوة أيها الشاب .

إنه النسر المصرى .

هو ذا النسر المصرى يشق بطائرته أجواز الفضاء .

إنه يحلق . إنه فى الفضاء الشاسع نقطة حية صيغت من عقل متنبه ، وعصب متوتر ، وارادة متربصة متحفزة ، تخالس الهدف المعين فى نشوة المغامرة والاستبسال .

الأرض تحت قدميه . الأرض تشرئب إليه وقد انكمشت وتضاءلت وذابت فى نظره . ومع ذلك فهذه الأرض حية فى قلبه ، نابضة فى عزمه الثابت الوطيد .

وهو فى سبيل هذه القطعة من الأرض يحلق ، وبغية إنقاذ هذه القطعة من الأرض يضرب ، ومن أجل هذه القطعة من الأرض يتحدى العناصر ويقتحم السماء .

إنه حارس جو الوطن المقدس . إنه ليبعث فى هذا الجو ضوءاً رائعاً كالأمل ، وأزيزاً مروعاً كالوعيد ، وهدوءاً مطمئناً عميقاً كهمس الثقة فى نفس جبار .

ماذا يهم لو مات .

قد يموت يوماً ، وقد لا يعرف مثواه أحد ولايصلى عليه أحد . ولكنه إن مات اليوم ، فسيموت وهو يخضع الجو لسلطانه ، ويصيب الهدف فى صميمه ، ويعيش لحظات سرمدية تضطرم نارها فى قلبه وقلوب مواطنيه .

فالنسر المصرى يهتف بنا صارخاً :

الجو ملكى والجهاد حياتى ، والموت فى غمرة هذا الجهاد أمتع وأخصب حياة . وماامات من عشق الموت وهو يجاهد ، ماامات من عشق الموت فى سبيل بلاده ، ونقش اسمه فى هيكل المجد ومعبد الأصلاب .

شخصية رائعة

وإليك هذا المثل أيضاً ، هذا المثل الرائع فى الوطنية الصادقة ، أضعه أمامك مصوراً فى امرأة . ولكنها امرأة ما أجدرها بأن تكون قدوة للكثير من الرجال .

إنها تدعى « كريستين تريفولس » . وقد ولدت عام ١٨٠٨ فى مدينة ميلانو التى كانت تعتبر إذ ذاك عاصمة مقاطعة لومبارديا الإيطالية. وما إن شبت كريستين وترعرعت حتى أبصرت جيوش النمسا تستعمر هذه المقاطعة وتسلخها من جسم إيطاليا ، ثم تنتشر فى مدينة ميلانو ، مستبدة بأهلها ، مثقلة كواهلهم بالضرائب ، مغرقة جموعهم فى لجة الفقر والبؤس ، مضطهدة مااستطاعت فريق الإيطاليين الأحرار الذين كانوا يسعون لتحقيق وحدة إيطاليا واستقلالها .

وكانت كريستين التى نشأت فى أسرة ثرية اشتهرت بخدمة الأدب ، والعلم ، فتاة حادة المزاج ، قوية الشكيمة ، ملتهبة التصور . فلما تنبه عقلها وإدراكها ، ولمست مبلغ العذاب الذى يعانيه أبناء شعبها على يد المستعمر النمسوى ثارت كرامتها وكبرياؤها ، فآلت على نفسها أن تعيش لخدمة وطنها وأن تبذل فى سبيل تحرير هذا الوطن المستعبد الممزق شبابها وحياتها .

وكانت «كريستين» مضرب المثل فى سحر الجمال وروعة الأناقة وفتنة الإغراء . وكان الرجال يترامون عند قدميها ، ويتبارون فى أيهم يظفر بها حبيبة وزوجة . ولكنها لفرط ماتأثرت بعذابات شعبها ، ولفرط ما استغرقها شعورها الوطنى وملك عليها عقلها وحواسها ، وضعت الواجب

فوق الحب ، والوطن فوق القلب ، والجهاد فوق الزواج . فطرحت عنها غلائل المرأة المترفة ، ونبذت كل ما كانت تستمتع به من مال وجاه ، ونزلت إلى معترك الجهاد ، وهى لم تزل فتاة فى الثانية والعشرين ...

ارتدت ثوب جندى مقاتل ، وحملت الغدارة والسيف والخنجر ، واندفعت فى مقاطعات « رومانى» و « صقلية » تؤلف الكتائب الكبيرة من الأحرار وتنظمهم وتدربهم وتنفق عليهم وتحثهم على شن حرب العصابات على جيش المستعمر الغاصب .

وذاع صيتها فى إيطاليا بأسرها وانضم تحت لوائها كل وطنى نزيه ، وشرع أتباعها فى مناوأة جيش النمسا و إقلاق راحته وإشعاره بأن احتلاله مقاطعة لومبارديا لا بد أن يكلفه أغلى التضحيات.

وكانت كريستين وهى فى غمرة جهادها ، لا تكتفى بإضرام شعلة الوطنية فى نفوس شعبها ، بل تريد أن تعلم الشعب وتثقفه أيضاً . فكانت تدعو إلى حب الأدب والعلم ، وتساهم فى نشر المجلات والكتب ، وتكافح لتعلم نفسها بنفسها حتى نبغت وتفوقت فى الفلسفة والعلوم الاجتماعية وتاريخ الأديان . فأصبحت مثال المفكرة المجاهدة ذات العقل الثاقب والروح الواقعى العملى . فأحبها ثرى شريف يدعى « الأمير بايوزو» وأحبته ولكنها لم ترض به زوجاً إلا بعد أن استوثقت من أنه وطنى مثلها ، وأنه متأهب للتضحية بالنفس والمال فى سبيل تحرير بلاده واستقلالها .

ولم تكد « كريستين » تسعد بزواجها فترة . حتى عادت وارتمت فى حومة الجهاد . فبثت روح المقاومة فى حزب « الكربونارى» عدو النمسا ، وضمت صفوف الأبطال الذين تكونت منهم جماعة « الجردنيرا » وحفزت كتائبهم إلى القتال . فاشتد ضغط هذه الكتائب على جيش المستعمر . فأنهكته ودوخته وألحقت به الخسائر تلو الخسائر . فاستفاضت شهرة « كريستين» ، وقدسها الشعب .

وفجأة تنكر لها القدر . غافلها وسدد إليها طعنة أصابتها فى صميم

قلبها وأنوثتها . خانها زوجها الشريف لافى الجهاد فقط بل فى الحب أيضاً . فأعرض عنها واتصل بامرأة أخرى . فلم تكف هى عن سعيها لوحدة بلادها . ولكن خيبتها فى الرجل الذى عقدت عليه آمالها مقرونة بالمتاعب والمشقات التى احتملتها ، قوضت بدنها ، وحطمت أعصابها ، فلم تستطع ذات ليلة وهى فى أحد المسارح أن تبصر زوجها يدخل المسرح مصحوباً بخليلته . فانهارت البقية الباقية من قواها ، وسقطت على الأرض مغشياً عليها .

وظلت الأسابيع الطوال فريسة أعصابها المتداعية ، ثم هالها أن تضعف وتستخذى . فقاومت المرض جهدها ، وتغلبت عليه . ثم ارتدت إلى الكتائب المناضلة ، وانخرطت فى سلكها ، ولم تتردد فى اقتحام الموت ومجابهة خط النار .

وإذ ذاك وقع لها حادث لم يكن فى حسبانها .

كانت قد خرجت مسلحة فى إحدى الليالى وقاصدة بيتاً نائياً يجتمع فيه إخوانها من أبطال جبهة التحرير . فلمحت رجلا يتبعها . فأيقنت أنه جاسوس نمسوى . فخشيت أن يعرف مكان الاجتماع وأن يفضى ذلك إلى هلاك أصحابها . فهمت بأن تتراجع . ولكن الرجل أمسك بها ، وهددها بالتعذيب والموت إن هى لم تكشف له عن مجتمع شركائها . فتملصت منه ، وقبل أن يتنبه استلت خنجرها وأغمدته فى صدره . ولم تكد تفعل حتى برزت إليها من منعطف الطريق ثلة من جنود النمسا كانوا يتعقبون خطوات الجاسوس لحراسته ، وأطبقوا عليها ، وساقوها إلى مخفر الشرطة حيث طرحت فى السجن بين النشالات والمجرمات والبغايا .

ولما كانت من أسرة إيطالية عريقة وكان زوجها هو الأمير بليوزو الذى مالأ النمسويين وعدل عن مكافحتهم ، فقد رأى حاكم المنطقة أن من حسن السياسة ألا يعاقب المرأة بالموت ، فأمر بنفيها إلى خارج إيطاليا .

وودعت «كريستين» وطنها الغالى ، وانفصلت عن زوجها الغادر ، ولجأت إلى باريس . وهناك فى مدينة النور والحرية ، استأنفت المرأة أيضاً جهادها . فأسست حزباً وطنياً إيطالياً من زملائها الأحرار المنفيين ، وأنشأت بمالها بضع مجلات وصحف تنادى بوحدة إيطاليا ، وفتحت صالونها لأعاظم رجال السياسة والأدب والفن أمثال الوزير «تيير» ، والمؤرخ «أوجستان تييرى» ، والشاعر «هنريك هاينه» ، والموسيقى «شوبان» ، وبذلت قصاراها فى استمالتهم جميعاً إلى فكرتها ، واستخدام ألسنتهم وأقلامهم فى الدفاع عن قضية بلادها .

وإذ ذاك ، ترامت الأنباء بأن ملك إقليم بيمونت الإيطالى قد استرد من النمسويين مدينة ميلانو . فأسرعت «كريستين» وودعت باريس وعادت إلى ميلانو مسقط رأسها ، ولكن ملك بيمونت كان قد ضعف وتخاذل وهادن النمسا ثم تخلى لها عن ميلانو . فخشيت «كريستين» سطوة العدو . فلم تستطع إلا أن تتنكر فى زى متسولة ، وأن تلجأ إلى قصر ريفى مهجور تملكه صديقة لها .

وفى ذلك القصر الذى حجبها عن أعين العدو ، مكثت عدة أشهر تكتب المنشورات الثورية ، وتوزعها بوساطة نفر من الوطنيين المخلصين وتبيع من حليها ومجوهراتها كى تنفق على أسر الشهداء .

وفجأة ، ولأول مرة فى حياتها ، اتقد كيانها كله ، وعرفت الحب المتبادل النقى الذى لم تشبه شائبة من لوثات الجسد .

عشقت شاباً من المجاهدين يدعى «جايتانو ستيلزى» ، رائع الحسن ، نبيل النفس ، جسور القلب ، أفنى سنى حداثته ومطلع شبابه فى مهاجمة جيش النمسا ، والتسلل إلى صوامعه الزاخرة بالمؤن ، والإقدام على نسفها أو حرقها ، مستهدفاً للتعذيب والموت .

هذا الشاب أصبح معبود «كريستين» وغاية حياتها بعد حرية بلادها ، كما أصبحت هى فى قلبه وروحه المثل الإنسانى والوطنى

الأعلى . ولكن الشاب سقط جريحاً ذات ليلة برصاص الجند النمسويين وهو يحاول نسف مستودع للذخيرة . فتحامل على نفسه ، وفر من الجند ودخل القصر زاحفاً محطماً والدم ينزف منه . فتلقته «كريستين» بين ذراعيها شبه معتوهة ، وأرادت أن تسرع إليه بطبيب . ولكن الشاب لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يقبل معبودته ويهتف باسم إيطاليا .

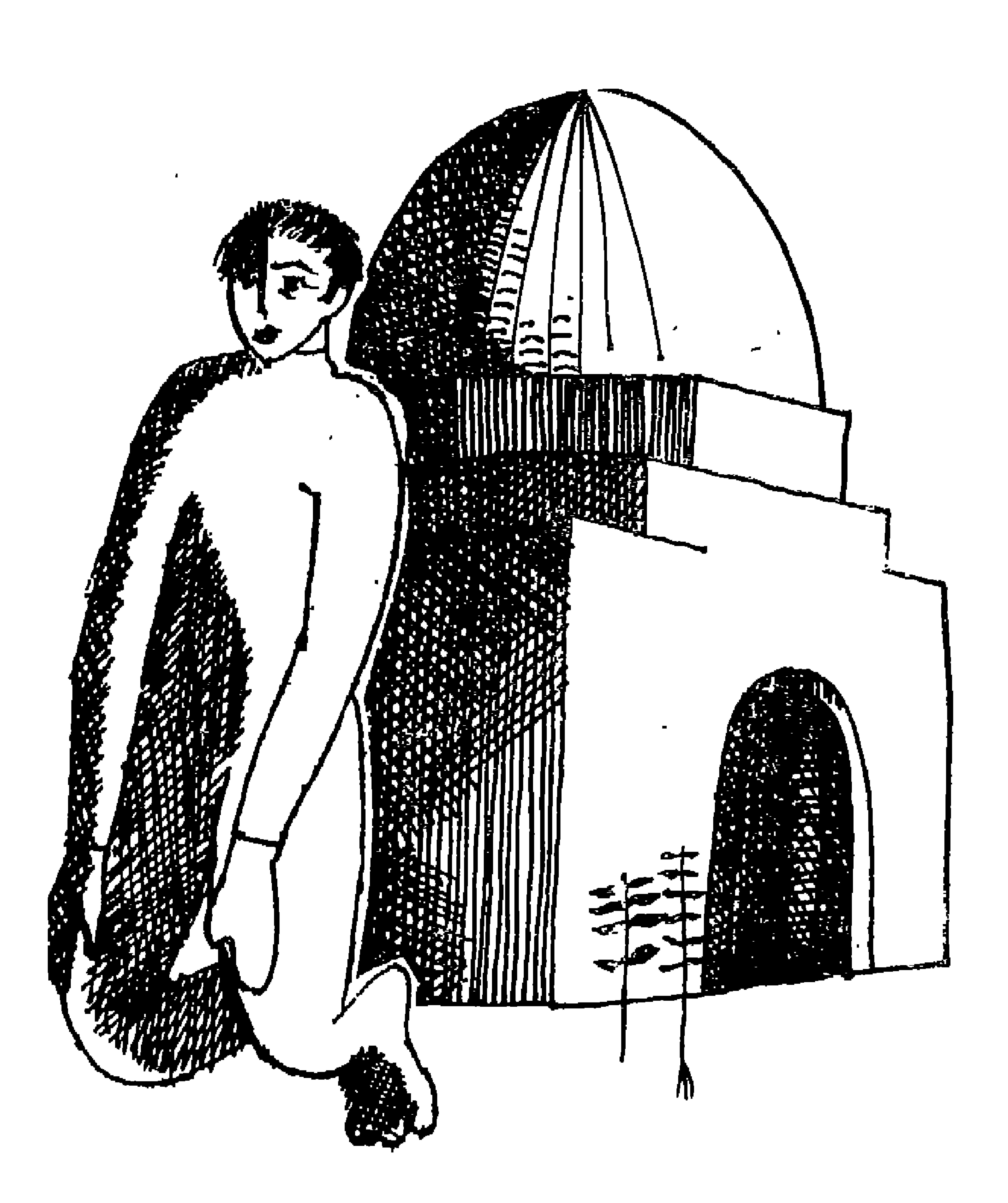
وعندئذ ، تاه عقل « كريستين» . لم تستطع أن تتصور أن الرجل الوحيد الذى أحبها حقاً وأخلص لوطنه ولها قد مات بغتة وغاب عن الدنيا . فأبت إلا أن تبذل المستحيل كى يعيش أبضاً ولو بضعة أشهر أو أسابيع . فاستقدمت طبيباً مشهوراً ، وطلبت إليه أن يحنط جثة حبيبها . ثم ألبست الجثة ثوب المجاهدين ، وأرقدتها فى حجرة قصية من القصر على فراش من حرير ، وطفقت تحبس نفسها فى الحجرة ساعات ، تناجى فيها الرجل الذى لم تجد له بين أقرانه شبيهاً . . بيد أن قيادة جيش العدو التى كانت قد بثت العيون والأرصاد حول المرأة ، تمكنت من استكشاف مكمنها . فطرق رجال الشرطة فجأة أبواب القصر المهجور واقتحموا حجراته . فأبصروا كريستين فى الغرفة النائية منحنية على الجثة المحنطة ، ومشهرة خنجراً تريد أن تطعن به نفسها كى تلحق بحبيبها ولاتقتل بيد العدو . فارتمى عليها الشرطة ، وانتزعوا منها الخنجر ، واندفعوا بها خارج القصر إلى حيث مقر قيادة الجيش . ولكن أنصارها الأحرار الذين كانوا قد علموا بما وقع ، أسرعوا لنجدتها ، وتقاطروا على رجال الشرطة من مختلف الأزقة والدروب . فدارت بين الفريقين معركة طاحنة ، تمكنت «كريستين» خلالها من الفرار والالتجاء إلى بيت فدائى يسر لها سبل السفر مرة ثانية إلى فرنسا . فهبطت باريس وعادت تجاهد وتكافح وتثير أقطاب السياسة على استبداد النمسويين ، حتى تدخلت الحكومة الفرنسية فى الأمر . فانسحب الجيش النمسوى من مقاطعة لومبارديا ، وتحققت وحدة إيطاليا على يد

الزعيم « كافور »

وإذ ذاك ، إذ ذاك فقط : عادت « كريستين » مثلجة الصدر إلى بلادها . فاحتفل بها المجاهدون واستقبلها الشعب كما يستقبل الأبطال .

وعاشت بعد ذلك فى القصر المهجور نفسه ، وماتت عام ١٨٧١ فى الحجرة القصية نفسها التى كان يرقد فيها جثمان البطل الشهيد .

فى قيمة الدين



الإيمان والسعادة

إذا اعتقدنا كما يقول الملاحدة بأن لا شيء وراء هذه الحياة ، فهذا الاعتقاد يوشك أن يخنق فينا الرغبة فى الحياة . وهو إن لم يخنق الرغبة التى تدفعنا بالرغم منا إلى التشبث بالحياة ، فهو لابد أن يخنق فى نفوسنا كل شعور بالسعادة . إذ كيف لا يسمم سعادتنا طعم الرماد مادام العدم هو مصيرنا ؟ . . .

الواقع أن السعادة الكاملة هى بنت الإيمان . فطوبى لكل مؤمن ، فهو وحده الذى يحمل وهو حى حياته الأخرى ، شخصيته المبعوثة ، وطنه السماوى . فيشعر بالسعادة مهما تعذب ، لأنه وهو فى منفى الأرض يتذوق فى طمأنينة ومنذ اللحظة طعم الأبد .

قدر مرصود

من الملاحظ فى طبيعة الإنسان أنه لا يستطيع أن يسعد لو عاش وحيداً ، ولا يستطيع أن يسعد تماماً لو عاش مع الآخرين . أفلا يكون القدر المرصود له أنه لن يجد السعادة الكاملة إلا إذا اتصل بالأبد وعاش مع الله ؟. . .

المؤمن الصادق

إذا بحث الإنسان فهو إنما يبحث عن نفسه ، وإذا أحب الإنسان فهو إنما يحب أيضا نفسه . ولكن المؤمن الصادق لا يطيل التحديق فى نهر الأرض إلى صورة نفسه ک « نرسيس » بل يتطلع دائماً إلى أعلى ، حيث تلمع صورته الأبدية الكاملة فى ينبوعها الإلهى.

نحو الله

كل حب يعلو على حب الجسد هو طريق نحو الله .

الله والوجود

المؤمن الصادق هو الذى يعتقد أن الله وحدة ، وأن الوجود كله من الله وفيه تتمثل الوحدة . إذ الإيمان الحق هو تلهف ظامئ على الاندماج فى هذه الوحدة من طرق ثلاث : تمجيد الله فى خليقته المادية ، والارتفاع إليه بحياة روحية نقية ، وحبه فى حب جميع مخلوقاته التى هى قبس منه .

قيمة الدين

لا قيمة للدين بدون ضمير . والضمير هو الصدق فى المعاملة ، والبر بالفقير ، والرحمة بالناس رحمة تقهر الأنانية وتبعث المحبة . المحبة هى الله . وأنت إن تعلقت بشعائر الدين وأهملت المحبة ، كنت كمن يعبد الصنم من دون الله .

بين العلم والدين

حاول بعض العلماء منذ القرن التاسع عشر أن يستندوا إلى العلوم الطبيعية الحديثة ، وأن يجعلوا دين الحضارة الجديد هو العلم التجريبى ، وأن يتخذوا من هذا العلم وسيلة للقضاء على الدين وفلسفة ما وراء الطبيعة .

ولكن الواقع أن الدين والفلسفة والعلم التجريبى ليست إلا ثلاث وسائل مختلفة لا غنى عنها لحل ثلاث مشاكل مختلفة توصلا لمعرفة حقائق الكون الشاملة .

فطرائق العلم تصلح مطبقة على الظواهر فقط . أما الشئون الروحية فهى

تفوق حدود البحث العلمى . والعلم مهما علل أو اكتشف فهو لا يمكن أن يرضى خوالج النفس الإنسانية وسائر ما يعتمل فيها من عواطف وما تنزع إليه من تطلعات وآمال .

إن العلم هو أداة للمعرفة ، وكذلك الإيمان أداة للمعرفة أيضاً ، أو هو أسلوب آخر يصلح لبحث حقائق أخرى واستكشافها لا يسع العلم إلا الإقرار بعجزه حيالها ما دامت الظواهر هى ميدانه ، وما دام مغلولاً بالحواس البشرية ومحدوداً بها .

بين العلم والفلسفة

لا يمكن الاستغناء بالعلم التجريبى عن الفلسفة . وإذا كان العلم التجريبى يعنى بما هو واقع ومنظور ، فالفلسفة تعنى بما لا يمكن إلا أن يظل مستغلقاً على العلم أى تعنى بمشكلات الخير والشر : والجمال والقبح ، والظلم والعدل ، والنظام والحرية ، والتشكك والإيمان ، والحياة والموت .

فالفلسفة ، فى جانبها الغيبى ، هى محاولة لتفسير المجهول الغامض علينا . وفى جانبها الحى هى محاولة لتفسير منازعنا الروحية ، واتجاهاتنا الخلقية ، وغاياتنا من وجودنا .

فالعلم يبحث فى الأجزاء والتفاصيل ، والفلسفة تبحث فى معنى الكل وفى الغاية المرصودة للمجموع .

كبرياء . . .

العلم المادى لا يخلق بل يكتشف فقط . ولأنه يكتشف ويحقق الإنجازات العظيمة ، يغالى بعض أصحاب الفكر التقدمى فى تقدير قيمته . فتأخذهم العزة بسلطانه ، وينادون بأن الإنسان قد حل بقوة العقل محل الله . وهكذا ينبهر الإنسان ويستكبر ، ويسلس قياده للعقل المادى

مسوقاً بالمصلحة والشهوات . فيجف قلبه ووجدانه ، وتموت فيه شيئاً فشيئاً تطلعاته الروحية العليا .

بين العلم والأخلاق

أراد العلم المادى الحديث أن ينازع الدين فى ميدان العواطف والأخلاق ، وأن يحاول ابتداع أخلاق علمية محضة تستند إلى العقل المجرد لا إلى الشعور الدينى

ولقد كان علماء الاجتماع وعلى رأسهم « أميل دوركايم » يرون أن ما يكوّن الأخلاق هو التضامن البشرى وليس الشعور الدينى ، وأن هذا التضامن البشرى هو الذى يدفع الأمة الواحدة إلى العمل لما فيه مصلحة الفرد والمجتمع .

بيد أننا لو تأملنا فكرة التضامن هذه لجاز لنا أن نقرر أنها نتيجة لغريزة الأخلاق فى الإنسان وليست أصلا لها . بل فى وسعنا أن نقول إن التضامن هو ظاهرة اجتماعية تنبع من تلك الغريزة الأخلاقية نفسها ، وأن التضامن لم يكن فى يوم من الأيام قاعدة أدبية إجبارية أو قانوناً خلقياً يتحتم العمل به على جميع أعضاء المجتمع الواحد . إذ التضامن — وإن كان حقيقة اجتماعية واقعة يسوقنا إليها المجتمع بحكم أنظمته وقوانينه وعاداته وقوة الرأى العام السائدة فيه — إلا أن حقيقة التضامن هذه ، لا تخضعنا تماماً لسلطانها بل نحن قد نتبرم بها وقد نكرهها وقد لا تلمس ضميرنا الباطنى على الإطلاق . والواقع أننا أحرار فى اتجاهنا معها أو ضدها . وهى مهما أوتيت من سلطة التشريع أو العرف فلن تتمكن من إجبارنا على التضحية بأنفسنا وإنكار مصلحتنا الخاصة فى سبيل المصلحة المشتركة العامة .

فآداب التضامن والغيرية ليست آداباً إجبارية على إطلاقها بل اختيارية ، وليست ضرورة من ضرورات المجتمع على إطلاقها أيضاً ،

بل هى ضرورة إنسانية فى جوهرها . غير أنه من المحال علينا أن نسلم بأنها ضرورة إنسانية إلا إذا سلمنا بأن هناك قوة معنوية نجهلها ، قوة رائدها الخير ، قائمة على معنى التعاون والغيرية لا تصدر عن المجتمع بل عن طبيعة عليا فى الإنسان الذى أنشأ ذلك المجتمع . فالإنسان هو كل شىء وهو الذى يحس فى أعماقه بتلك القوة العلوية المجهولة فيحاول أن يسبغ فضائلها على المجتمع .

فقولهم إن الضرورة الاجتماعية هى وحدها التى تخلق فضائل التعاون والغيرية ، خطأ محض . إذ المجتمع بمفهومه العقلى هو شىء تجريدى خارج عن الإنسان وقلما يسترعى الإنسان فيه غير المصلحة أو اللذة . فباسم أى شىء إذن يضحى الفرد بسعادته لأجل المجتمع . وما دام المجتمع يقدم له مجموعة منافع ولذائذ فلماذا يضحى بتلك المنافع واللذائذ فى سبيل خير المجتمع ؟ . . . إن سعادته لأهم بالطبع فى نظره من خير المجتمع ، وهو كثيراً ما يتبرم بنظم المجتمع ويتمرد عليها تحقيقاً لسعادته الخاصة فى غير ما تهيب أو تردد . ثم هو إذا أنكر ذاته وضحى من أجل المجتمع فمما لا ريب فيه أنه سيتألم ، وأن ألمه هذا لن يعود عليه فى الغالب بأى نفع مادى . فلماذا يرضى الإنسان إذن بالألم لمصلحة المجتمع . ما سر هذه القوة وما أصلها ؟ . . .

لابد لنا فى النهاية من الاعتراف بقوة عليا يحتمل بها الفرد ألم الحياة ويلجأ إليها فى تفسير كل ألم ويتجه نحوها فى طلب الغوث والعزاء كلما طالبه المجتمع بتضحية جديدة أو تعذب هو فى حياته الخاصة . وهذه القوة العليا التى تفرض الألم فرضاً علينا ، هى ولا ريب قاسية فى حكمها . ولكن قسوتها خصيبة وفى طيها نعمة . إذ هى سر قوتنا ، وهى التى تدفعنا إلى الجالدة والتفوق والثبات فى وجه قدرنا ، وهى هى التى شادت العائلة والوطن ومجهود الحضارات على ضرورة احتمال الألم ثم أنبتت فى الألم العميق زهرات الطيبة والتعاون والبذل والتضحية .

هذه القوة فى عرفنا هى محور الأخلاق البشرية ، عنها يصدر الشعور الدينى ، بل يكون نماء هذا الشعور فى نفس الفرد ، الشعور بأن النبل الروحى متأصل بجانب الشر فى طبيعة الإنسان ، يستمد وجوده من حياة علوية أبدية خالدة هى أصل الكمال كله بل المثال الأول والأخير الذى ما يفتأ يغرى البشرية بالتطلع إليه والاندماج فيه ما استطاع الإنسان أن ينفض عنه غرائزه الدنيا ويخلص من ربقة عقله الذى لا يمده بغير الحيرة ولا يغذيه بغير الشكوك .

جوهر الإنسان

مهما قال بعض العلماء إن الروح تنبع من المادة ، فروح الإنسان هى جوهره . هى التى شكلت وما تزال تشكل المادة ، بل هى التى تفرض على المادة سلطانها ، وتتجه بحركة المادة صوب غايات ثلاث لامعنى لوجود البشرية بدونها . وهذه الغايات الثلاث هى : العلم والفن والدين .

جذور الإيمان

لا أعمق فى النفس من جذور الإيمان . والرجل الذى كان منذ حداثته مؤمنا ثم ألحد ، يحس بالغربة والضياع ، بل يحس أنه قد انفصل عن ينبوع حياته . فإما أن يعاوده الحنين إلى مياه الينبوع فيرتد إلى ربه وهو ما يزال متشككاً ونصف مؤمن ، وإما أن يتعلق بغاية اجتماعية مثالية تحل فى نظره محل الدين ويعتقد أن فيها خلاصه وخلاص الناس . ولكنه وهو يتفانى فى الدعوة إلى هذه الغاية الأرضية ، يظل مع ذلك غير مطمئن إليها وضعيف الثقة فى صلاحها ونفعها الشامل ، فتتحرك فى نفسه فجأة جذور إيمانه القديم ، وتدفعه دفعاً إلى إدماج غايته الاجتماعية المادية فى فكرة الله .

وهذا ما وقع للفيلسوف الروسى « برديانيف » . فقد كان مؤمناً ثم ألحد . فأحس بالغربة والضياع . فاعتنق المذهب الاشتراكى على أنه السبيل الأوحد إلى الخلاص . ولكنه أدرك بعد تفكير وتأمل ، أن الاشتراكية ليست غير حل ضرورى لمشكلة الإنسان الاقتصادية فقط ، فطفق يدعو إلى اقتران الاشتراكية بدعوة روحية تستلهم جوهر الدين وتعترف فى الوقت نفسه بحق الفرد فى حرية الرأى والتفكير والاعتقاد . فكان هذا التحول من الفيلسوف هو الدليل على يقينه بأن سعادة الأرض التى كان ينشدها بعقله المتكبر لا يمكن أن تكتمل إلا إذا أشرق عليها نور من السماء .

والواقع أن الإنسان فى شخصيته الذاتية حر ، وفى مشاعره الوجدانية حر . وهو بإيمانه الدينى ينقع غلة روحه ، وبإيمانه الاجتماعى بمذهب يدعو إلى إقرار العدل بين الناس ، ينقع غلة عقله وضميره ، فيحقق بهذا المنزع المزدوج وحدته المعنوية والمادية كاملة .

الدين والدنيا

الصينيون القدماء هم الذين ابتدعوا البوصلة والبارود والطباعة : ولكنهم لفرط إسرافهم فى التدين واستغراقهم فى الروحانيات ، أهملوا استغلال الكنوز فاستولت عليها أوربا وعرفت كيف تغير بها وجه العالم . وفى هذا ما يدل أبلغ الدلالة على تخاذل الفرد الشرقى القديم ، وإهماله الأخذ بأساليب الحياة الواقعة ، ترفعاً منه وضناً بروحانيته عن النزول إلى مستوى الحقائق العملية اليومية وفروضها . فاقرن التدين بدعوة الحياة ، ولا يشغلنك الدين عن الدنيا ، والروح عن المادة ، والتأمل الحالم عن الكفاح المتصل ، وإلا بسطت عليك الشعوب القوية سلطانها ، وسلبتك مناعم الدنيا ، وتركتك فى روحانيتك القريرة عبداً

ذليلا ، تعيش كالدرويش الذى يستمرئ القذارة والبلاهة والتشرد ثم يزعم بعد ذلك أنه يرضى الله .

الواقع والغيب

كل شيء فى حياتنا يسبح فى عالم الغيبيات . فنحن نقول : « دى قسمة . . . دا وعد . . . دا مكتوب . . . » وبدل أن نبحث فى علة هذه القسمة ولماذا قسمت لنا ، وعلة هذا الوعد ولماذا نزل بنا ، وعلة هذا المكتوب وكيف يمكن أن يكون قد كتب علينا ، نحيل هذا كله إلى الغيب ، ونتوهم أنه من جوهر الدين ، كى نطمئن ونستريح وننام ملء جفوننا دون دهشة أو حيرة أو قلق .

بطولة المؤمن

أعرف رجلا مؤمناً أشد الإيمان ، ولكنه كسول أشد الكسل ، ينفر من الجهود مهما كانت مجزية ، ويهوى الزهد إلى حد الرضا بالبؤس ، ويشدو بالتواكل والقدرية كأنهما من جوهر العبادة ، ويقضى الحياة فى التأمل الأجوف والاستسلام لما يحسبه مشيئة الله . ولكن الله إرادة ، إرادة ماثلة فى الطبيعة وفى حركتها الدائمة وتجددها الأبدى . ذلك هو قانونها . فسنة الله هى الخلق الدائم ، أو هى إرادة الخلق والإنتاج الدائم . ولقد أبدع الله الإنسان كى يجعل منه بطلا شبيهاً به فى حب الحياة ، وخليقاً مثله بإنماء ومضاعفة قوى الحياة . فكل إنسان يزعم أنه مؤمن ثم يأخذ بقدرية محتومة ، يفر من حمل إرادة البطولة التى فرضها الله عليه . فيتجرد من إيمانه ، وينكر خالقه ، ويستعدى على نفسه قانون الطبيعة الأول والأخير .

لا جمود فى ديننا

ليس الإسلام دين جمود . ولا يمكن أن تكون تلك القدرية المستخذية التى يتوهمها فيه بعض المستشرقين هى لبه وحقيقته الممثلة لرسالته الخالدة . إن فيه لأقوى العناصر الحافزة على التطور . ولو انه كان خلواً من هذه العناصر ما تطور فى الماضى وأنشأ حضارة زاهرة تفوقت واستعلت وغالبت الزمن .

ولكن الجامدين منا الذين لا يتعمقون حقائق دينهم ، ويأبون النظر إلى ما فيه من تلك الحوافز المجددة ، هم الذين يحولون دون اطراد تألقه وازدهاره ، ويؤخرون بجمودهم تقدم أمتهم ورقيها .

فالعبرة كل العبرة فى أن نتعمق حقيقة الإسلام لنكشف عن حوافز التطور الكامنة فيه ، وأن نعمل جاهدين على المواءمة بينها وبين مقتضيات التطور العالمى بحيث نطلق للعقل العنان ولا نعوق حرية الفكر فى البحث والكشف والإبداع . فنساير ركب الحضارة على فهم لها ووعى بمشاكلها وتطلعاتها .

بهذا لا نعارض جوهر الدين بل نؤكده ، ونؤكد فى الوقت نفسه قدرتنا على التجدد والارتقاء ، وقدرتنا أيضاً على القيام بدورنا الحضارى المنشود .

تعصب ممقوت

أنا لا أخشى الفرد المتدين إذا لمست فيه ميلا واضحاً إلى السماحة والتبسط والتساهل . أما التعصب الممقوت فقد يؤدى لا إلى الترمت فحسب ، بل إلى القسوة وربما إلى الإجرام .

ولقد كان معظم الكهنة فى محاكم التفتيش فى اسبانيا من أشد الناس تديناً ولكنهم كانوا متعصبين . فأفسد هذا التعصب المرضى ميولهم

وأهواءهم ، وختم على عقولهم وقلوبهم ، فاستحلوا اقتراف كل محرم فى سبيل نصرة دينهم ، وكانوا قتلة سفاحين يلغون فى الدم البرىء كما تلغ الوحوش الضارية :

عفة المؤمن

لادين بدون عفة تصون الروح وتربأ بها عن كل انغماس فى شهوات الجسد . فإذا شئت التمرس بفضيلة العفة صوناً لدينك وإيمانك ونفسك ، فلا تدع فكرك يستسلم لمغريات حواسك ، ولا تدع خيالك يمعن فى تصور مشتهياتك فيضاعف من سحرها وهو يتصورها . ارتفع بالفكر والخيال إلى كل ما هو معنوى ونبيل . ثم تجنب ما استطعت الإفراط فى الطعام . فالشراهة قد تصبح رذيلة فتلهب الدم وتدفع إلى التهافت على شهوة الجنس . ثم اذكر بعد ذلك قصة « عولس » المشهورة . فقد ورد فى الأساطير الإغريقية أن الساحرة الجميلة « سيرسيه » أرادت إغواء « عولس » . ولكنه لم يكن قد تناول من الطعام إلا ما أراد أن يمسك به رمقه . فعجزت الساحرة عن إغوائه . فتحولت إلى أصحابه الذين ملأوا بطونهم بالطعام والشراب . فسحرتهم وأغوتهم وأحالتهم آخر الأمر إلى قطيع من الخنازير .

روحانية الجسد

الجسد نفسه يكره قاذورات الجسد . وإذن ففى الجسد نفسه لهفة تصبو إلى شىء أنظف وأكمل من قوانين الجسد .

الصوفى تجاه الله

يزعم البعض أن حب الصوفى لله ما هو إلا حب جنسى مكبوت ومنحرف ، أو هو نوع من التسامى بالغريزة الجنسية وليس حبًّا روحيًّا

خالصاً . ولكنى أقول إن هناك حباً روحياً خالصاً حتى فى علاقة الرجل بالمرأة . ونحن كثيراً ما نشعر عندما نحب امرأة حباً قوياً عميقاً أننا نقدسها بروحنا ولا نستطيع أن نشتهيها بجسدنا ، وإننا لا نكاد نبصرها أمامنا عارية ورهن إشارتنا حتى يصاب الجنس فينا بالشلل . وإذن فنحن نفقد الإحساس بالشهوة حتى فى الحب البشرى ، فكيف لانفقد هذا الإحساس فى حب الله . ومعنى ذلك أن الروح فينا قد تنفصل فى الحب عن الجسد ، وقد تحب الله أو المرأة دون أن تندفع إلى هذا الحب بأى مؤثر وضيع من الجسد .

الصوفية المثلى

فى رأيى أن الصوفى الحق مهما استشعر أنه بشتى ضروب الرياضة الروحية وفرط الوجد قد اتصل بالله ، ففرحته بهذا الاتصال العلوى لايمكن أن تكون فرحة كاملة إلا إذا نزل بها من السماء إلى الأرض ، ومثلها فى مسلكه اليومى ، أى فى أعمال دنيوية صالحة تصدر عنه وتهدف إلى خير الناس .

روح الله

الصوفية العليا هى أن تنقل روحك إلى خارج نفسك ، كى تستقبل فى نفسك روح الله محبوبك ، فلا تصبح أنت نفسك بل يصبح الله محبوبك هو الساكن فيك .

وحدة أرواحنا

ألا يمكن أن تكون روحنا قد تألفت من أرواح عديدة عاشت قبلنا . وإلا فما معنى اضطراب طبيعتنا وترجحنا بين شتى المتناقضات ، وشعورنا فى أحيان كثيرة بأننا عشنا فى ماض بعيد وغريب ، وإحساسنا

بأننا نوجس من إنسان لغير ما سبب وننجذب إلى آخر كأننا قد عرفناه مئات السنين، وكأنه هو أيضاً يعرفنا ولا يتمنى أكثر من أن يعود و يندمج فينا .

ألا يمكن أن تكون هذه المشاعر هي الدليل على وحدة كونية أبدعها وأرادها الله ، وحدة ليس أدل عليها من ذلك الرباط السرى العجيب الذى يربط بيننا وبين أرواح الأعزاء من موتانا ، أولئك الموتى الذين هم فى الواقع أحياء ، بل الذين هم فى حياتهم المبعوثة فى وجداننا أبلغ وأعمق تأثيراً علينا من أعز وأقرب الأحياء ؟ . . .

أمام الموت

ما أشد كبرنا واستخفافنا حيال الموت . نحن ننظر إلى الموت كمشهد غريب عنا ، وإلى الميت كمخلوق غريب عن جنسنا ، وإلى أنفسنا كأننا من جنس أعلى وأصلب وأذكى من أن تقوى عليه تلك اليد المجهولة القاهرة .

ومع ذلك فنحن فى جانب خفى من سريرتنا ، نرتعد فرقاً ونعرف أننا سنموت وإن كنا نغالط ونكابر ولا نصدق أننا سنموت . ولكن إنكارنا الساذج العنيد لاحتمال موتنا، مقروناً بكبرنا واستخفافنا حيال موت الآخرين . هذا الإنكار هو فى الواقع سرقوتنا . إذ نحن كلما أنكرنا بالرغم منا فناءنا المحتوم ، ألهب الإنكار فينا إرادة البقاء ، وأمدنا بالقوة على مغالبة الحياة . ولكن هذه القوة لن تنجدنا فى ساعاتنا الأخيرة إلا إذا كنا قد ارتفعنا بها ، وطهرناها من شوائب الأنانية جهدنا ، وبذلناها فى خدمة الغير ، وأدينا نحوهم واجبنا راضين مختارين مبتهجين ، عندئذ لا يعود الموت غريباً عنا ، وشيئاً لا يتعلق بنا ، وقضاء نفزع منه ونستهوله ، بل يصبح وهو مقبل علينا أخاً شقيقاً لنا ، يسكب الراحة على ضمائرنا ، والبركة على أعمالنا ، والبلسم الشافى على كل جرح

من جراحاتنا ، كى يمضى بنا فى النهاية حيث الطريق إلى المدينة العظمى ، المدينة المنورة ، مدينة الله الخالدة . التى كانت هى منذ البدء قبلة أحلامنا ، ومهبط شراعنا ، وغاية سفرنا المرهق الرائع الطويل .

« تم الكتاب »

فهرس

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٣٢٠ /١٩٧٤
مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٤

